

عيون الأبالسة
تفاصيل وأسرار أخطر وأهم ٢١ قضية تجسس وخيانة دولية ومحلية
تأليف
فاروق الصايغ
الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

منحة من SIDA

عيون الأبالسة



عيــون الأبالســة

تفاصيل وأسرار أخطر وأهم ٢١ قضية تجسس وخيانة دولية ومحلية

تأليف

فـاروق الصـايغ

تحرير

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٩٢٢٧ / ١٩٩٢

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠١١٥ - ٦

تصميم الغلاف : جوزيف حكيم جرجس

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

" بسم الله الرحمن الرحيم "

جمهورية مصـــــــــر العربيـــة

وزارة الدفـــــاع

ادارة المخابرات الحربيـه والاســـتطلاع

جهـــاز : الامن الحربـــــــي

القيـــد : ٢ / ض / ١٥٨ / ٠٥٠ / ١٧/ ٣

التاريـخ : ١٢ / ١٠ / ١٩٩٢م

الموضـــوع :

عدد المرفقات : ""

السيد / فاروق عبد المنعـم الصايـغ

تحيه طيبه ... وبعد

ايماءا لكتابكم بتاريخ ١٧/٨/١٩٩٢ بشأن نشر كتاب بعنوان (عيون الابالسه) والمكون من عدد (٣٣٧) صفحـه .

يرجي الاحاطه بأنه تصدق على نشر الكتاب المذكور بعاليه بالصفه المدنيه وعلـــى نفقاتكم الخاصه دون تحمل القوات المسلحـه أى نفقات ماليه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحتــــرام . ""

التوقيع : ""

رئيس جهاز الامن الحربـــــــــي

إلى ابنتي الحبيبة

شاهيناز



قائمة المحتويات

في هذا الكتاب

مجموعة من القصص ، تُطوِّف بك في أرجاء الأرض : فتارة تجد نفسك في سهول روسيا ، وثانية تلقاها في ربوع الولايات المتحدة الأمريكية ، و أخرى تجدها في مصر ؛ لتطير بعد ذلك إلى كندا أو أستراليا ، أو تتجول في شمال أوربا أو غربها ، ترتاد – في ذلك كله– مجاهل النفس البشرية ، و تستكشف أغوارها ، وتتعرَّف على مساربها .

وهي – القصص – وإن اختلفت أماكنها ، وتباعدت مسافاتها ، إلا أنَّ ملاطًا قويًّا يشدّ بعضها إلى بعض ، و يوثِّق عرى الصلة بينها ؛ و ذلك أنها – كلها – تدور في ميدان الجاسوسية و الخيانة ، أو حرب الدهاء والمعلومات ، تلك الحرب التي شَبَّ أوارها بين الدول منذ قديم ، ولن تضع أوزارها ما دامت هناك حدود جغرافية سياسية ، ومصالح متشابكة ومتعارضة .

ولا شك في أنك تدرك الفرق الشاسع بين الجاسوس والخائن ؛ فالجاسوس إنسان قد ثُقِّف أتم ما يكون التثقيف ، ودُرِّب أحسن ما يكون التدريب ، ثم ألقي به ؛ كي يعمل لصالح وطنه . أما الخائن فهو إنسان تقاذفته الشهوات أو المعتقدات ، فأمات ضميره وباع

ولاءه لوطنه بثمن بخس ، وراح يعمل ضد مصلحته . وستجد في هذه القصص نماذج من هذا وذاك .

وهي نماذج لم يخترعها ذهن كاتبها اختراعاً ، ولم يبتدعها خياله ابتداعاً ، ولم يلتقطها تفاريقَ وأجزاءً من هنا وهناك ، ثم ألّف بينها بفنه الروائي ، فكانت كما لا يتسنّى أن تكون في واقع الحياة ، إنّما غمس الكاتب ريشته في ليقَة الواقع الحيّ فكانت هذه الخيوط من نسيجه .

علّك تجد فيها – عزيزي القارئ – لذة ومتاعاً ، وعبرة وانتفاعاً.

كلمة

عند إلقاء القبض على خائن أو جاسوس يُثار أكثر من سؤال ، وترتفع أكثر من علامة استفهام ، أهمها هذا السؤال البسيط: لماذا ؟ وكيف أمكن لهذا الخائن أو الجاسوس أن يعمل دون أن تكتشف أجهزة المخابرات أمره ؟ أ هناك إهمالٌ من جانب هذه الأجهزة أم أنها ليست على مستوى الخبرة والكفاءة الفنية المطلوبة ؟ والإجابة الفورية على هذه التساؤلات ـ ولعلي على صواب ـ تتركز في كلمة واحدة ، هي : لا ، ليس السبب هذا أو ذاك ؛ فالخيانة أمر لا مفر منه ، وأن يكون هُناكَ خونة وجواسيس وطابور خامس لدول أجنبية – وهذه حقيقة يجب أن نواجهها – أمر لا يدعو إلى الانزعاج ، بل يكاد يكون من طبيعة الأشياء . فليس ثمة بلد في العالم يخلو من هذه الحقيقة التي تعمل على مقاومتها أجهزة و رجال مخابرات وأمن محترفون في كل مكان ينتظر أن تتواجد به عيون تتلصص أو آذان تتنصت ، أو عملاء أو مواد حيوية ، أو معلومات هامة . وعلى الجميع أن يفهم ذلك ، كما أن مقاومة الجاسوسية لن تتحقق بالاقتصار على فرض قيود الأمن ، ومدِّ الأسوار من الأسلاك الشائكة، و إقامة الخزائن الحديدية و الإكثار من بطاقات و تصاريح المرور ، بل

لا بدَّ من نشر الوعي بالأمن على المستوى العامّ ؛ حيث إن مفهوم الأمن بمعناه الصحيح يكاد يكون غائباً عند كثير من المواطنين ، ولا جدال في أن ارتفاع الوعي الأمني لديهم يخلق أقوى جهاز ممكن لمقاومة عمليات التجسس التي تستهدف أمن الوطن والمواطن .

والخيانة ليست بالضرورة أن يكون العميل متواطئاً مع أعداء وطنه بالاتفاق ، بل يكفي أن يتخذ من الأفعال والمواقف ما يحقق لهم أهدافهم ، سواء كان ذلك بوعي منه ، أو دون أن يدرك عاقبة فعلته . خاصة وأن عالَم المخابرات تجاوز كثيراً صور العمل التقليدية القديمة مستخدماً أكثر وسائل التكنولوجيا الحديثة تقدماً ، وأكثر وسائل علم النفس والسياسة والاجتماع تأثيراً .

إن أولئك الذين تثبت عليهم الخيانة - مهما اختلفت دوافعهم- لا بد أن يدفعوا حياتهم ثمنًا لجرائمهم ، وتلك هي النهاية الطبيعية لكل خائن ، ولكن يبدو أن الخونة يَنْسَوْنَ ذلك ، أو يحبون أن يَنْسَوا . فأقصى ما يستطيعون الوصول إليه لتفسير خيانتهم وتبريرها ـ أنها لعنة هبطت عليهم من السماء ، و لكنها ليست الحقيقة ؛ لأنهم يختارون ذلك بإرادتهم ، أو تضطرهم إليها طبيعتهم ، فهم ينزلقون في البداية بدعوى أنَّهم في انتظار فرصة أو لتحقيق هدف ، ثمَّ ينزلقون بعد ذلك لأنَّهم لا يستطيعون إلا الانزلاق ، ثم هم يجدون أنفسهم في النهاية في قاع بئر الخيانة ، و عندئذ يتمنّى الواحد منهم لو أن أمه لم تكن ولدته ، فيلعنون الحظَّ ، ويلعنون الأقدار . ولو أحسنوا للعنوا أنفسهم !

و يمتلئ تاريخ الجاسوسية والخيانة ـ قديمه وحديثه ـ بالقضايا والأحداث والقصص التي يمكن أن يِروى ، أو تنقل لإيضاح لمحات من أسرار الخونة ، وفي هذا الكتاب سأحاول أن أقدّم لك – عزيزي القارئ – عدداً من قضايا الخونة والجواسيس في مصر وفي دول أخرى : كيف وقعت ؟ وماذا جرى ؟ وماذا فعل الخونة ؟ وكيف كان تفكيرهم ؟ وكيف جرى تجنيدهم ؟ وما هي العمليات المختلفة التي قاموا بها ؟ وما هي أبعادها الحقيقية ؟ والأهداف التي ترمي إليها ؟ ثم ما هي دوافعهم ؟ وكيف تمّ القبض عليهم؟ وكيف كانت نهايتهم ؟

و وقائع وأسرار هذه القضايا من الواقع ، لم يتسرَّب إليها الخيال في سطر واحد ، حتى أسماء أبطالها . والغاية من ذلك هي وضع القارئ في الصورة بكل أبعادها ، وتقديم الممكن من الحقائق والأسرار ؛ ذلك أن الصور الجزئية والجانبية لا تساهم في فهم ما جرى و يجري في عالم الخيانة ، وبالتالي الوصول إلى الاقتناع المستند على الحقائق بضرورة العمل – و بكل الطاقات – على تحقيق غاية الغايات ، وهي أمن وسلامةُ الوطن .

وبعد هذه المقدمة – التي طالت – ندخل إلى الموضوع ، والصفحات التاليةُ هي حصيلة ما يمكن نشره من معلومات .

الإسكندرية : أغسطس ١٩٩٢ **فاروق الصايغ**

عيــون الأبالســة

العملة المعدنية

أكبر الظن أن كثيراً من الشك سيساورك وأنت تقرأ هذه القصة ، وأن كثيراً من الدهشة سيملك عليك أقطار نفسك ، حتى لتذهب إلى القول بأنها خيال خصب لكاتب أراد أن يثير قراءه ويمتعهم؛ فافتن في القصّ افتناناً بارعاً ، وألّف بين أحداث واقعية متناثرة هنا وهناك ، وربط بين أجزائها ربطاً محكماً ؛ ليوهم قراءه بأنها واقع عاشه بعض الناس ، وما كان لها أن تكون كذلك في واقع الناس وحياتهم . ولكن مهلاً - عزيزي القارئ - لا تعجل في الحكم ، ولا تسرف في الريب ، ولا يذهب بك الظن مذاهب شتى ؛ فهذه القصة - في جملتها وتفصيلها - واقع حيّ لا تزيُّد فيه . وكثيراً ما تفوق أحداث الحياة و وقائعها خيال المبدعين .

كانت الساعة قد أوفت على الحادية عشرة والدقيقة الخامسة عشرة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس عام ١٩٥٣ ، حينما طرق صبيٌّ يعمل محصلاً في جريدة « بروكلين إميج » باب الشقة رقم ٣٤٠٣ في شارع فوستر ببروكلين يطلب ثمن الجريدة ؛ فأعطته المرأة التي فتحت الباب ورقة نقدية قيمتها « دولار » ، ولما لم يكن لدى الصبيّ من القطع النقدية الصغيرة ما يفي برد الباقي للسيدة ، فقد استأذنها في أن يفك « الدولار » من الجيران . ويسّرت

له امرأتان تقطنان في الشقة المجاورة ما أراد ، وانصرف وهو يُشَخْشخ بالعملات الصغيرة في يديه . ولاحظ أن واحدة من هذه القطع لها رنين خاص يخالف رنين الأخريات . ولما وضعها على كف يده ، لاحظ أنها أخف وزناً من مثيلاتها ، فألقى بها على الأرض فانقسمت قسمين ، وإذا به يجد في داخلها صورة صغيرة ، مكتوباً عليها أرقام في عشرة أعمدة بوساطة آلة كاتبة . وكان أحد وجهي العملة يحمل صورة « جيفرسون » وتاريخ ١٩٤٨ وفي حرف (r) من كلمة (trust) الموجودة في عبارة (In God we trust) فجوة حفرت بعناية ومهارة ، يمكن إدخال إبرة فيها لفتح العملة ، وكان الوجه الثاني مكوناً من سبيكة من الفضة والنحاس .

ودهش الصبيُّ من هذه العملة الغريبة ، فراح يعرضها على الآخرين ، وتصادف أن شاهده أحد عملاء الـ (سي . آي . إيه) – وكالة المخابرات المركزية الأمريكية – فأخذها منه و أعطاه بدلاً منها عملة صحيحة . وفي مكتب الأبحاث التابع للوكالة أثارت هذه العملة المكسورة الكثير من التساؤلات ، وحظيت باهتمام بالغ ، وانعقد إجماع الخبراء على أن لها علاقة بأعمال الجاسوسية . لكن كل محاولاتهم الرامية إلى التعرف على الآلة الكاتبة التي كتبت بها الأرقام الموجودة على الصورة الصغيرة ، باءت بالفشل ، مما أكد لهم أنها كتبت بآلة أجنبية ؛ فقد كانت الوكالة تحتفظ بسجل كامل لجميع الآلات الكاتبة الأمريكية .

ومما زاد في حيرة الخبراء أن الوكالة قد استدعت نفراً من الجواسيس السوفييت ، الذين ارتدوا و عملوا معها فلم يُغْنوا في

الأمر شيئاً . كما قام رجالها بزيارة المرأتين اللتين أعطتا الصبي قطعة النقود ، فلم تُجْد الزيارة نفعاً كذلك ؛ فقد قررت المرأتان أنهما تذكران الصبيّ ، ولا تذكران العملة ، كما دلت التحريات على أن سلوك المرأتين ليس فيه ما يشين . وقام رجال الوكالة بالبحث عن تفسير لهذه العملة عند أصحاب محلات التحف والعاديات ، فلم يظفروا بشيء . وهكذا ظل أمر هذه العملة وما تحويه أحجية غامضة ولغزاً مبهماً ينتظر التفسير .

وتعاقب الليل والنهار ، حتى جاءت الساعة السادسة من بعد ظهر يوم من أيام شهر مايو ١٩٥٧ (أيّار) ، حيث التقى « جون » رجل المخابرات الأمريكي صديقاً أمريكيًّا قديماً ، ذا عقلية جبارة ، يدعى « يوجين نيكولاي ماكاي » – التقيا في« باريس » ، حين كان جون يقطع شارع « ماربيف » المتفرع من شارع « الشانزليزيه » . وكان يبدو على ملامح ماكاي الجادة الممتلئة بالرجولة آثار الإرهاق العنيف ، والخوف الشديد ، والقلق المضني ، كأنما قضى أياماً طويلة لم يغمض له جفن . وبدا عليه – أيضاً – الفرح بلقاء صديق ؛ فمضي كأنه غريق وجد من ينتشله من اليمّ ، فتشبث بهذا اللقاء ، وأراد أن يستديمه، وذهب مع صاحبه إلى بار مطعم « سان جرمين » وجلسا في صمت يحتسيان بعض المشروبات ، وكل منهما يُعمل فكره ، وينظر إلى صاحبه ، ولكن ماكاي قطع حبل الصمت بقوله: « جون ، عندي مفاجأة لك . »

نطق هذا القول في صوت ذي نبرة عميقة ، وفي عينيه نظرة أشد عمقاً ، وأبعد غوراً .

رمقه جون بنظرة فيها الكثير من الاستغراب والدهشة ، ثم قال في هدوء مصطنع : « مفاجأة ؟ أرجو أن تكون سارة . »

راح صوت ماكاي ينكمش ويتضاءل ويخفت ، ويختفي في حنجرته ، ثم خرج بعد لأي منفعلاً مرتجفاً :« سأقول لك سرًا ، ولا يكاد يعرفه أحد . إنني رجل مخابرات سوفييتي، وإنني في الطريق إلى موسكو . هل تستطيع أن ترسلني إلى شخص يساعدني ؟ »

لم يصدق جون أذنيه ، وظن أنه سمع الجملة خطأ ، فعاد يسأله : «ماذا ؟ ماذا تقول ؟ »

في صوت مرتعش رد ماكاي : « أقول ما سمعته الآن . وأعني كل كلمة فيه . »

مطّ جون شفتيه ، ورفع حاجبيه دهشاً ، ثم قال : « غير معقول ما تقول . »

اكتسى وجه ماكاي بسحابة خفيفة من الشجن ، ثم قال : « بل هي الحقيقة . »

« الحقيقة ؟ أيّة حقيقة ؟ »

ومع رشفات مشروب « المارتيني » تمرُّ اللحظات ، و ماكاي يتكلم و جون يستمع في دهشة واستغراب ولهفة . وبعد كثير من الأسئلة التي سألها جون ، و إجابات مستفيضة عنها من ماكاي ، قال جون بصوت يشيع فيه انفعال لا يتأتّى تحديد صفته : « لا تخْشَ شيئا . هوِّن عليك . »

كان جون يعرف طريقه ، ويعرف الشخص الذي يقصده ؛ فهو يعلم أن في كل سفارة أمريكية بعض رجال المخابرات المركزية . ، فذهب إلى حيث مكان الهاتف و أدار رقماً وأجرى اتصالاً ، ثم عاد إلى مكانه . واستدار ينظر إلى النادل ، و يسأله عن ثمن المشروبات ، ثم نقده الثمن ، والتفت إلى صاحبه ، يطلب منه – في لطف – أن يرافقه .

نظر إليه ماكاي في تعجب ، وسأل : « إلى أين ؟ »

« سأقول لك ونحن في السيارة . »

حين أعلنت الساعة تمام التاسعة مساء كان ماكاي في إحدى حجرات السفارة الأمريكية في باريس ، يعلن أن اسمه الحقيقي « رينيه هايهانن » ، وأنه ليس أمريكيًا ، بل هو روسيٌّ الجنسية دربته منظمة التجسس السوفييتي أحسن تدريب . وهو يعمل في الولايات المتحدة الأمريكية منذ خمس سنوات في مهمة خاصة كلفته بها المنظمة ، وأنه قد اتخذ ساتراً ، وهو العمل في إصلاح السيارات ، وأفصح لهم عن رغبته في عدم العودة إلى موسكو ، وأنه قلق على زوجته الفنلندية التي لا تعرف أنه في باريس .

ونقل هايهانن سريعاً إلى « نيويورك » ، والتقى هناك مدير المخابرات المركزية « ألان دالاس » وقتذاك ، الذي كان قدم من « واشنطن » ليقوم بالتحقيق مع هذا الجاسوس المرتد .

رسم دالاس ابتسامة عريضة على شفتيه ؛ كي يبعث الطمأنينة في نفس صاحبه ، وقال : « والآن ، قل لي من أنت ؟ أخبرني

بالحقيقة كلها . »

وعلى امتداد ثلاثة فناجين من القهوة قصَّ هايهانن قصته المثيرة ، التي تضمنت تفاصيل ، قد يبدو أنها من مغامرات الخيال . قال :

« قد لا تصدق بعض ما أقول ، ولكنني سأروي لك كل شيء ، وسأوفر عليك بذل الجهد في توجيه الأسئلة . دعني أشرح لك الأمور كما عشتها ثم سل ما بدا لك بعد ذلك .

« لو عدنا إلى الوراء قليلاً فسوف تجد أنني ولدت في قرية «كاسيكساري » بالقرب من « لينجراد » في الاتحاد السوفييتي ، لأبوين روسيين شيوعيين قلباً وقالباً . ومع الإيقاع البطيء الرتيب للحياة نما عودي ، وطالت قامتي ، واشتد ساعدي . وما إن أنهيت دراستي العالية حتى تقاذفتني أمواج الحياة ، فعملت بالتدريس في المدارس الثانوية ، ثم تعلمت اللغة الفنلندية وأتقنتها إتقاناً حسناً ، فعملت في المخابرات الروسية مترجماً من اللغة الفنلندية إلى اللغة الروسية . وبعد أن اندلعت الحرب في فنلندا عام ١٩٣٩ أرسلت إلى منطقة القتال للقيام بترجمة ما قد يقع في أيدي السوفييت من وثائق، وللتحقيق مع الأسرى والمعتقلين . وبعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٠ كنت مسئولاً عن اكتشاف العناصر المناهضة للسوفييت بين رجال الفكر الفنلنديين ، والتأكد من ولاء وإخلاص المواطنين السوفييت في فنلندا . و أصبحت عضواً في الحزب الشيوعي عام ١٩٤٣ . »

وسحب هايهانن نفساً عميقاً من لفافة التبغ التي بين يديه ، ثم قال :

« في أثناء الحرب العالمية الثانية كان طبيعيًّا أن تكون ألمانيا النازية هي الهدف الأساسي للمخابرات السوفييتية . وفي الوقت ذاته كانت الولايات المتحدة الأمريكية تتحرّك شيئاً فشيئاً ؛ كي تحتل المركز الأول في اهتمام المخابرات الروسية ، باعتبارها أكبر دولة رأسمالية تمثل العدوّ الأول للشيوعية العالمية . وحظيت ميادين الصناعة والذرة والسياسة بعنايتها ونشاطها بصورة لم يسبق لها مثيل .

« ولما تزعمت الولايات المتحدة الأمريكية رابطة الدول المناهضة للنفوذ السوفييتي أصبحت واشنطن الهدف الأساسيّ ، ومن ثم استدعيت إلى موسكو في صيف ١٩٤٨ ، حيث تلقيت دروساً مكثفة في اللغة الإنجليزية حتى أجدتها إجادة بالغة ، وأتقنتها إتقاناً كاملاً . ثم قضيت عاماً كاملا في التدريب على أعمال التجسس في مدرسة الجاسوسية السوفييتية للبلاد اللاتينية ، التي تقع إلى الجنوب من « شكالوف » بما يقرب من ١٧٦ كيلومتراً . وفي هذه المدرسة بدأ إعدادي لأكون مواطناً أمريكيًّا ، يذهب إلى فنلندا لكي يمتزج بالجالية الأمريكية هناك ، ويندمج فيها ، ويُكوِّن صداقات مع أعضائها . ثم يرحل بعد ذلك إلى أمريكا ؛ ليمارس عمله ، وينفذ ما يكلف به من مهام .

« وبدأ الفرع الفني عملية تحويلي إلى مواطن أمريكيّ ، لا مجال للارتياب في شخصيته ، فوفَّر لي برنامج تكيف شاملاً على الحياة الأمريكية حتى تعودت على الشخصية التي كان عليّ أن أتقمصها ، وهي شخصية مواطن أمريكيّ من « إينفيل – إيداهو » من أب فنلنديّ و أم أمريكية . وتغير اسمي فأصبح « يوجين نيكولاي

ماكاي »، وهيئ لي أفضل تدريب متصوَّر على فنون الجاسوسية، فغدوت على دراية فائقة بفن التصوير، وتشغيل وإصلاح أجهزة اللاسلكي، واستخلاص وإخفاء المعلومات وإرسالها، واكتشاف المراقبة والإفلات منها. ثم تلقيت تدريبات تعنى بتقوية الملاحظة، وتنشيط الذاكرة، حيث كان يعرض عليَّ صور ونماذج لأشياء مختلفة، ثم تحجب عني بعد لحظة، ويطلب منّي أن أرسم ما استطعت أن أحتفظ به في ذاكرتي من ملامحها، و أن أجيب عن أسئلة تتعلق ببعض تفاصيلها. كما أعدت لي تقارير وافية عن كل صغيرة وكبيرة تتصل بوطني الجديد أمريكا، وعن المدينة التي سوف أعيش فيها؛ حتى أصبحت خبيراً بها وبأهلها: عاداتهم وطرائق حياتهم وكل ما يتصل بهم، ويتيح لي التكيُّف معهم، والاندماج فيهم.

« وكان طبيعيًّا أن نتخيل تخيلاً دقيقًا كل ما يمكن أن يصادفني من عقبات، ونتصور تَصَوُّراً بارعًا كل ما قد يعترضني من صعاب وعقبات، وكل ما قد أقع فيه من ورطات، وكيفية التغلب على كل ذلك والخروج منه بمهارة، حتى إذا ما فجأتني بعض المواقف كنت قادراً على مواجهتها في ثبات واتزان مهما كان خطرها، ومهما كان تعقيدها. كما أنني كنت قادراً على أن أبرهن على صدق تاريخ الحياة الذي أعد لي، إذا ما تعرضت لموقف يستدعي ذلك؛ فقد كان – على الرغم من عدم صحته – منطقيًّا، يسهل الإلمام بتفاصيله، وإقامة الدليل على صدقه و واقعيته. فلم نترك شيئًا للصدفة والحظ، وإنما كل شيء قد أعد ببراعة وعناية؛ لأن حياة

الجاسوس محفوفة بالمكاره ، تكتنفها المخاطر ؛ إذ هو عرضة لاكتشاف أمره بين لحظة وأخرى ، وعليه أن يتحمل نتائج عمله ، ويواجه مصيره أيًّا كان هذا المصير . »

وسكت هايهانن برهة ، التقط فيها أنفاسه ، ثم استأنف الحديث قائلا : « وبعد هذا الإعداد المنظم الطويل الدقيق ، تسللت في صيف عام ١٩٤٩ إلى فنلندا بوثائق وأوراق كانت بارعة التزوير ، لا يتسنّى لأحد اكتشاف أمرها ، وأقمت في مدينة «كوكو» الفنلندية باسمي الجديد ، وشخصيتي الأمريكية . وتزوجت الفنلندية الجميلة ، الفاتنة الملامح ، الساحرة العينين « هانا كوريكا » التي لم تكن تعلم من أمري شيئًا ، وعشت هناك في أمن وأمان حياة راضية مترفة . وفي صيف عام ١٩٥١ كان عليَّ أن أسعى إلى السفارة الأمريكية في العاصمة « هلسنكي » ؛ كي أطلب منها - بوصفي مواطنًا أمريكيًّا - أن تمنحني وزوجتي تأشيرة دخول ؛ لأعود إلى أرض الوطن التي أحن إليها حنينًا قويًّا . وقدمت إليها كل الأوراق التي تثبت صدق ما أقول ، و من بين هذه الأوراق جواز السفر وبطاقة الهويّة ، وبطاقات العضوية في النوادي التي أنتمي إليها ، وبطاقة التأمين ، ورخصة القيادة ، وغير ذلك مما يوجد عادة في حوزة الأشخاص في أي مكان في العالم .

« ومنحتني السفارة تأشيرة الدخول ، وأبحرت مع زوجتي على السفينة «كوين ماري » وبلغنا ميناء « نيويورك » في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ . وتمت الإجراءات في يسر وبساطة ؛ فقد كانت كل أوراقي صحيحة لا تثير شكًّا ولا ريبة .

وعندما نزلت المدينة لم أشعر بغربتها عليَّ ، ولم أجد منها غموضاً ؛ فقد كنت أخطو في مدينة أعرف كل شبر فيها معرفة وافية دقيقة . بل إنني أزعم أنني كنت على علم بها أكثر من كثير من أهلها الذين ولدوا على أرضها ، ومن ثم لم تصادفني مشقة في الوصول إلى ما أريد .

« وشيئاً فشيئاً استغرقتني شخصية ماكاي التي أتقمصها ، وذابت فيها شخصيتي القديمة ، حتى كنت كثيرًا ما أتساءل من أنا ؟ هايهانن الروسي أم ماكاي الأمريكيُّ ؟ »

وتوقف هايهانن عن الحديث لحظة ، ريثما أشعل لنفسه لفافة تبغ ، ثم شرع يقول :

« خطوت خطواتي الأولى في « نيويورك » بحذر بالغ ، وحرص شديد - كما هو طابع الجواسيس - فقد كانت التعليمات الصادرة إليَّ واضحة صريحة ، وهي أن ينحصر همي كله في التكيف مع البيئة الجديدة التي كتب عليَّ أن أعيش فيها ، وأندمج في أهلها ، وأن أمارس أعمالاً مختلفة تصلح ساتراً لي . أما المهمة الكبرى التي جئت من أجلها فلم يحن أوانها بعد .

« وكما كنت بارعاً متفوقاً في التدريب ، كنت كذلك في تمثيل دور الشخصية الأمريكية التي استغرقتني - كما أسلفت - فلم أتردد حين طلب إليَّ أن أشرع في إنجاز العمل الذي كلفت به ، والذي هبطت هذه المدينة من أجله ، وهو تكوين شبكة من العملاء الماهرين ؛ بغية الحصول على أكبر قدر من المعلومات ،

فأخذت أجوب الشوارع خلال النهار ، أستطلع الأماكن ، وأفحصها، وأتفرس في وجوه الناس ، وأقضي أمسياتي متسكعاً في الحدائق والحانات ؛ بحثاً عن رجال ونساء من مختلف الجنسيات والنوعيات يصلحون للتجنيد .

« والتجنيد أقرب شيء إلى صيد السمك ، يحتاج شيئاً غير قليل من الصبر والأناة ؛ فكثيراً ما يلقي الصياد شبكته في المياه فلا يظفر بطائل . لكن إذا تذرع بالصبر ، ولم يستول اليأس على نفسه ، ولم يملأ القنوط صدره – فقد يلقي شبكته ذات مرة فإذا هي تخرج بصيد ثمين . ولقد كان المال هو الوسيلة المثلى لإغراء المجندين ، وكنت الصياد البارع الذي لا يتعجل الأمور ، ويحسن التأني لها . فهناك أسماك كثيرة جائعة أو طامعة تلتقط الطعم وهي مغمضة العينين .

« والواقع أن هذا الأمر – أمر التجنيد – لم يكن صعباً عليّ ولا عسيراً ؛ فقد لاحظت أن الأمريكيين لا يجيدون الهمس ، وإنما يتكلمون بصوت عالٍ ، أو يتصايحون . كما أنهم يرفعون الكلفة بينهم وبين من يتودد إليهم دون أن يعنوا بالتعرف على حقيقته . وقد أسعدتني هذه الملاحظة ، ويسرت أمري ، فما إن مضت فترة قصيرة على ممارسة عملي حتى كنت على صلة وثيقة بمجموعة من المعارف في أماكن كثيرة ، وفي مواقع متنوعة ، ومن طبقات وفئات مختلفة . وكنت حين ألتقي شخصاً لأول مرة أتساءل فيما بيني وبين نفسي عن مدى صلاحيته للعمل معي ، وكنت أدرسه بعناية ، وأتفحصه بتركيز . وكنت معنيًّا أشد العناية بمن يعمل في مركز

مفيد أو من يبدو أنه سوف يتقلد مركزاً هامًّا ، أو يتبوأ مكانة مرموقة ، سواء في الأعمال الحرة أو الحكومية . وكثيرٌ أولئك الذين تمكنت من ضمهم للشبكة ، وأسهموا في العمليات دون أن يدركوا حقيقة شخصيتي ، ودون أن يعلموا طبيعة ما يقومون به من عمل ، ودون أن يفهموا أنهم عملاء .

« وما إن بدأت جهودي تؤتي أكلها ، وأخذت الأسرار والمعلومات تتوالى عليَّ و تتدفق ، حتى قمت بإرسالها إلى المركز الرئيسي في موسكو عن طريق ميخائيل نيكولافتش ، الذي كان يعمل في ظلال الحصانة الدبلوماسية ؛ إذ هو سكرتير الوفد الروسي في الأمم المتحدة . وفي صيف عام ١٩٥٤ حل مكان ميخائيل شخص آخر أعرف أن اسمه « مارك » ، ولكن ما أظن إلا أنه اسم مستعار . »

وصمت هايهانن لحظات ، راحت عيناه فيها تتطلّعان إلى سقف الغرفة ، و تنهد تنهيدة طويلة ، ثم قال :

« لم يكن اللقاء بيني وبين ميخائيل أو مارك دوريًّا ، أو منتظماً ، بل كان يتم حين تكون هناك ضرورة قصوى تستوجبه . وكنا نحتاط له أبلغ الاحتياط ، ونتخذ من التدابير ما يكفل له النجاح . وكثيراً ما يكون هناك رجل ثالث يلاحظ ؛ كي نتأكد من أن اللقاء تم دون أن يلاحظه أحد . كان كل منا يشتري تذكرة سينما ، ثم ندخل منفردين ، ويجلس كل منا إلى جوار صاحبه ، والظلام يخيم علينا ، ويعطي كل منا لصاحبه ما عنده من أوراق . وكنا نعد نقاط اللقاء بحيث تبعد كل منها عن الأخرى مسافة طويلة ، ثم يجيء كل منا في طريق مضاد ، بحيث يبدو لقاؤنا مجرد مصادفة عابرة بين اثنين لا

يعرف أحدهما الآخر . وكنا مرات نخط بالطباشير الأبيض بعض رموز متفق عليها من قبل ، وكل منها يعني معنى خاصاً . وكنا نخفي الرسائل بعد تصويرها « بالميكروفيلم » في تجاويف أقلام الحبر والرصاص وفي أزرار الأكمام ، وفي المسامير والنضائد ، وفي العملات المعدنية . »

وهزت عبارة « العملات المعدنية » أعماق مدير المخابرات المركزية ؛ فهذا ما كانوا يبحثون عن تفسير له ، منذ وجدوا تلك القطعة المعدنية مع ذلك الصبي ، الذي كان يحصل ثمن جريدة « بروكلين إميج » .

وأعطي رجال الـ « سي . آي . إيه » العملة إلى هايهانن ، وعندما رآها ابتسم ابتسامة عريضة ، وبين لهم أنها إحدى الوسائل التي يستخدمها جهاز الـ «كي . جي . بي» في نقل الرسائل . وحينما قدموا له الرسالة التي عثروا عليها في تجويف العملة نجح في فك رموزها ، وكانت خبرته في ذلك ذات فائدة عظيمة لهم ، فقد راح يفحص قطعة من الصليب المجوفة، وأخرج منها « ميكروفيلماً » كانت به رسالة ، أفصحت عن قصة رقيب في الجيش الأمريكي ، يدعى « روي أ. رودس » ، يعمل في السفارة الأمريكية في موسكو ، وتم تجنيده لحساب الـ « كي . جي . بي » تحت اسم مستعار هو « كوييك » وحوكم هذا الرقيب ، وذهب ليقضي خمسة أعوام في السجن .

و واصل هايهانن كشف أسرار الشبكات الروسية ، وفضح التنظيمات السوفييتية ، و أفصح عن أسماء العملاء ، وأساليب

عملهم ، وطرائق تأمينهم ، و وسائل اتصالاتهم . وسلط الأضواء على النشاط السري الرهيب ، الذي تمارسه المخابرات الروسية . وكان يسرد كل قصة مدعومة بالدليل القوي القاطع ، كما أرشدهم عن المخابئ السرية التي أمكن عن طريقها التعرف إلى شخصيات العملاء الذين يضعون الرسائل ، والذين يتسلمونها من هذه المخابئ .

وكان رجال الـ « سي . آي . إيه » يتتبعون هؤلاء العملاء في حذر وحرص ، ويرقبون سلوكهم في هدوء ودقة ؛ فاستطاعوا اكتشاف المزيد من المخابئ السرية ، والمزيد من العملاء الذين يقيمون إقامة غير قانونية . ومن ثم كانوا يعرفون التعليمات المرسلة إلى العملاء قبل أن تصلهم ، ويعرفون المعلومات المرسلة إلى الروس قبل أن تبلغهم . وشيئاً فشيئاً استطاعوا كشف النقاب كشفاً كاملاً عن كل النشاط التجسسي الذي يمارسه الروس في الولايات المتحدة الأمريكية . كما استطاعوا – عن طريق تحليل المعلومات – أن يصلوا إلي أغوار فكر رجال الـ « كي . جي . بي » ، وما يحتاجه من معلومات ، وما يسعى إليه من أهداف .

وأدى ذلك إلى ارتباك الجهاز الروسي ارتباكاً بالغًا ، واضطرابه اضطراباً خطيراً ، فقد حطم معظم عملائه في أمريكا ، وقبض على أمهرهم ، ومن بينهم « مارك » الذي كان معنيًّا بالتجسس في مجال الذرة ، و الذي اتضح أنه الكولونيل السوفييتي رودلف إيفانوفتش آبل ، والذي كان قد تسلل إلى البلاد بطريقة غير قانونية ، منتحلاً اسم « أندرو كايوتشي » الأمريكي الجنسية ، وقد أمضى تسع سنوات

تحت ساتر مثالي ، هو الفنان نصف الرسام ونصف المصور ، وقد حكم عليه بالسجن ثلاثين عاماً ، لكنه لم يمضها جميعها ، بل قضى منها عشرين شهراً ، ثم تم تبادله مع « فرانسيس جاري باورز » قائد طائرة التجسس الأمريكية (U-2) التي أسقطها الروس عام ١٩٦٠ .

وكان على الجهاز الروسي- نتيجة لذلك- أن يعيد ترتيب أوراقه ، وأن يعدل تنظيماته ، وأن يرم داره التي احترقت ، ويبني شبكاته التي تهدمت ؛ كي يستعيد توازنه الذي كاد أن يفقده ، ويمارس نشاطه الذي كاد يضيع من بين يديه .

ولكن لماذا ارتد هايهانن الجاسوس الروسي المزروع في أمريكا -كما يقول اصطلاح علم المخابرات - وبسر لوكالة المخابرات الأمريكية هذا الكم الهائل من المعلومات ، الذي لم تكن تحلم به، ولم يكن يخطر لها على بال أن تصل إليه ، وفضح الجهاز الذي كان يعمل فيه فضيحة منكرة ، وأربكه إرباكاً شنيعاً ؟

لقد ارتكب هايهانن الجاسوس المحترف أغلاطاً لا يليق بمثله أن يرتكبها ، بل لعلها لا تليق بجاسوس مبتدئ ؛ فقد كان يستخدم جهاز اللاسلكي من مكان واحد ، ولا يبحث عن أماكن جديدة . كما لم يكن حريصاً في لقائه بالمندوبين وَ العملاء . وفترت دقته في فحص المعلومات ، واتجه إلى الانفرادية . وراح يصطنع مبادئ خاصة به للخدمة السرية ؛ بدعوى استنباطه إياها من تجاربه وخبراته . وكان أخطر ما ارتكبه من أغلاط سبُّه رجلاً داس على قدمه باللغة الروسية ، وهو الرجل الأمريكي الخالص ، الذي لم يدرس اللغة الروسية ، ولم

يصادق أحداً من الروس حتى تلتقط أذنه بعض كلمات من لغتهم .

وضاق صدر مارك -رئيس الشبكة - به ، وبعث إلى رئاسته يشكو منه ، ويعلن إليهم أن هايهانن لم يعد يصلح للعمل مساعداً له ، وأن اهتمامه بشرب البيرة أكثر من اهتمامه بالعمل ، وأن كل ما يعنيه هو التمتع بمباهج الحياة المتاحة في أمريكا .

ولكن الرئاسة في موسكو لم تسرع في استدعائه ، وإنما قررت ترقيته ؛ حتى يطمئن إلى موقفه ، وتزول بذور الشك من نفسه حينما يستدعى إلى موسكو . وفعلاً تلقى بعد ذلك تعليمات بالسفر إلى موسكو ، ولما بلغ - في طريق عودته - ميناء « الهافر » وهو ميناء فرنسي يقع على شاطئ « نورماندي » ، سقط في بحر من الحيرة والقلق ، وتنازعته عوامل الخوف والريبة فيما هو مقبل عليه في بلاده ، واستقر في أعماقه أن حينه قد حان .

كان حائراً يستبد به ويمزقه خوفان : الخوف من ضياع مستقبله ، والخوف مما ينتظره من عقاب ؛ ولذلك قرر ألا يعود .

وكان معنى ذلك هو الخيانة بعينها . وكان هذا هو بالضبط ما فعله .

ماريانا

لم يكن هذا هو الاسم الذي أطلقه عليها أبوها ، حينما ولدت في نهاية شتاء عام ألف وتسعمئة وخمسة وعشرين ، في أحد مستشفيات مدينة « خاركوف » بالاتحاد السوفييتي ، إثر ولادة متعسرة ؛ فجاءت إلى الدنيا بعملية قيصرية . وإنما أطلق عليها أبوها – الذي كان يدعى « ميخالوفنا ماكاريفا » ، والذي كان رائداً من رواد لجان الحزب الشيوعيّ الروسيّ الإقليمي آنذاك – أطلق عليها اسم « ناديبزدا » .

ولما شبّت عن الطوق ، و اكتمل نضجها ، بدت فتاة رائعة الجمال ، تتمتع بجسم ريان ، وقوام ممشوق ، وخد أسيل . في عينيها براءة الأطفال ، وفي ابتسامتها رقة الملائكة ، وفي حركاتها خفة العصفور ، وفي عشرتها سلاسة الماء ، وفي ذكائها ومكرها فن إبليس . إنها تتمتع بأنوثة طاغية لو قُسمت على ألف امرأة لوسعتهن. ولذلك كانت لا تعترف بجمال الأخريات ، لا من قبيل الغرور الذي يصيب ذوات الجمال والدلال ؛ وإنما لأنها –كما يقول عارفوها – لم تترك لبنات جنسها شيئاً من الجمال .

وكانت – إلى جانب ما حظيت به من جمال فتان – تتميز

بالقدرة على المبادرة لذكائها الخارق الخلاق ، وتملك القدرة على التعرف إلى الآخرين ، والتودُّد إليهم ، واكتساب ثقتهم في وقت وجيز . كما كانت إنساناً عنيداً - بالمعنى الجميل لهذه الكلمة - عنيد في إصراره على بلوغ الهدف الذي يسعى إليه .

وما كادت نادييزدا تنهي دراسة الاقتصاد في جامعة « موسكو » حتى عدتها منظمة التجسس السوفييتي صالحة للعمل في مجال الخدمة السرية ، بل رأتها وكأنما ولدت لهذا العمل دون سواه . و وافقت رياسة الخدمة السرية على الترشيح و وافق مجلس الاختيار على صلاحيتها ، فألحقت بمدرسة الجاسوسية « براخونكا » في غرب روسيا ؛ لدراسة خاصة . وانضمت في المدرسة إلى القسم الخاص بألمانيا . وبعد مدة استدعيت لمقابلة مدير المدرسة ، الذي سألها في هدوء : « نادييزدا ، هل لديك حافظة أوراق ؟ »

« نعم . »

« ماذا بها من أوراق ؟ »

« بطاقة تحقيق الشخصية ، وشهادة الميلاد ، وبعض شهاداتي المدرسية ، وبعض رسائل من أصدقائي ، ومذكرة تحمل أرقام هواتف معارفي . »

طلب منها المدير هذه الأوراق ، وقام بتمزيقها ، ثم قال لها في لهجة رسمية : « يجب أن تنسيْ فوراً - وإلى الأبد - اسمك وشخصيتك وجنسيتك ، فمن هذه اللحظة أصبحت جنسيتك ألمانية ، وشخصيتك ألمانية واسمك ماريانا .

« إن تغيير جنسيتك وشخصيتك واسمك أمر هام في العملية التي نحن بصددها . سنلقي بكل قديم في مهب الريح كما ألقينا شهادة ميلادك العتيقة ، ويجب أن تتعودي اسمك الجديد ، وأن تعيشي تماما في شخصيتك الجديدة . »

وهُيِّئت لماريانا كل الظروف التي توائم شخصيتها الجديدة : فتعلمت اللغة الألمانية ، و أتقنت لكناتها المختلفة ، و درست بعناية عادات الألمان وأساليبهم في الحياة ، حتى الألعاب التي يَهْوَوْن ممارستها . وتعرفت جيِّدا على صور الأشياء العامة في ألمانيا ، وألمت إلماماً كافياً بالتاريخ الألمانيّ القديم والحديث ، وحفظت عن ظهر قلب تواريخ و تطور الأحداث السياسية في ألمانيا ، و تفهمت – بعمق – النظم والقوانين واللوائح الألمانية العامة والخاصة ، وتدربت على أنماط السلوك الألمانيّ في تناول الطعام ، وتلقت تعاليم الدين المسيحيِّ ، ومارست كافة الطقوس الدينية التي تُمارس في المواسم والأعياد . كما أتقنت جميع فنون وأساليب الجاسوسية .

بعد هذه الدراسة الشاقة المتصلة مدة عشر سنوات اجتازت ماريانا الامتحان النهائيّ ، وحصلت على درجة الامتياز ، وكتب عنها في التقرير النهائي : « عميلة على درجة عالية من الكفاية والمهارة . لا تبالي التعرض لأخطار محققة ، وعلى استعداد تامٍّ مواجهة أي نوع منها . تبدو وهي تتحدث كأنها ألمانية أبًا عن جد . لها قدرة فائقة علي اتخاذ قرارات سريعة في ضوء الظروف المتغيرة . على استعداد لأن تفعل أي شيء في سبيل تحقيق الهدف . »

وكان هذا جواز سفرها إلى حياتها المستقبلة في ميدان الخدمة

السرية السوفييتية .

كانت ألمانيا شرقية وغربية – في ذلك الحين – وكانت ميدان صراع عات رهيب في مجال الجاسوسية الدولية ، هذا المجال الذي يتسم بالذكاء والمهارة ، ويتّشح بالغموض والإبهام ، ويطلق عليه الخبراء بحق : حرب الدهاء التي لا تكف رحاها عن الدوران ؛ فهي لا تعرف هدنة ولا تذوق سلاماً .

وكان الحلفاء قد اقتسموا العالم فيما بينهم مناطق نفوذ ، بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، واندحرت فيها دول المحور اندحاراً رهيباً ، وذلك في وليمة النصر التي أقيمت في بلدة « يالتا » الروسية المطلة على البحر الأسود ، حيث جلس الزعيم السوفييتي « ستالين » و الرئيس الأمريكي « روزفلت » ورئيس الوزراء البريطاني « تشرشل » يوزعون الغنائم والأسلاب .

وكان من حظّ ألمانيا أن قُسمت إلى ألمانيا الشرقية يسيطر عليها الروس ، وألمانيا الغربية تسيطر عليها أمريكا وحلفاؤها . وظل أمرها كذلك حتى هبت الجماهير ليلتي التاسع والعاشر من نوفمبر عام ١٩٨٩– تدك الجدار المصطنع الذي يفصل بين « برلين » شرقية وأخرى غربية ؛ لكي تمضي في خطوات حثيثة إلى ألمانيا الموحدة وهو ما انتظره ٧٩ مليون ألماني طويلاً جدًّا . وفي ظلال هذا الصراع العاتي الرهيب بين الشرق والغرب ، في مجال حرب الدهاء – التي كانت ألمانيا بقسميها من أهم مسارحها – كان على الجاسوسة السوفييتية الحسناء ماريانا أن تبدأ نشاطها في ألمانيا الغربية .

وبدأت رحلة التجسس .

أرسلت ماريانا إلى ألمانيا الشرقية متقمصة شخصية ألمانية بكل مقوماتها وأبعادها ، بعد أن زودتها منظمة الخدمة السرية السوفييتية -كما يحدث عادة - بأوراق و وثائق مزورة تزويراً دقيقاً لايحتمل الشكّ ، تدل دلالة قاطعة على أنها ألمانية الأصل والمولد والنشأة . وكانت التغطية التي صنعها الخبراء في موسكو لا تتيح لأحد -كائناً من كان - أن يكذبها ، أو يشك فيها . وكان اثنان فقط من بيانات شهادة ميلادها الجديدة يحملان الحقيقة وهما الخاصان بالجنس واللون . أما فيما عدا ذلك من معلومات فكلها ملفقة ومختلقة .

وبقيت في برلين الشرقية فترة للتكيُّف والتأقلم مع البيئة الجديدة؛ وللتعرف على الأحوال السائدة في البلاد ؛ ولاختبار ما لديها من قدرات ومهارات ، تتحسس بذلك طريقها نحو المستقبل الذي تتطلع إليه . حتى إذا ما تأكد أنه لا خطر يخشى عليها تقدمت بخطى ثابتة نحو هدفها ، وهو الذهاب إلى « فرانكفورت » ؛ فاستطاعت التسلل إلى برلين الغربية بعد أن زودتها رئاستها بوثائق مزورة أيضاً ، تثبت أنها جاءت من القطاع الغربيّ في ألمانيا لكي تزور العاصمة الألمانية القديمة . وأمضت ماريانا وقتها في السياحة ، لا تقوم بأي عمل غير عادي ، بل إنها كانت تسلك سلوك سائحة فاترة الهمة .

و في صباح يوم من أواخر شهر مايو عام ١٩٥٨ بلغت ماريانا « فرانكفورت » ، واستقر بها المقام في أرجائها ، وراحت تمضي وقتها في التعرف على ما حولها ، والتكيف مع ما يكتنفها من ظواهر ، لا تمارس نشاطاً ، ولا تؤدي عملاً .

ثم أنشأت بعد فترة – طبقاً للخُطة المتفق عليها – مكتباً لأعمال السكرتارية . وهذا المكتب كان ساتراً متيناً – بلغة خبراء الجاسوسية– يخفي حقيقة مهمتها ، كما كان صندوق بريد ممتازاً لمراسلاتها ، ومكان اجتماع آمناً لعملائها . وحتى لا يكون وجود أجهزة التصوير اللازمة لعملها مدعاة للارتياب في حقيقة شخصيتها ، و نوعية نشاطها ؛ فإنها أنشأت في المكتب قسماً للتصوير يمكن أن تتوفر به كل آلات التصوير وأدواته دون أن تثير أدنى ريبة أو شك . وبهذا أصبح مكتبها قاعدة لعمليات الجاسوسية التي بدأت تمارسها ماريانا ، تلك الفتاة التي نزعت عن نفسها شخصية المرأة الروسية ، وتقمصت شخصية امرأة ألمانية مسرفة أشد الإسراف في التمسك بالعادات والتقاليد الألمانية .

وكان عليها أن تبدأ أولى خطواتها في تجنيد العملاء .

كانت لديها قائمة بأسماء شخصيات ألمانية صالحة للتجنيد ، قد أعطِيَتْ لها في موسكو ، فاستعانت بها في دراسة ماضي أولئك الأشخاص ، ومدى علاقتهم بالنازية ، وطريقة تنكرهم لهذه العلاقة وتبرُّئهم منها ، خاصة بعد ما منيت به النازية من انكسار ، وبعد ما ظهر من تاريخها الدامي . وكانت هذه القائمة غنية بما تحويه من أسماء لشخصيات متنوعة ، منهم : الموظفون الرسميون الذين يتاح لهم الوصول إلى الوثائق والمعلومات في يسر وسهولة ، ومنهم من تستطيع تجنيده لقاء أجر زهيد ، ومنهم من يخضعه لأمرها الوعيد والتهديد . وقد قررت أن تسلك في تجنيد عملائها ، واصطياد فرائسها طريقين : طريق التوريط والتهديد ، وطريق الدفع بسخاء ، أو

أن تمزج بين الطريقين حين يستدعي الأمر ذلك ، فقد هالها ما آل إليه أمر ألمانيا بعد الحرب ، وكيف خربت الذمم ، وماتت الضمائر ، بحيث تستطيع أن تشتري ما تشاء بسيجارة واحدة .

وكان أولى ضحاياها رجلاً ألمانيَّ الأصل والمولد والنشأة ، يشغل وظيفة مرموقة في إدارة الأبحاث والأسلحة السرية في ألمانيا . وكانت تثق في أنها لن تستطيع شراءه بالمال مهما بذلت ، فكان لزاماً عليها أن تصل إلى شيء تخيفه به وتهدده وتتوعده ؛ حتى تتمكن من إحكام قبضتها عليه وإخضاعه لسلطانها . ولما كان لديها هذا السر الرهيب الذي يحرص الرجل كل الحرص على إخفائه ، ويخشى كل الخشية من إفشائه - استطاعت تحت سيف التهديد أن تجنده لصالح منظمة التجسس السوفييتي .

لقد كانت عملية تجنيد هذا الرجل سريعة مثيرة ، كما كانت محفوفة بالمخاطر غير المضمونة النتائج ؛ بل إنها كانت خُطة جريئة متهورة .

عرفت رقم هاتفه ، فاتصلت به ، وطلبت أن يحضر للقائها في مكتبها ؛ لأن هناك الكثير من الحسابات التي يجب أن تُسوَّى بينهما . أكد له حديثها المنطقي المقنع أن مصلحته في أن يذهب للقائها في الموعد الذي ضربته له ، فلم يتردد في الموافقة على اللقاء . وكان الموعد في اليوم التالي لهذا الاتصال الهاتفيِّ . وفي الموعد جاء الرجل .

وكان لقاءً على درجة عالية من الغرابة والإثارة .

كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً حينما التقيا ، وظل اللقاء حتى بلغت الساعة الواحدة واثنتين وخمسين دقيقة بعد الظهر . ودون مقدمات أو تمهيد أو استدراج هجمت على الموضوع الذى تود الحديث فيه . قالت للرجل بلهجة تفتعل فيها الجد : « أعتقد أنك لا تحب الشيوعيين كثيراً ؛ فهل هذا هو الواقع ؟ »

« هذه شئوني الخاصة . »

وتمضي ماريانا في الكلام وكأنها وصلت إلى النتيجة :

« صحيح ، إنها لا تعنيني ، ولكني أحب يا عزيزي أن أحقق لك أمنية طيبة ؛ إذ ربما تهبط عليك النعمة الإلهية ذات يوم ، وتصبح عضواً في منظمة التجسس السوفييتية . »

التمعت عينا الرجل ، واتسعت حدقتاه ، ونظر إليها كما ينظر إلى مجنون ، وقال ضاحكاً : « حسناً ! لا شكّ أنها بداية مضحكة جدًّا . »

أكملت ماريانا : « أنت تعمل في مجال أبحاث سرية ، وهو مجال تتوفر فيه معلومات هامة ، ونحن نريد أن نعرفها كلها . »

زوى الرجل ما بين حاجبيه ، وقد أرعبته الفكرة ، وقال لها منفعلاً ، والدهشة تنطلق من صوته : « أعتقد أنني – كمواطن صالح – لا أتخيل ولا أرضى ولا أقبل أن أكون خائناً لوطني . »

ابتسمت ماريانا ابتسامة عريضة متكلفة ، تحولت إلى ضحكة

بلا صوت ، ثم قالت : « آه ! ماذا ؟ تعتقد ؟ إن ما تعتقده لا يهمني في شيء . هنا لا يوجد ما يبعث على الاعتقاد . أرجو أن تلاحظ ذلك . »

فغر الرجل فاه من فرط الدهشة ، واحتقن وجهه ، وقال في عصبية تنم على الغضب : « لا . لن أفعل ذلك ، لن أفعل ذلك أبداً . »

قاطعته ماريانا بصوت تشيع في نبرته السخرية : « إجابتك هذه لم أتوقعها . ثم إنني نسيت أن أقول لك : إنني أستطيع أن أدفع ، وأدفع بسخاء . »

لم يكن في وسع الرجل أن يتقبل منها هذا الحديث ، فصاح غاضباً في لهجة تدل على خروجه عن طوره : « لا أبيع وطني بمال. لا أبيع وطني بمال . »

عندئذ قالت ماريانا في لهجة حازمة حاسمة ، لا تقبل ردًا ، ولا تحتمل جدلاً أو نقاشاً : « أصغ إليّ ، وانتبه لكلامي جيداً : عندما لا يكون هناك إلا شيء واحد فإن الحديث عن الاختيار يصبح بلا معنى . ليس أمامك أن تختار . لا اختيار ، فهذا قدرك ومصيرك . هل فهمتني ؟ »

وفي عصبية شديدة ، قال الرجل : « إنني أرفض بشدة كل محاولة لاستدراجي أو لإغرائي . لن يحدث ذلك ، أؤكد أن ذلك لن يحدث . »

راحت ماريانا تقول ، والوعيد يملأ نبرات صوتها : « إن رفضك

سيكون بداية لمتاعبك . »

وفي حزم وحسم قال الرجل : « أنت تهددينني . حسناً ، لقد انتهى ما عندي . أنت تقولين إن رفضي سيكون بداية لمتاعبي ، وإذا كان الأمر كذلك فالمتاعب إذاً قادمة ، وعلينا أن نواجهها منذ الآن . وأنا لست مستعدًّا لقبول تهديدات . »

وهب واقفاً ، واستطرد يقول في صوت يرتعش من سورة الغضب : « إنني سأتصل بالشرطة في هذا الشأن . »

بشيء غير قليل من السخرية المرة ، وبكثير من الهدوء قالت له : « إن هذا ليسعدني كثيرا . يمكنك أن تستخدم هاتفي المباشر . هاك الهاتف ، فتفضل واتصل بالشرطة . »

ثم ضحكت ضحكة عالية الرنين ، وقالت وهي تنظر إليه نظرة ذات معنى : « تفضل ، واتصل بالشرطة . فإني أرغب في الاتصال بهم كذلك ؛ لأقول لرجال الأمن : إنك تعمل في فرانكفورت باسم مستعار ، مخفياً شخصيتك الأصلية ؛ لأنك من مجرمي الحرب ، الذين تبحث عنهم السلطات لتحاكمهم على ما ارتكبوه من جرائم في أيام النازية . أريد أن أقول لهم : إنك تنتحل شخصية رجل ميت . »

اضطرب الرجل اضطراباً عنيفاً ، وارتبك ارتباكاً شديداً ، وارتسمت على وجهه أمارات الدهشة ، وبدت على أساريره دلائل الحيرة ، وانطلق يقول : « هذا غير صحيح ! هذا غير صحيح ! »

قاطعته بحماس : « إن لديَّ الوثائق التي تثبت ذلك ، وأنا أعرف

عنك الكثير . أعرف عنك ما أريد أن أعرفه منذ كنت في جنود العاصفة حتى يومنا هذا . »

وبدأت – وكأنها تقرأ من كتاب مفتوح – تذكر له الكثير من تفاصيل حياته ، وتسرد له معلوماتها عنه ، وكيفية انتحاله شخصية رجل ميت . وهاله ما تعرف عنه . إنها تعرف عنه ما يقرب مما يعرفه هو عن نفسه ، بل إنها تعرف عنه ما لا يعرفه هو عن نفسه من طباع وصفات خاصة لم يُعن يوماً بدراستها في نفسه .

وأذهلته الصدمة ، وأسكتته وقتاً غير قصير ، وأطرق برأسه ، ولم يجب .

سألته ماريانا : « ما رأيك ؟ »

أجاب ، وفي عينيه بريق خوف وتوتر ، وفي رنة صوته حزن وأسى : « من الصعب عليّ كثيراً أن أقبل ما تعرضين . من الصعب أن أوافق على خيانة بلدي . هذا هو رأيي . »

عبست ماريانا ، و قطبت جبينها ، ثم قالت : « لا بد أن أقول لك : إنني أحياناً لا أفهم ، ولكنني أبداً لا أعرف اليأس . »

وفي هدوء مصطنع قال الرجل : « إنك تحاولين استدراجي إلى قول ما تريدينه أنت . بيد أني لا أعتقد في أنك سوف تنجحين في هذا يا آنسة ماريانا . »

ودخل الساعي يحمل كئوساً صغيرة مملوءة بالخمر . لكن الرجل لم يشرب ، بل طلب فنجاناً من القهوة ، قد يعينه على تركيز

تفكيره ، وشحذ انتباهه لما ينتظره من مصير . وامتدت يد ماريانا إلى صندوق سجائرها ، وأشعلت لنفسها سيجارة ، ثم سألته : « هل قررت أن تتعاون معنا ؟ »

وتريث الرجل قليلاً ، ومسح جبهته العريضة براحة يده ، ثم قال : « إنني سوف أخيب رجاءك ، إذا افترضت أو اعتقدت أن في إمكاني أن أمدك بأية معلومات . »

قالت بصوت تشيع فيه القوة والحزم والتحدي : « إنني في عجلة من أمري ، وأظنك أيضا في عجلة من أمرك ، وأنصح لك أن تقرر فوراً والآن . »

وعلت وجهه سحابة دكناء من الكآبة والغم ، ثم قال في صوت متحشرج ، وهو يهز رأسه يمنة ويسرة : « مستحيل ، مستحيل أن أفعل ذلك . »

تجهم وجهها ، ولمعت عيناها ببريق مخيف ، وخرجت الكلمات من بين شفتيها كطلقات المدافع : « ماذا تظن أيها الرجل ؟ هل تدرك نتيجة ما تقول ؟ »

قال في شيء من التمرد : « ماذا لو رفضت ؟ »

أجابت بكل ما تملك من هدوء وبرود : « محال أن تكون جادًّا في سؤالك هذا ، وإلا فإنك تجهل مصلحتك الشخصية . »

سادت بينهما فترة من الصمت ، تشاغلت أثناءها ماريانا بصبّ القهوة ذات الرائحة النفاذة في الفنجانين الموضوعين أمامهما ،

وإضافة السكر واللبن ، ثم نظرت إليه وقالت : « من واجبي أن أنصحك بالتروي . »

تململ الرجل في مقعده ، وزفر زفرة تشي بنفاد صبره ، ثم قال : « لا حاجة بي إلى نصائحك . »

قالت بحدّة : « لا أحد يمسك بيدك . تفضل ، واتصل بالشرطة . »

وخفض الرجل بصره ، ونكّس رأسه ، وبدا عليه التردد بضع لحظات ، وهرش رأسه قليلاً ، وتفكر لحظة، ثم سرعان ما قال : « هل تعنين أن أصبح جاسوساً ؟ »

قالت ماريانا في صوت مفعم بالرقة : « لا ، بل مناضلا من أجل السلام . »

قال الرجل في حيرة ، والعرق يتصبب من جبينه : « ما دام الأمر كذلك ، فما هو المطلوب مني ؟ »

ردت ماريانا في بساطة وعفوية قائلةً : « إن الناس في موسكو يهتمون بهذه المعلومات عن الأبحاث السرية . وينبغي – لصالحك أنت – أن تبذل كل جهد في سبيل إرسالها إليهم . »

وأقلقه هذا الرد وراح يديره في ذهنه ، ويقلبه على وجوهه ويقول : « إنني لم أفكر قط في التجسس ، وليست لدي أية معلومات عنه . »

وكان جوابها جاهزاً ،كأنما كانت تنتظر السؤال وتتوقعه: « على

الإنسان أن يتعلم دائماً ، وأعتقد أنه يمكنك أن تجرب حظك . »

وبعد أكثر من ساعة ، قضاها في التفكير والحيرة والتردد ، غدا يدرك إدراكاً واضحاً قسوة الموقف الذي وضع فيه فجأة . وكان يحاول الموازنة بين ما يمكن أن يجنيه لو وافق على القيام بالمهمة المعروضة عليه ، وما يمكن أن يتمخض عنه رفضُه لها من نتائج . ثم ، وخشيةً أن يصبح تهديدها له حقيقة واقعة ، أعلن موافقته على نصيحتها . بدا ذلك في عينيه المنكسرتين ، وأومأ برأسه إيذاناً بالقبول في أن يصبح عضواً في شبكتها . وقال في صوت خفيض خافت ، يمتلئ بإحساس غائر بالمذلة والهوان ، كأنه يعلن خضوعه واستسلامه : « موافق . »

واكتسى وجه ماريانا بالجدية ، ورفعت إبهامها محذرة ، وهي تقول : « لست في حاجة إلى أن أنبهك بأنك إذا خنتنا فسوف نهتم بأمرك . ولنا من الوسائل ما يمكننا من متابعتك حيثما كنت. ولا تنس أن طلقة طائشة ، أو سيارة حمقاء في أي شارع من شوارع المدينة يمكنها أن تفي بالغرض . والفاعل مخطئ أو مجهول . كَما أنك تعرف – ولا شك – أن الشرطة تَسُمُّ الكلاب الضالة ، وفي استطاعتنا أن نقوم بهذا العمل . »

و لم يجد الرجل بدًّا من أن يقول شيئاً ، فرفع رأسه ، و قال في ذلة : « إنّني في خدمتك . كوني على ثقة من ذلك . »

وأقسم أن يكون طوع أمرها ، وأن يكون مخلصاً لها ، وليس لأحد سواها . ثم ذكر بعض معلومات ذات طبيعة سرية في غاية

الأهمية .

وكانت هذه هي البداية . خضع الرجل الذي كانت وطنيته تحتم عليه مهما كانت النتائج أن يقوم بإخطار أجهزة الأمن الألمانية. خضع لنوع من التهديد والابتزاز أجبره على الإدلاء بمعلومات تضر بالأمن القوميّ لوطنه ضرراً فاحشاً ، وراح يهبط سريعاً في مستنقع الخيانة ، ويهوي إلى القاع ، وأصبح عجينة طرية في يد ماريانا تشكلها كما تشاء . وكان واحداً من أبرز عملائها وأكثرهم أهمية ، فقد كان ما تحصل عليه منه من معلومات ذا أهمية بالغة عن أية معلومات تستقيها من المصادر الأخرى .

وتكررت عمليات التجنيد واصطياد العملاء ، التي كانت تتسم بالجرأة مع التبصر وتحديد الخطة بما يتّسق والفريسة التي تلقي شباكها حولها . واستطاعت ماريانا أن تضم إلى شبكتها في زمن قياسي الكثير من الألمان ، الذين أوقعتهم تحت الضغط والابتزاز ، أو في دائرة الوعيد والتهديد ، أو أغدقت عليهم الثمن . وكان تركيزها على الأشخاص الذين يقومون بأعمال لها صفة السرية في الحكومة، وعلى من يشغلون مراكز قيادية في الأحزاب والمنظمات السياسية ، ممن يكونون قادرين على تقديم معلومات ذات قيمة للاتحاد السوفييتيّ .

وخلال الفترة التي عاشتها ماريانا في « فرانكفورت » اتخذت أبرع وسائل التغطية ؛ لكي تمارس عملها في سرية مطلقة ، وكتمان شديد . فلم يتسنّ لأحد أن يتعرف على شخصيتها الحقيقية، ولم يتطرق الشك فيها لأحد ، على حين كانت تتتبّع

الأنباء في كل مكان ، وتستقي المعلومات من كل مصدر متاح . وكان العمل في مكتبها لا يهدأ ، وأجهزة الإرسال فيه لا تتوقف . وكانت تقاريرها على أكبر درجة من الدقة حتى في أدق التفاصيل .

ولقد بلغ من دقة ما كانت تبعث به من معلومات أن قدراً غير قليل منها كان يعد أعلى من درجة سري للغاية . بل يقال : إن بعض المواد التي بعثت بها كانت مثيرة للاهتمام ، حتى إن الرفيق خروشوف – الزعيم السوفييتيّ آنذاك – قرأها بنفسه . كما أرسلت نسخ منها إلى عدد معين من أعضاء « البريزيديم » (المكتب السياسي في الكرملين) تحمل عنوان « عاجل جدًّا » .

وتوسّع نشاط الشبكة ، فأنشأت ماريانا في الوقت المناسب ، بموافقة رئاسة منظمة التجسس السوفييتيّ ، وليس بناء على أوامرها ، مكتباً آخر للسكرتارية في برلين الغربية . تقول التقارير إنه كان ذا فائدة كبيرة . ومضت الأيام يتلو بعضها بعضاً .

ومنذ الأسبوع الأول من شهر مارس عام ١٩٦١ – أو ربما قبل ذلك بقليل – لم تعد تقارير المعلومات للخدمة السرية بموسكو تذكر أي شيء عن ماريانا ، ولم يُسمع عنها أي خبر بعد ذلك قطُّ .

قد تكون متقمصة لشخصية جديدة ، تمارس عملاً جديداً ، في مكان جديد .. وقد تكون .. وقد تكون .

إن هذا العالم – عالم حرب الدهاء – الحافل بالأسرار والألغاز لا يجدي التكهن بمصائر الأشخاص فيه فتيلاً .

الباب المفتوح

قد يكون من الخير لك أن تلج باب هذه القصة من غير تمهيد ؛ فهو مفتوح على مصراعيه ، لا يُحوجك إلى طَرْق ولا استئذان . وأحداثها جرت مكشوفة للعيان لا يحجبها ستر ، ولا يحوطها كتمان. وقعت في وضح النهار ، على مرأى ومسمع من كل العيون والآذان. وشخوصها رجلان : أما أحدهما فكان يعمل ملحقاً عسكريًّا بولنديًّا في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو ضابط مخابرات يدعى « باول مونات » . تستَّر خلف تلك الوظيفة التي لا يخفى اتصالها العملي بجهاز المخابرات .كان ذلك منذ صباح اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٥٥ . وأما الثاني فرجل أمريكي ستلقاه وتتعرف عليه بعد حين .

بعد ظهر يوم من شتاء ١٩٥٦ كان باول مونات يستقل القطار من « واشنطن » إلى « شيكاغو » ، يرافقه مساعده « وسنويسكي » ويشغلان مقصورة واحدة . وبينما كان مونات يقف في ممر عربة القطار لفت نظره رجل قصير القامة ، ضئيل الجسم ، دقيق التكوين، حسن الهندام ، يضع على عينيه نظارة داكنة اللون ، وتبدو عليه سيماء الجد والصرامة . خُيِّل لمونات أن هذا الرجل من رجال مكتب المباحث الفيدرالي الأمريكي ، أو من أصدقائه ، كما كان

يطلق عليهم . ولا شك في أنه يقتفي أثره ، ويرقب خطواته ، ومن ثم قرر مونات أن يتحدث إلى هذا الرجل الذي أثار فضوله ، وجذب انتباهه، فأومأ برأسه تحية للرجل ، وابتسم كل منهما للآخر ، ثم قال مونات : « أ تسمح لي ، يا سيدي ، بسؤال ؟ »

التفت الرجل إليه مستغرباً مستفهماً ، وقال : « تفضل . »

« أستميحك عذراً لسؤالي . أ لم نلتق في مكان آخر من قبل ؟ »

نظر الرجل إلى مونات نظرة سريعة ، ثم قال بلهجة التأكيد : « نعم ، لم يحدث أن التقيتك قبل الآن . »

وبأدب جمٍّ رد مونات : « ولكنني على يقين من أنني رأيتك من قبل . قد يكون في ميدان التايمز في نيويورك . »

وبغير اكتراث قال الرجل ، وكأنما يبدي ملاحظة عابرة :

« اسمح لي أن أختلف معك ؛ فأنا لم أذهب قط إلى ذلك الميدان . »

وفي هدوء قال مونات : « قد يكون إذاً في حديقة «« فورت تريون »» . »

« ولا هذه ؛ فأنا أجهل مكانها . »

وفي إصرار قال مونات : « إذا أسعفتني الذاكرة ، فربما كان ذلك في الميدان السابع عند محطة مترو الأنفاق . »

هز الرجل رأسه نافياً ، وقال في نبرة لا تخلو من سخرية : « لا أظن ذلك صحيحاً ؛ فليس من عادتي أن أسلك ذلك الطريق . »

ومن خلال ابتسامة عريضة ، وفي صوت المغلوب على أمره ، قال مونات : « هذا عجيب ! فمن النادر أن أخطئ صورة رجل رأيته من قبل . »

ضحك الرجل ضحكة قصيرة خافتة ، ثم قال : « محتمل . ولكن يبدو أنك قد أخطأت في هذه المرة لسبب بسيط . »

نظر إليه مونات محملقاً ، وقال : « ما هذا السبب البسيط ، يا سيدي ؟ »

أجاب الرجل وهو يغالب ضحكة: « إنني أعمل في« بالتيمور» ولا أتردد على نيويورك إلا نادراً . »

سكت مونات هنيهةً يُعمل فيها فكره بحثاً عن وسيلة يجره بها إلى الكلام ، ثم قال وهو يبتسم : « إنه يوم مشمس بعد مطر دام طويلاً . ونوشك أن نقول : إنه يوم حار .. أ ليس كذلك ؟ »

« بلى ، تماماً ولكن يبدو أنها رحلة موفقة . »

وفي نبرة مرح تنم على خفة روح قال مونات : « آمل أن تكون كذلك ، وأن يصل القطار في موعده . »

وبثقة ويقين رد الرجل : « نعم ، سنصل في الموعد المقرر . »

« لقد طمأنتني . هل سبق لك القيام بهذه الرحلة من قبل ؟ »

بحماس كبير أجاب الرجل : « نعم . إنها المرة الثلاثون التي أسافر فيها على هذا الخط . »

ابتسم مونات و قال في خبث : « يبدو أنك تقوم برحلات كثيرة . »

وفي تواضع متكلف قال الرجل : « نعم ، فلدي الكثير من الأعمال التي تستدعي التنقل ، وتستوجب الأسفار . »

وفي مجاملة رقيقة قال مونات : « إن بلادكم جميلة ، والتّجوال في أرجائها يبعث على البهجة ، ويثير النشاط ويريح الأعصاب . »

وتضيء الابتسامة كل ملامح الرجل ، ويهز رأسه علامة الموافقة، ويقول : « هذا كلام صحيح كل الصحة ، فهي بلاد رائعة حقًّا . »

وراح كل منهما ينظر من نافذة القطار ، فيرى الشمس قد أشرقت بعد طول غياب ، فولت الغيوم الكثيفة الأدبار ، ولم تبق إلا سحب بيضاء متناثرة كالعهن المنفوش ، ويرى الأشجار وقد غسلتها الأمطار فبدت رائعة مجلوة كالعروس ، وبقايا صغيرة من مياه المطر لم تجف بعد . ولكن الرجل يستدير بعد لحظة نحو مونات ويقول :

« لاحظت لهجتك في الحديث . وإذا كان لي أن أسأل ، فمن أي البلاد جئت ؟ »

قال مونات في لهجة ممتلئة بالود : « لك الحق في أن تسألني ما تشاء . إن موطني بولندا ، ولكني أقيم الآن في « واشنطن » . »

وقعت بولندا في سمع الرجل على أنها هولندا ؛ إذ كان

مونات مسرعًا في حديثه ، فحدث اللبس في نطقه اسم بلده ، فأبدى الرجل دهشته وقال : « جميل جدًا ، أنت من هولندا إذاً . إن لي أخاً كان جنديًا في الحرب العالمية الثانية هناك . »

ابتسم مونات للمفارقة ، وقال : « حقًّا ! وما رأيه فيها ؟ »

« يقول : إنها بلاد جميلة ساحرة . يمتاز شعبها بمظاهر الصداقة والود ، وطيب العشرة . »

في تواضع متكلف ، وحياء متصنع ، قال مونات : « شكراً على هذه المشاعر النبيلة . »

لاذ الرجل بالصمت قليلاً ، و أطرق برهة ، ثم قال باهتمام كبير : « حسناً ، وأي عمل تؤدي ؟ »

ابتسم مونات ، و دون أن يختلج له جفن ، أجاب : « وماذا يصنع الناس في واشنطن ؟ إنني موظف بإحدى المصالح الحكومية . »

كان مونات صادقًا كل الصدق في جوابه ، وإن كان قد تعمد ألا يذكر اسم المصلحة الحكومية التي يعمل بها .

ابتسم الرجل ، وقال : « يا لها من مصادفة طيبة ! إنني موظف كذلك . »

وفي دهشة مصطنعة سأله مونات : « هل حقًّا ما تقول ؟ وما العمل الذي تقوم به ؟ »

وبتلقائية وصدق ، وفي يسر وبساطة ، وفي لهجة تنم عن الزهو

والتفاخر ، أجاب الرجل : « إنني من العلماء ، و أقوم بأبحاث تتصل بالطيران . »

شرع مونات يحشو غليونه في بطء شديد ، وفي مزاج رائق ، وبدا كأنه يحشو في فمه - أيضاً - هذا السؤال الذي جرت كلماته متمهلة مستأنية على لسانه ، ثم قال : « يبدو أنه عمل على قدر كبير من الأهمية . أ ليس كذلك ؟ »

انطلق الرجل ، وابتسامة ممتلئة بالثقة على شفتيه :

« بلى ، إنه عمل هام . وإني أحب كثيراً شركة « مارتن » ، وإن كان الإنسان كثيراً ما يستشعر ضيقاً من عمل يؤديه كل يوم على وتيرة واحدة . »

وكمن يؤمن على قول بديهي قال مونات : « من المحتمل أن يكون كلامك هذا صحيحاً ، خاصة وأنك تبدي وجهة نظر . »

ثم صمت لحظة أنشأ بعدها يقول : « هل قلت : إنك تعمل في شركة « مارتن » ؟ »

« نعم ، ولا شك أنك سمعت عنها . »

ولكن مونات تصنَّع عدم المعرفة ، وقال : « لا أعرف عنها غير معلومات ضئيلة . »

قال الرجل في نبرة الواثق ، وصوت المجرب : « مارتن .. شركة مارتن .. في الواقع إن لي كلاماً كثيراً جدًّا في موضوعها . إن شركة مارتن على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ هي تقوم ببناء

مختلف الطائرات الضخمة لكل من سلاحي البحرية والطيران ، وتستخدم ما يقرب من ستة وعشرين ألفاً من العمال ، وتتعامل تعاملاً واسع النطاق في صفقات تقدر بمئات الملايين من الدولارات . »

و تنهد في عمق ، وما لبث أن أردف : « لو كنت مسئولاً عن هذه الشركة ، لوضعت حدًّا لهذه الأمور التي أشاهدها ، وأن أتيح الفرصة لتقييمها على أساس موضوعي . »

وتغابى مونات وأظهر أنه لا يفهم مقصود الرجل ، وقال : « مثال ذلك . »

صمت الرجل فترة ، بدا فيها أنه مستغرق في تفكير عميق ، ثم قال : « حسناً ، سوف أشرح لك ، وسوف أعطيك فكرة حية واضحة عن هذه الشركة . »

وبدأ الرجل يثرثر ، وبدأ سيل المعلومات يتدفق بغير عناء .

ويبدو أن الحظ كان حليف مونات ؛ فقد راح الرجل يثرثر ، وراحت المعلومات والتفاصيل والأرقام تُفلت من لسانه ، الذي لا يكف عن الدوران ، ومن فمه الذي لا يكاد ينطبق . تحدث عن نشاط الشركة ، وتفاصيل أعمالها الدقيقة ، وأسلوب العمل وتطوره، وآخر الاختراعات والتصميمات الجديدة ، وعرج على العاملين فيها ومشكلاتهم ، ومساوئ المسيطرين على الإدارة وانعدام جدارتهم لتولي هذه الوظائف القيادية . ولم ينس أن يمتدح من خلال ذلك مجهوداته العظيمة امتداحاً فائقاً . حقًّا لقد كانت معلومات يسيل لها لعاب أي جاسوس ، ويعدها كنزاً ثميناً لا يقدر بمال .

وكأنما أحسّ الرجل أنه أطال الحديث ، وأثقل على صاحبه بهذا الحديث الجاف ، فنظر إليه وقال : « آسف ! ربما ضايقتك بحديثي هذا أكثر مما ينبغي . أرجو ألا أكون سبباً في ضياع وقتك . » ثم ملأ رئتيه بالهواء ، وشعر بالارتياح البالغ ؛ إذ عثر على من يصغي إليه بعناية ، وهو لا يدري إلى من يتحدث .

قال : « عفواً ، هل لك في أن تحدثني عن وظيفتك ؟ »

وتصنّع مونات عدم المبالاة ، وقال : « إن وظيفتي بسيطة ، تختلف كثيرًا عن وظيفتك ، فأنا أعمل في واشنطن وأقيم هناك ، وأتردد على شيكاغو من حين لآخر لإنجاز بعض الأعمال . »

« وبهذه المناسبة ، أين تقيم في شيكاغو ؟ »

« أقيم في ‹‹ لاسال ›› . »

« هذا على مسافة بعيدة مني ، فأنا أقيم في ‹‹ ألدريك ›› . »

وعَمَد مونات إلى تغيير مجرى الحديث ، فالتفت إلى الرجل وقال : « معذرة ، كم الساعة الآن ؟ »

« الخامسة وست دقائق . »

واتجه مونات صوب النافذة ، يرنو إلى هذا المنظر المهيب : منظر أول الليل وهو يدنو من آخر النهار ، أو آخر النهار وهو يدنو من أول الليل ، وهذه الشمس الواهنة التي تنشر على الأحياء والأشياء ظلالاً شفيفة رقيقة تؤذن بمقدم الليل وانصراف النهار . وأفاق من سَبحته هذه على صوت الرجل : « هل تود أن تدخل مقصورتي ، وتجلس

معي ؟ »

« إنه لكرم منك ، يا سيدي . »

ودخلا ، وهنا وقع ما لم يكن في الحسبان . وقعت مفاجأة مذهلة لا يتأتى لخيال روائي مهما كان خصباً أن يتخيلها ، فكثيراً ما يكون الواقع أشد غرابة من الخيال .

لقد التقط الرجل حقيبة كانت فوق أحد المقاعد ، و وضعها أمامه ليفسح لصديقه مكاناً يجلس فيه . وما لبث أن قال في زهو واستعلاء : « هذا هو المشروع الذي أقوم بإعداده الآن . »

و أشعل لفافة تبغ ، وجعل ينفث الدخان في لذة واستمتاع ، ثم فتح الحقيبة وأخرج منها كومة من الأوراق ، وقال وهو يرسل الدخان في الهواء : « لا بد لي من قضاء اثنتي عشرة ساعة يومياً لإعداد هذه الأوراق . »

لاحظ مونات أن الأوراق مزدحمة بالأرقام والجداول والرسوم التوضيحية ، ولكنه لم يستطع تكوين فكرة عن حقيقتها ، فقال في خبث محاولاً إثارة الرجل : « إنها تبدو شديدة التعقيد ، فلا شك في أنك تضع تصميماً لطائرة جديدة . »

وأفلت الجواب من بين شفتي الرجل دون أن يشعر : « لا ، ليس الأمر كذلك . إني أساعد في تصميم جهاز لتجربة مدى كفاية الطائرات الجديدة ، فأنا متخصص في علوم اتجاهات الرياح . وهذه الأوراق تتعلق باتجاهات الرياح في أثناء الطيران ، وهو تطور جديد للطائرات . »

وأعاد الرجل الأوراق إلى حقيبته ، ثم وضع الحقيبة فوق رف المقصورة .

وكانت هذة فرصة نادرة لمونات قلما تتكرر ؛ فجعل يُعمل عقله بسرعة صاروخية للبحث عن وسيلة يحصل بها على هذا الكنز الثمين الذي تحتويه الحقيبة . ويبدو أن الحظ لا يزال حليفه ؛ فبينما كان يجهد نفسه وعقله في التفكير هبط عليه الحل من السماء ، فقد دخل أحد العمال يعلن أن موعد العشاء قد حان . واجتاحت الرجل نوبة كرم فعرض على مونات مشاركته الطعام ، فلبى شاكراً . وبينما هما يسيران في ممر العربة يقصدان عربة الطعام تذكّر مونات أن الحقيبة في المقصورة لا تزال مفتوحة ، فاعتذر للرجل بأن عليه أن يغسل يديه ، وسيلحق به في عربة الطعام . وبسرعة خاطفة مرق إلى مقصورته فوجد مساعده يطل من النافذة ، فوضع يده على كتفه ، و همس في أذنه لكي يستيقظ من أحلامه ، ويتأهب للعمل . و نظر « وسنويسكي » إلى وجه مونات يستطلع جلية الأمر ، فقال مونات :

« أصغ إليّ جيداً . أين معدات التصوير ؟ »

اعتدل وسنويسكي الذي كانت براعته في التصوير لا تضارعها غير براعته في استخدام أجهزة اللاسلكي – اعتدل في جلسته ونظر إلى مونات مستفهماً وقال : « معي ، جاهزة بالتأكيد . »

« حسناً ، اِلتفِت لما أقول .. بعد مقصورتين على يسارك ستجد مقصورة بها حقيبة موضوعة على الرف . وهي ممتلئة بالأسرار ،

وليس هناك وقت لقراءتها . كل ما عليك أن تأتي بها إلى هنا ، وتصور كل ورقة فيها بأسرع ما تستطيع . وسأحتفظ بصاحبها في عربة الطعام ، ريثما تنتهي من إعادة الأمر إلى نصابه . وحاذر أن يراك أحد عند دخول المقصورة أو الخروج منها ، وعند عودتي سأدق الباب فإذا لم تكن قد فرغت من عملك فعليك أن تخفي الحقيبة تحت هذا المقعد ، هل فهمت ؟ »

« نعم ، فهمت . »

«حسناً ، هيّا إلى العمل . أرجو ألا يفلت منك هذا الموضوع . »

« سوف أحاول . »

وفي طريقه إلى عربة الطعام أخذ يُعمل فكره في الخطوة التالية ، إذا ما عاد مع الرجل فوجد أن مساعده لم يفرغ بعد من مهمته ، فإن عليه أن يقف خارج مقصورة الرجل ، ويشاركه في عملية البحث عن الحقيبة ، ثم يوهمه بأنه قد يكون سها عنها في عربة الطعام . وحينما يتوجه الرجل للبحث عنها ، يعيدها هو إلى مقصورة الرجل ، ويخفيها تحت المقعد . سواء كان التصوير قد تم أو لا . وعند عودة الرجل يشير إليها كما لو كان وجدها مصادفة ، موضحاً أنه احتمال أن يكون مضيف العربة قد وضعها كذلك في أثناء غيابهما حرصاً عليها . أما إذا فشلت هذه الحيلة فسوف يقذف بها من النافذة ؛ حتى لا يكون هناك دليل على أنها كانت في حوزته .

وقد كان ما أراده مونات .

لقد قضى مع الرجل وقتاً طويلاً في عربة الطعام ، يتجاذب معه

أطراف الحديث في موضوعات شتى : فمن حديث حول الطقس المطير والصحو ، وازدحام عربة الطعام ، ونوعية الطعام وجودته وحسن مذاقه ، إلى حديث عن التمثيل ودور الخيالة والأطباق الطائرة ومذهب الوجودية ، إلى حديث عن التقاليد والعادات وما شاهده الرجل في رحلاته الكثيرة ، إلى آخر عن السياسة الدولية والأمريكية. وراح الرجل يحكي ويحكي ويفيض ، ومونات يستمع ويحسن الاستماع ، ويلتقط خلال ذلك ما يريد .

وبعد أن تناول الحلوى والفاكهة شربا قدحين من القهوة ، ثم دعاه مونات ليقضيا فترة في تدخين السيجار الكوبي في عربة الاستقبال ، حيث استأنفا حديثاً لا ينتهي إلا ليبدأ ، ولا يبدأ إلا ليتشعب ويسترسل . وكلما جاء ذكر العمل على لسان الرجل أسهب في بيان أهميته ، ودوره العظيم .

دام هذا الحديث المتنوع المتشعب زهاء ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وفي نهايته وجّه الرجل قوله إلى مونات :

« إن السعداء هم الذين يتاح لهم التمتع بالحديث معك ، أو الإخلاد إلى النوم . أما أنا فعندي أوراق لا بد من الانكباب عليها ، ودراستها ؛ إذ لديّ عمل كثير في الغد ، فهناك علماء آخرون سيقومون بمراجعة أبحاثي ، وأودُّ أن أكون مستعدًّا لمحاورتهم . »

نهض الرجلان ، وسبق مونات الرجل خلال الممر المؤدي إلى عربتهما . وعند مروره بمقصورته فتح بابها قليلاً ، ثم أغلقه بصوت مسموع ، وقال : « إن رفيقي يغط في نومه ، وكنت أخشى أن يكون

قد أغلق الباب بالمفتاح . »

ودّع الرجل مونات قائلاً له في ودّ : « أشكر لك ما منحتني من وقت . »

« عفواً ، إنني أشكر لك ما قدمته لي من شراب . »

وصافح الرجل مونات ضاغطاً على يده ، وهو يقول : « إنني سعيد الحظ ؛ لأنني التقيتك ، ورافقتني في هذه الرحلة . ويسعدني أن أراك مرة أخرى . طبت مساء . »

« هذا مما يسعدني أيضاً . طبت مساء . »

ودخل الرجل مقصورته ، وأغلق الباب خلفه ، ولم يقف على شيء مما حدث ، ولم يدرك ما فعل . لم يدرك أنه أفشى أسراراً خطيرة ، وقدم معلومات دقيقة إلى جاسوس يعمل لحساب المعسكر الشرقي .

ودخل مونات مقصورته وسأل مساعده هامِساً : « هل أنجزت عملك ؟ »

وفي زهو وافتخار قال مساعده : « نعم ، يا سيدي . لقد التقطت صورة لكل ورقة ، ولكن الضوء لم يكن واضحاً ، كما أن القطار كان يتأرجح من آن لآخر ولست على يقين إن كانت الصور تؤدي مهمتها أو لا . »

ضحك مونات ضحكة المزهوّ الفخور ، وقال : « هذه ليست مهمتنا . علينا أن نرسل إليهم الأفلام ، وهناك يؤدون مهمتهم .

طبت مساء ، يا وسنويسكي . »

« طبت مساء ، يا سيدي . »

وتكرُّ الأيام والليالي ، ويعود مونات إلى وطنه بولندا في الحادي والثلاثين من شهر مايو عام ١٩٥٨ . ويصبح رئيساً لفرع الملحقين العسكريين بإدارة المخابرات البولندية . وبذلك أصبح مسئولاً – بحكم منصبه الجديد – عن أعمال الملحقين العسكريين البولنديين في جميع أنحاء العالم .

ولكن ، وما أصعب وأشق ما وراء « لكن » هذه !

لكن يبدو أن السنوات التي قضاها مونات في الولايات المتحدة الأمريكية أثرت في نفسه تأثيراً بالغًا ، ودفعت كثيراً من الأفكار ؛ لكي تمور في صدره ، وجعلت كثيراً من الخواطر تزدحم في رأسه ، وكثيراً من المقارنات والموازنات تعتمل في عقله .

وكانت وظيفته الجديدة تتيح له الخروج من بولندا والعودة إليها في يسر وسهولة ، كما أنه كان موضع ثقة المسئولين ، لا تحوم حوله شبهة ، ولا تعلق به ريبة .

وذات يوم أعلن عن عزمه القيام بجولة يتفقد فيها أعمال الملحقين العسكريين في دول الكتلة الشرقية ، ويزودهم بتوجيهاته . واعتقد رؤساؤه أن لهذه الفكرة ما يبررها ، و وافقوا عليها . وركب مساء الثلاثاء الثامن عشر من شهر يونيه عام ١٩٥٩ القطار السريع المعروف بـ « إكسبريس الشرق » – هذا القطار الذي كان مسرحاً لكثير من مغامرات الجاسوسية الدولية – للقيام بجولته . وتحرك

القطار رويداً رويداً ، ثم اشتدت سرعته . ومع تحركه اختفت أضواء المدينة – وارسو – وتلاشت شيئا شيئاً حتى لم يعد يظهر للناظر منها ضوء . وباختفاء أضوائها اختفت من أعماق نفسه أو كادت . وفي أثناء الليل عبر القطار الحدود إلى تشيكوسلوفاكيا ، حتى إذا أشرقت الشمس عبر الحدود إلى النمسا . وما إن وصل القطار إلى محطة « فرانز جوزيف » في « ڤيينا » عاصمة النمسا ، حتى هبط مونات وعائلته من القطار ، واتجهوا إلى فندق بمنطقة « وست باهنهوف » حيث أقاموا فيه .

ومن فوره اتصل بالسفارة الأمريكية في ڤيينا . كانت الساعة قد أوفت على العاشرة والثلث صباحاً ، ورغب في الحديث إلى الملحق العسكري . ولكنه لم يجده ، و وجد مساعده ، وأخبره أن لديه مشكلة يريد عرضها عليه – وهو أحد الموظفين السابقين في واشنطن – وبعد تردد قليل دعاه مساعد الملحق العسكري لزيارته ، وذكر له عنوان مكتبه .

ولم يضيّع مونات وقتاً ، فطرق الموضوع مباشرة ، حيث قال: « أنا الكولونيل باول مونات ، كنت الملحق العسكري البولندي في واشنطن حتى السنة الماضية . أشغل في الوقت الحاضر رئيس فرع الملحقين العسكريين في إدارة المخابرات البولندية ، وأطلب من حكومتكم – باعتبارك ممثلًا لها – أن تمنحني وعائلتي حقّ اللجوء السياسي . »

ولبث مساعد الملحق العسكري عاجزاً عن تصديق ما سمعته أذناه وأخذ يصعّد نظره في وجه مونات ، وبدت على وجهه أمارات الشك

والدهشة ، ولمعت عيناه وهو يفكر في الرد ، ثم ابتسم قائلاً :

« مرحباً بك ، يا سيدي ، في الولايات المتحدة ! »

هكذا تبدلت حياة مونات غير الحياة . وأتت البذرة التي بذرها بنفسه في نفسه ذات يوم ثمارها ، وأنتجت المفارقات والموازنات نتائجها ، وضعفت في نفسه روابط الانتماء الوطني؛ فإذا هو لا يجد ملجأ وملاذاً يعتصم به غير البلاد التي كان يتجسس عليها ، فيئوب إليها طائعاً مختاراً . يلتمس فيها راحة لنفسه ، واطمئناناً لخاطره ، ورغداً في حياته الآتية ، إن قُدِّر لحياته أن تأتي ؛ وليشعر بحرية فكره ، واستقلال عقله ؛ فعندما سئل : « لماذا فعلت ذلك ؟ » أجاب وهو يضغط على مخارج حروف كلماته :

« الشيوعية قفص ، ولمَّ يخلقني الله لكي أعيش في القفص ، وإنما خلقني لكي أعيش حرا طليقاً كما تعيش النسور . »

وطار النسر باول مونات ، تحت ظروف أمنية مناسبة ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية . أما تفاصيل ما جرى بعد ذلك فلا يعرفها أحد ، بل إن الأقوال تتضارب حول ذلك .

والآن ..

هل حقق « النسر » باول مونات في الولايات المتحدة الأمريكية بعيداً عن وطنه – بعد أن تم له ما أراد – شيئاً ذا قيمة قلت أو كثرت ؟

وأقول لك على الفور : لا أظن .. أو هكذا أعتقد .

من الطموح ما قتل

أكبر الظن أنك قد تستغرق دقائق عشراً في قراءتك هذه القضية ولكن الذي لا شك فيه أنك سوف تفكر فيها ساعات طويلة ، وأنّها سوف تظل محفورة في ذاكرتك ، عالقة بذهنك ، تستدعي أحداثها، وتستعيد تفاصيلها سنوات عدة.

ودون أدنى إثارة من تشويق يقتضيها أسلوب القصّ ، وتستوجبها طريقة العرض نبدأ معك الحكاية من أولها .

وُلدت صاحبتها مع أولى نسمات الصباح الباكر لليوم السابع من شهر نوفمبر عام ١٩١٥ في « هانوفر » بألمانيا ، في أسرة متواضعة محترمة ، تحيا حياة متقشفة ، فيها من شظف العيش أكثر بكثير مما فيها من متع الحياة . وعندما بدأت صاحبة هذه القضية تعي الحياة لم تجد من حولها الحياة ؛ فعزَّ عليها أن تعاني ما يعانيه معظم أفراد عائلتها من قسوة العيش ومرارة الحرمان ، وأبت إلا أن تحوز كل ما ترغب فيه ، وتطمح إليه من لذائذ الحياة ، وأسرفت متطلعة – في حرقة ولوعة – إلى ما يتمتع به الآخرون .

وأصرت على أن تمضي بحياتها كما تريد هي . وقررت أن تصل

إلى ذروة المجتمع الأرستقراطيّ الألمانيّ ؛ كي تنعم بالرفاهية والعيش الرغيد ، مهما كانت الوسيلة التي تسلكها لبلوغ هذه الغاية. وتمكنت هذه الرغبة من عقلها واستحوذت على خيالها ، وتغلغلت في كيانها كله ، فأضحت لا تحلم إلا بها ، ولا تبصر سواها . وأصبح بداخلها قدر من مرضِ الطموح ، هذا الطموح الذي قد يؤدي بصاحبه – غالبًا – إلى التهوُّر . ولكن الكثيرين لا يدركون هذه الحقيقة .

ولكي تذيب الفارق الشاسع بين الواقع الذي تحياه ، والأمل الذي تنشده ؛ أصبحت وفي سنٍّ مبكرة جدًّا امرأة ذات مواهب حسية متميزة ، وذات سلوك مما يسميه الناس السلوك السّيّئ ولم تحاول « إلسي شولتز » – وهذا هو اسمها – أن تخفي أمورها ، أو تستر سلوكها ، فشاع بين الناس أمرها ، وزكمت الأنوف رائحتُها وأخذت الألسنة تلوك سيرتها .

وفي إحدى الليالي ، وبعد أن قضت سهرة صاخبة ، عادت إلسي إلى البيت ، وكانت الساعة تقترب من الثالثة ظهراً ، وإذا والدها يسألها في انفعال غاضب : « أين قضيت ليلة الأمس ؟ »

وفي ازدراء أجابت : « كانت هناك حفلة ساهرة ، وأنت تعلم ذلك . »

وفي صوت أشدَّ انفعالاً ، عاد يسألها : « حفلة ساهرة حتى ظهر اليوم التالي ؟ »

وبغاية الاستخفاف ردَّت : « لا ، كنت مرهقة في الفجر بعد انتهاء الحفل ، فنمت عند بعض صديقاتي . »

قال وصوته يقطر مرارة ويسيل أسى : « ولماذا لم تعودي إلى البيت ؟ »

هزت إلسي كتفيها ، وقالت وهي تضحك في استهتار : « أنا حرة . »

أخذ يسب ويلعن ويغمغم ، وقال في كثير من الحدة : « أي نوع من الرجال تتصورينني ؟ »

قالت وقد قفزت من بين شفتيها ابتسامة مستهترة : « ليس هذا بالأمر المهم . »

وصاح في صوت أجشّ ممتلئ غيظًا وحنقاً : « ما المهم إذاً ؟ »

تجاهلت قوله ، وصرخت كأنها لم تسمعه ، وقالت وخيوط من الغيظ والسخط تتخلل نبرات صوتها : « أنا أكرهكم ! أنا أكرهكم ! الموت أفضل لدي من الحياة معكم . »

جابهها بكل ما بلغ مسامعه من سلوكها ، وسألها في غضب والشرر يتطاير من عينيه : « أ هذا ممكن ؟ أ هذا صحيح ؟ »

هزّت إلسي رأسها ومطّت شفتيها ، وقالت بغير مبالاة : « نعم ، كل هذا صحيح . »

أحسّ كأنما سكبت فوق رأسه دلواً من الماء البارد ، وغاص

قلبه في قدميه ، ونظر إليها في عنف وغضب شديدين ، ثم قال : « وكيف تجرُئين على ذلك ؟ »

قالت إلسي في صوت يمتلئ ضيقاً ومرارة : « ليس هذا بذي بال . »

فغر فاه من الدهشة ، وهو يقول : « ليس هذا بذي بال ؟ ماذا تقولين ؟ »

ضربت إلسي الأرض بكعب حذائها ، وقالت في تحدٍّ صارخ ، كأنما تعايره : « ليس من حقك أن تفرض عليَّ حياة البؤس والحرمان مدى الدهر . »

استبد به الغضب ، وقدحت عيناه بالشرر ، وهتف وهو يرتعد ، ونبرات صوته حادة قوية ، كأنما يعلن إصراره على كل حرف يتفوه به : « وليس من حقك أن تُسيئي إلى سمعتي . »

ومرة ثانية سمع منها : « أنا حرة . » فلم يتمالك نفسه ، وفقد أعصابه ، ولم يجد وسيلة غير العنف ، فانهال عليها ركلاً وصفعاً ، وظل يضربها ضرباً مبرِّحاً حتى كاد يُسْلمها إلى الموت .

وغطت إلسي وجهها بيديها ، وانطلقت تعدو في أرجاء البيت ، وأبوها من خلفها يتوعدها . ثم صرخت صرخات متتالية ، وسقطت على الأرض ، وشهقت شهقة حادة ، وراحت في نشيج متصل . ومضت فترة لا تجد في نفسها القدرة على الكلام ، ولا القدرة على

التنفس ، ولا القدرة على التفكير . ثم هبت واقفة ، وفي عينيها نظرة عنيفة متحدية ؛ فقد قررت شيئاً جديداً .

وغابت الشمس ، وأقبل الليل .

حزمت إلسي أمرها ، وراحت تجمع ثيابها ، وتلملم حاجياتها ، ثم خرجت لا هدف يحدوها ، ولا جهة تقصدها . إنما خرجت تحمل بين جنبيها نفساً تعسة متحيرة . تاهت من قدميها الطريق إلى العيادة النفسية ، وقد أحرقت كل الجسور التي تربط بينها وبين بيتها، فقد عزمت على ألا تعود إليه أبداً .

وما هي إلا أيام قليلة حتى وجدت عملاً بسيطاً في مقهى ، حيث تقوم بتقديم المشروبات لرواده . وبعد أعوام ثلاثة شدت رحالها إلى « نورمبرج » – تلك المدينة التي اشتهرت بما جرى فيها من محاكمات زعماء النازي – حيث استأجرت غرفة أقامت فيها .

وكانت إلسي – التي قد اكتمل نضجها ، وبدت في ريعان شبابها – رشيقة القوام ، حلوة التقاطيع ، ذهبية الشعر ، ذات عينين ناعستين ملونتين .كل ما فيها يؤلف لوحة بديعة متناسقة الخطوط والظلال . راحت تتجول في شوارع « نورمبرج » وطرقاتها بخطوات عارضة أزياء ماهرة ، وفي لفتات امرأة تدرك مفاتن جمالها ، وفي ثياب تدعو إلى الإغراء ، وتحضُّ على الإثارة .كل همها أن تخلب الأبصار ، وتثير الغرائز ، بحثاً عن صيد ثمين . وظلت تنتقل من يد إلى يد ، وفي عينيها سؤال حائر : ترى ماذا يحمل الليل من

مفاجآت ؟

تعددت لياليها ، وتنوعت سهراتها . وكان يحلو لها دائماً أن تبدأ ليلتها بالمحلات الفاخرة ، التي تقدم عشاء راقصاً ، أو في النوادي الليلية التي تقدم عروض « الاستربتيز » العارية ، ثم تحتسي بعض الكئوس ، ثم تذهب مع أحدهم إلى حيث يريد لتقضي معه بقية الليل بالثمن .

وفي هذه اللحظات التي تردت فيها إلسي إلى قرار سحيق من الانحلال الخلقيّ بدأت أحداث القضية .

كان « كناريس » – عميل المخابرات الإنجليزية ، المتوقد الذهن، الألمعيُّ الذكاء – يرقبها عن كثب ، ويدرس شخصيتها بعناية فائقة ، ويعرف نواحي القوة ونواحي الضعف فيها ؛ فبهرته قدرتها الفائقة على خداع عشاقها ، وبراعتها في اختراع الأكاذيب . و لاحظ – بعيون ضابط المخابرات الفاحصة الناقدة – لهفتها على الحياة ، وتهالكها على العبِّ من مادياتها ، وانبهارها بالحياة الأرستقراطية ، وتطلعها – الذي لا حدَّ له – للاندماج في تلك الطبقة العليا من المجتمع الألمانيّ . رأى فيها صيداً ثميناً ، يمكن استغلاله والانتفاع به في تحقيق أغراضه ، بحيث تصبح مصدراً ذا قيمة في الحصول على المعلومات المطلوبة في حرب الجاسوسية ، أو كما يطلقون عليها بتعبير مهذّب « حرب المعلومات » وذلك عن طريق عشاقها من كبار الشخصيات الألمانية الذين يرتمون تحت أقدامها .

وجاءت الصدفة المخططة لتلعب دورها ، وتؤدي مهمتها ؛ ففي ذات أمسية من أمسيات الآحاد ، وقد أرخى الليل سدوله ، وتراكمت السحب ، فازداد الجو قتامة – جمعت هذه الصدفة المدبرة بين إلسي و كناريس على مائدة واحدة في أحد البارات ، حيث أكلا السجق ، وشربا البيرة ، والتهما بنهم عدة أطباق شهية . ثم أكلا طعاماً متعدد الأصناف ، وتبادلا النكات والضحكات . وكان كل منهما ينظر إلى الآخر ، وفي رأسه أفكار وخواطر مغايرة لما في رأس صاحبه تماماً . وبسرعة تآلفا ، وتوطدت العلاقة بينهما ، ثم توثقت عراها . ومع نمو العلاقة ، وتوطد الصداقة وسطوع بريق المادة الذي لا تستطيع إلسي أن تقاومه في هذا الجو المفعم بالمال والحب عرض عليها كناريس القيام بعمل يدر عليها أرباحاً طائلة ، فأوهمها أن له أصدقاء يحتاجون إلى شيء تستطيع هي أن تقدمه لهم في يسر وبساطة . وهم مستعدون لأن يدفعوا لها ثمن ما تقدمه في سخاء . وهذا الثمن يتفاوت من عمل إلى عمل آخر حسب أهمية كل عمل . ولم تتردد إلسي في الاستجابة لطلبه لقاء عشرة آلاف مارك ألمانيٍّ كل شهر ، وهو مبلغ كبير من المال في تلك الأيام .

ومنذ تلك اللحظة بدأت إلسي شولتز مسيرتها التجسسية ، غير مبالية بما قد يكلفها هذا الطريق المحفوف بالمخاطر .

ولم يكن لديها – في بادئ الأمر – فكرة واضحة عن الدوافع التي تدفع كناريس والبواعث التي تكمن وراء عمله ، ولا عن اليد التي توجهه ، ولا لمصلحة من تقوم بهذا العمل . ولكنها اعتقدت

أنها تعمل من أجل الحلفاء ، ثم عرفت - فيما بعد - أنها تعمل لصالح المخابرات الإنجليزية . وبنفس الرغبة والعزيمة اللتين كانتا لديها في ممارسة أغرب عمل في التاريخ وهو « الهوى » ،كان إقدامها على ممارسة العمل التالي له في الغرابة وهو « التجسس » . ومصدر الغرابة في كليهما أنهما يمارسان في سرية تامة .

ولذلك كانت سريعة الاستيعاب لما قام كناريس بتلقينها إياه من دروس ، في كوخه الصغير ، ذلك الذي كان يستأجره بالقرب من « بايلبرج » . فقد وعت - في فترة وجيزة - أساليب الحصول على المعلومات من خلال الأحاديث والأسئلة الذكية غير المباشرة ، وكيفية تصوير الوثائق والمستندات باستخدام آلة تصوير دقيقة الحجم مخبأة في ولاعة السجاير ، وكيفية الاتصال به . ثم تبينت عملها الذي يتركز في إغواء كبار الشخصيات والمسئولين الألمان أصحاب الوظائف الهامة ، واستدراجهم للحصول منهم على المعلومات ، وتصوير ما قد يكون لديهم من وثائق ومستندات .

ومن ثم أصبح عملها الأول وسيلة إلى عملها الثاني ، فاستخدمت العلاقات العاطفية والجنسية ؛ لكي تحل عقدة الألسنة التي يعقلها أصحابها في حياتهم العادية . وحينما تستخدم العلاقات الجنسية سلاحاً في الجاسوسية بوساطة امرأة فإنها تكون أسرع مضاء ، وأشد فتكاً مما لو كان يستخدمها الرجل . فمع كل قوة « شمشون » ودهائه كان يتهاوى ويضعف حينما تضمه « دليلة » إلى صدرها وتهمس في أذنيه بكلماتها المعسولة . وعندما اطمأن إليها فتح لها

قلبه ، وباح لها بسرّ قوته ، وكان هلاكه في إفشائه سرّه .

ونشرت إلسي شباك غوايتها . وتساقطت الضحايا .كان أولى ضحاياها « الكولونيل كارل كريجر » مساعد مدير إدارة التطورات للمعدات الحربية الألمانية . وهو كهل مراهق ، وشت نبرات صوته ، ونمت زفرات صدره ، عما يحس به من حسرة على شبابه ، حينما وقعت عيناه عليها لأول مرة . واقتادته إلسي بسحر فنونها ، وراحت تصب له في كأسه ، على حين لا تذوق كأسها ، بل تلقي بما فيها في زهرية إلى جوارها . ثمل الكهل المراهق ، وانتشى بما أعطته إلسي ، في حين استطاعت هي أن تصور ما يحمله في حقيبة أوراقه من وثائق ومستندات بالغة الخطورة .

وكان ثاني ضحاياها أحد كبار الأثرياء ، الذين يعملون في إنتاج الطائرات ، وهو « رودلف هنشك » . وقد توطدت صداقتهما ، واكتسبت بعداً عميقاً ، وأصبح الرجل كالخاتم في أصبعها ، تديره كيف تشاء ، وأضحت أسراره كلها بين يديها . ومرة دعاها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في قصره الريفيّ . وهناك دار الشريط الموسيقيُّ حتى بلغ مقطوعة السيف من أوبرا سيجفريد للموسيقيّ العبقريّ « ريتشارد فاغنر » . وانتشيا بالموسيقى وهما يأكلان شرائح اللحم ، ويشربان النبيذ المعتق . ثم جلس الرجل في مقعد وثير يحدق بعينين جائعتين جشعتين في جسد إلسي وهي أمام المرآة تصفف شعرها وتمعن في إغرائه وإغوائه . ثم تسللت على أطراف أصابعها إلى غرفة مكتبه ، على حين هو يغط في نوم عميق ، والتقطت صوراً

لبعض الرسومات والوثائق الخاصة بإحدى قاذفات القنابل الجديدة .

وكان ثالث ضحاياها « الجنرال ڤون فارست » قائد جيش « البانزر» الخامس ، والذي كان أسهل صيد صادفته في أثناء عملها التجسسيّ ؛ ذلك أنه لم يكن يطيق أن يرى كأس خمر فارغة ، وكان يعب منها عبًّا بغير حدود . وصحبته إلسي إلى مسكن خاصٍّ به ، حيث كانا يقضيان الليالي في أحضان الخطيئة . وكانت تسكره بخمره ، وتثمله بفنون سحرها الحسية ، التي كانت لها القدرة على ابتكارها وتنويعها ؛ وذلك حتى لا يمل ولا يشبع . وكانت – مع ذلك – حريصة على ألا تسرف في تناول الخمر فتمزجها بالكثير من الماء وقطع الثلج ، حتى تظل متيقظة لما تريد .

وكانت المعلومات التي حصلت عليها منه تمثل أحدث التنظيمات لجيش « البانزر » ، مما كان له تأثير خطير في عملية غزو « نورماندي » في أثناء الحرب العالمية الثانية .

وتكاثر عدد الضحايا ، وتوالى سقوطهم .

ومن الغريب العجيب حقًّا أن كل الذين اتصلت بهم ، و وثقت علاقاتها معهم ، لم يشعر أحد منهم بأنها تمثل خطراً عليه ، أو تغرر به ، أو تنصب شركًا له ، أو أنّها تسلّلت إلى مخدعه ليس حبًّا فيه ، ولكن لأهداف أخرى . إذ يبدو أن أنوثتها الطاغية ، وما منحت من رشاقة وجاذبية – كان يعمي بصائر وأبصار من تعلقت بهم أسبابها ، فأتاح لها ذلك أن تؤدي مهمتها على أكمل وجه ،

وأن تحصل على سيل من المعلومات عظيمة الفائدة . وكانت كلما أبدت مزيداً من العمل والنشاط أغدق عليها كناريس المنح والمكافآت ، فانتقلت إلى طبقة اجتماعية ، لا تمت إليها بصلة ، ولكنها بذكائها وبمهارتها انسجمت وتكيفت معها في سرعة فائقة، وأخذت تحيا الحياة المترفة الناعمة التي كثيرًا ما تحرقت شوقًا إليها . واكتنزت المجوهرات الثمينة التي طالما حلمت بها ، وارتدت الثياب الغالية الأنيقة التي طالما اشتهت تلمسها ، وبدت رائعة الأنوثة ، وأكثر جمالاً وفتنة مما مضى .

ولكن شيطان الطموح عاد يصرخ في أعماقها ، فهي لم تعد قانعة بما أخذت ، ولم تعد قانعة بما وصلت إليه ، بل تحس في أعماقها أنها ما زالت دون ما كانت ترغب فيه ، وتسعى إليه . وفي غمرة هذه الرغبة العارمة في تحقيق كل مطامحها في أقصر وقت ، شطح بها الخيال ، وأطلقت لأطماعها العنان ، فهدّدت كناريس بإبلاغ « الجستابو الألماني » عنه ، والقيام بالكشف عن شخصيته ، وطبيعة عمله – إن لم يدفع لها ما يعادل مئة وعشرين ألف دولار أمريكيٍّ في الشهر ، ثمناً لما تزوده به من معلومات .

وكان في هذا نهايتها ؛ فقد تسارع إيقاع الأحداث تسارعاً مذهلاً ، حيث أعطاها كناريس بعض المال ، و وعدها بتلبية ما طلبت ، و لكنه عزم على عدم الاستعانة بها ، فقد أصبحت غير موثوق بها . وقبل أن تضع تهديدها موضع التنفيذ كتب هو رسالة ذكر فيها بعض الأعمال التي قامت بها ، مدعومة بالتواريخ وشيء

من التفصيل . وقبل أن يبعث الرسالة تذكر شيئاً - كان لا بد له أن يتذكره - حيث وضع مع ما كتب ورقة مكتوبة بخط يدها ، فيها بعض المعلومات التي حصلت عليها ، ثم وقَّع الرسالة باسم مجهول، و وضعها في ظرف ، وعنونها : رئيس الجستابو الألماني - شارع الأمير ألبريشت ، برلين .

وذهبت السّكرة ، وجاءت الفكرة - كما يقولون - فقد وضعت رئاسة « الجستابو » هذا البلاغ الذي وصلها موضع البحث والتدقيق فهي - كأي جهاز مخابرات - لا تُسلِّم بما يصلها من بلاغات تسليماً مطلقاً ، ولا تهمله كذلك ، وإنما تأخذه مأخذ الجد وتعمل على تحريه وتقصّي أمره . فكم من أمور يظنها البعض عادية هينة يسيرة ، ولكنَّها تشكل عند هذه الأجهزة شيئاً ذا بال ، وقد تقود خيوطها إلى نسيج بالغ الخطورة . وهكذا كانت هذه الرسالة ، فقد استغرقت تحريات « الجستابو » بشأنها ثلاثة أشهر ، أمسكوا فيها بعدد من الخيوط ، فوضعوا خطتهم للإيقاع بإلسي . وعندما ثبتت لديهم خيانتها ، وتعززت أدلة إدانتها ، ألقوا القبض عليها ، وبعد لحظات كان باب الإدارة الرئيسية لأمن الرايخ في البناية الثالثة بشارع الأمير ألبريشت ببرلين قد أغلق وراءها ، و فُتح محضر التحقيق :

« اسمك ؟ »

« إلسي شولتز . »

« هل تعلمين لماذا أنت هنا ؟ »

« لا ، فقد أكون قد تفوهت بكلمات غبية كانت السبب في وجودي هنا . »

« لا ، يا آنستي المحترمة ، هذا خطأ . إنك معتقلة بسبب خيانة الدولة .. الخيانة العظمى . »

« خيانة الدولة ؟ الخيانة العظمى؟ لا شك أن في الأمر خطأ . »

« لحظة من فضلك ، وسنرى ما إذا كان هناك خطأ أو لا . »

وبعد عشرين دقيقة دخل غرفة التحقيق رجل ممتلئ الجسم ، متين البنيان ، وحشيٌّ الملامح ، يحمل حافظة أوراق مكتظة ، ثم سأل في صوت قوي : « هل الآنسة إلسي هنا ؟ »

« نعم ، يا سيدي ، إنها تجلس هناك . »

التفت الرجل إلى إلسي وابتسامة باهتة تعلو وجهه ، ثم قال : « إنني سعيد بلقاء خائنة حقيقية . »

« سيدي ، لقد سمعتُ هذا الاتهام من قبل ، ويمكنني تأكيد أنني لم أرتكب عملاً مخالفاً للقانون ، ولا تصرفت تصرفًا غير مشروع . لقد تعودت أن يكون سلوكي دائما في نطاق الحق والقانون . وأعتقد أن هناك خطأ ما ، وهذا شيء مثير حقًّا . وأخشى ، يا سيدي ، أن يكون هناك خلط بيني وبين امرأة أخرى . »

« متى بدأتِ ؟ »

« بدأتِ ؟ بدأت ماذا ؟ »

« الخيانة . »

« الخيانة ؟ أية خيانة ؟ »

« لماذا فعلتِ ما فعلته ؟ »

« فعلتُ ؟ لم أفعل شيئًا . »

« عزيزتي إلسي ، لا أود أن أصعب لك الأمور ؛ كما أرجو ألا أتّبع معك الأسلوب الذي يشقُّ عليك . أنتِ تصرفت وكأنه لا يوجد في البلاد شيء اسمه « الجستابو » ، لذلك أرجو أن تقصّي عليَّ كافة الملابسات ، وسوف أحاول أن أستخرج منها ما يعاونك . »

كاد قلبها يكف عن النبض ، وأخذت الأشياء تتراقص أمام ناظريها . ولكنها سيطرت على أعصابها ، والتزمت الصمت المطبق ، وهي تستمع إلى كلام المحقق ، بيد أن سؤالاً حائرًا كان يشغلها : ماذا يعلم عنها هذا الرجل الذي يتحدث إليها في مودة ولطف ؟ وهل هناك فرصة لمراوغته والإفلات من قبضته ؟

ومن ثم قالت ، والقلق يرتسم على وجهها ، والعرق يتصبب من جبينها : « سيدي المحقق ، لا أستطيع إلا أن أكرر أنني لا أدري ما المبرر لهذه الإجراءات التي تُتَّخذ معي ، وإني لأعجب أشد العجب لهذه الاتهامات . »

ناولها الرجل ورقة ، وأخذ يقرأ ما ينطبع على وجهها من

انفعالات . وأمسكت إلسي الورقة ، وألقت نظرة عليها ، فكادت تصاب بالإغماء . ثم برزت في مخيلتها ذكريات ذلك المساء ، حينما كان كناريس يستوضح بعض ما في هذه الورقة من معلومات. وتملكتها الحيرة ، كيف وصلت هذه الورقة إلى هنا ؟ وظلت مستغرقة في ذكرياتها وحيرتها ، حتى ارتفع صوت المحقق :

« والآن ، يا آنستي إلسي ، ما رأيك ؟ »

« أنا لا أفهم شيئاً ، ولا علم لي بشيء مما تتحدث عنه هذه الورقة . »

« إذا كنتِ حقًّا لم تفهمي ، فسأقول لك : خطٌّ من هذا ؟ »

وفي تردد الخائفة واضطرابها أجابت : « لا أعرف . إنه على كل حال ليس خطي . »

وبنظراته الحادة الفاحصة تأملها ، وبهدوءكأنه يتحدث عن موضوع عابر قال : « السيدكناريس . إنك تعرفينه ، متى كان في برلين آخر مرة ؟ »

« إنني أسمع هذا الاسم لأول مرة . »

« يمكن أن تكوني قد عرفْتِه باسم آخر . وعلى كل حال أنا أعني رجل المخابرات الإنجليزية . متى رأيتِه آخر مرة ؟ »

« إنني لا أعرفه ، ولم أره قط . »

« هل تريدين إيهامي ببراءتك ؟ »

« هذه حقيقة . »

« إنه شيء مثير للعجب والدهشة ، يا آنسة إلسي ، ويجب عليَّ أن أساعدك على التذكُّر . »

وكان دفاعها أشد ما يكون ضعفاً وتهافتاً ، وكان تبريرها أكثر ما يكون غرابة وإضحاكاً . فعندما سئلت عن مصدر ما لديها من ثروة ، قالت إنها ثمن الحب والوصال ، ثم أردفت ، بأنها تأمل من رجال « الجستابو » وقد حباهم الله العلم ، وآتاهم الحكمة ، أن ينظروا إلى القضية بعين العدل والإنصاف ، وألا ينساقوا وراء الشكوك والشبهات . وأنكرت إنكاراً قاطعاً أن تكون قد حصلت على معلومات سرية وأنها سلمتها لأحد ، وحاولت – ما وسعتها المحاولة– أن تقنع مستجوبيها بعقم شكوكهم . ثم جاهدت في أن تجعل العملية كلها توريطاً أكثر منها تورُّطاً . وتعللت – دون حياء ، وفي كثير من الدعاية المنطقية – بأنها كانت تعمل ضد النازية ، وليس ضد ألمانيا .

ثم عادت تؤكد أنها لم تخطئ ، ولم تخن وطنها ، وأنَّ كل ما فعلته أسيءَ فهمه ، وكل ما نسب إليها لم يصدر عنها ؛ فهي –كما زعمت – الألمانية الأصيلة التي تنبض عروقها بحب الوطن ، والتي تملك مشاعر وطنية جارفة ، و التي لا تتردد في التضحية بحياتها من أجل بلادها .

ثم تراجعت عن ذلك كله ، وراحت تنكر كل شيء وتصر على

الإنكار ، وتنفي وتؤكد النفي . لكنها في النهاية لم يكن أمامها من سبيل سوى أن تجيب عن كل الأسئلة إجابة حقيقية ، في إسهاب ودقة بالغين . وتدفقت الذكريات من رأسها ، و تسللت على لسانها كالشلال . وكانت إجاباتها صحيحة غير متباينة . واعترفت وندمت – حين لا يجدي الندم – بأن طموحها – بغض النظر عن وسائل تحقيقه – هو الذي دفعها إلى التورط في خيانة وطنها ، ودمرها .

وعُرض على القضاء أمرها ، وفصل في قضيتها ، وقضى بإعدامها .

وكما تقول التقارير الرسمية فإن حياة إلسي شولتز بدأت بالتمرد والسخط على ما حولها ومن حولها ، وبالطموح الذي ليس له ما يبرره ؛ فأسفرت عن نهاية بشعة شائنة ، من شأنها أن تؤذي الضمائر الحيَّة ، والقلوب الأبية . وكان ذلك في تمام الساعة السادسة والدقيقة السادسة والثلاثين صباحاً ، عن عمر يبلغ سبعة وعشرين عاماً .

الخطأ القاتل

الوسائل ثلاث .

والأماكن ثلاثة .

والإجراءات ثلاثة .

فالوصول إلى أية دولة في العالم لا يتأتى إلا بوسيلة مواصلات ، هي واحدة من ثلاث : الطائرة أو السيارة أو الباخرة .

والدخول إلى أية دولة يكون عن طريق مكان من ثلاثة : الميناء الجويّ ، أو الميناء البحريّ ، أو عند نقطة حدود برية .

والإجراءات التي تتخذ عند الدخول تقوم بها أجهزة ثلاثة ، هي : الجوازات والجمارك والحجر الصحي .

هذا هو ما تعارفت عليه الدول ، وما ألفه الناس . ولكن عالم الجاسوسية عالم غريب ، يموج بالأسرار والألغاز والعجائب . فالمنظمة السوفييتية للتجسس ابتدعت لأحد عملائها وسيلة مواصلات غير ما ألفه الناس ، ومكان دخول مخالفاً ، وبدون إجراءات . فقد استطاعت هذه المنظمة أن ترسل إلى المملكة المتحدة رجلاً غريباً ،

كانت وسيلة وصوله إليها غريبة ، وطريقة دخوله إلى أراضيها أغرب، وأسلوب حياته فيها أشد غرابة .

وأكبر الظن أن هذه القصة المثيرة تستأهل أن نسوقها إليك – عزيزي القارئ – في شيء غير قليل من التفصيل ، فقد كانت سابقة لا نظير لها في هذا العالم العجيب الغريب ، عالم الجاسوسية .

ففي ليلة باردة حالكة السواد من ليالي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٣ أبحرت غواصة سوفييتية ، حتى بلغت المياه الإقليمية الإنجليزية ، فأخذت تصعد رويداً إلى السطح ، وظلت تقترب – في يقظة وحذر – من الساحل الإنجليزيّ ، حتى أصبحت على بعد ميل وخمس الميل البحريّ من الساحل ، دون أن يستطيع أحد اكتشافها ؛ لأنها كانت لا ترتفع كثيرا فوق سطح الماء ، بحيث تتعذر رؤيتها طافية فوق الأمواج في تلك الليلة الشديدة الظلام .

وفي هذه اللحظة التفت رجل المخابرات الروسيُّ إلي شاب كان يقف إلى جواره فوق ظهر الغواصة ، وقال له باللغة الروسية :

« إن شبابك وماضيك وتدريبك يمكن أن يجعلك عظيم الفائدة، كما أنك تتقن اللغة الإنجليزية إتقاناً بالغاً . وعلى أيٍّ فإن واجبنا الأول – أعني واجبك و واجبي – يتركز في تحقيق النجاح لمهمتنا بما يخدم المصالح العليا لبلادنا . إنك رجل صغير الشأن في جهاز

المخابرات السوفييتيّ في الوقت الحاضر ، ولكن لا تنس أن الصغار يتحولون – أحياناً – إلى رجال ذوي شأن كبير . »

و تابع رجل المخابرات حديثه :

« هذه المهمة – في الواقع – ليست مهمة بالغة العسر ، لكن هناك بعض الأمور التي يجب أن تضعها في حسبانك : أولها أننا لن نستطيع التحكم فيما يحدث فور خروجك من الغواصة ، وثانيها أنه يتعين عليك أن تعيش وتعمل كأيّ مواطن إنجليزيٍّ في الوقت الذي تؤدي فيه مهمتك الأساسية تأدية تامة . ولا أقول لك : إن هذا العمل يخلو من المخاطر ، بل أوجه نظرك إلى الخطر العظيم الذي تعرض له نفسك ؛ فإذا قبض عليك فالموت لامحالة نصيبك ، وعليك أن تعتمد على نفسك لا على أي شخص آخر ؛ لأننا في حالة القبض عليك لايجوز لنا أن ندافع عنك ، ولن نحاول ذلك . ومع ذلك فإنّي أؤكد لك أن الجهاز يقف وراءك بكل إمكاناته ، ويوفر لك فرصة النجاح بكل قوته . وعندما تعود إلى روسيا فلن تكون في حاجة إلى التفكير في أي شيء طوال ما بقي لك من العمر . لكن هناك شيئاً هو أهم من ذلك كله ، هو أنك ستظل تشعر بالفخر ؛ لأنك أخلصت في خدمة بلدك ، وصنعت شيئاً يعطي حياتك معنى عظيماً . »

وتوقف رجل المخابرات عن الحديث ، في حينَ لزم الشاب الصمت ، ثم استأنف الرجل الأول الحديث فقال :

« والآن أصْغ إليَّ جيداً ، ربما تكون هذه آخر مرة نلتقي فيها . إنه لا بد لك من تنفيذ التعليمات طبقاً للخُطة الموضوعة بكل دقة . إن أي خطأ – مهما بدا لك صغيراً – سيلحق أفدح الأضرار بالمصالح العليا للاتحاد السوفييتي ، وعليك أن تنصهر انصهاراً كاملاً في بوتقة المجتمع الإنجليزيّ ، وأن تلتزم التزاماً تامًّا بكل ما يقوله ويفعله البريطانيون . وفي الوقت المناسب سنوافيك بالمهام المحددة . وهي مهام واجبة التنفيذ على المدى الطويل ، ولن يطلب منك تنفيذها في الحال . عليك بالتريث والتمهل في كل شيء ، وإياك والتسرع . هل وعيتَ ما قلتُ ؟ »

وأومأ الشاب – الذي كان يصغي بانتباه – برأسه علامة الإيجاب وقال : « فهمت تماماً . »

ابتسم رجل المخابرات ابتسامة ودٍّ ، وأمسك بيد الشاب مصافحاً ، وقال له : « آمل لك كل النجاح في حياتك الجديدة ، وأرجو لك كل التوفيق في مهمتك . وداعاً أيها الرفيق . »

وما إن وافت الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين بتوقيت « جرينتش » وقرر قائد الغواصة أن كل شيء قد أصبح معدًّا، وأنه لا خطر يوجد على الساحل ؛ حتى قفز الشاب في الماء، يسبح – تحت ستار الظلام – في مياه بلغت حدًّا أقصى من البرودة؛ يقطع المسافة بين الغواصة والساحل .

كان الشاب يرتدي ملابس صوفية سميكة ، تحت حلة من حلل

الضفادع البشرية التي لا ينفذ منها الماء ، و يحمل معه ملابس ذات طابع إنجليزي ، و حقيبة أوراق صغيرة بها كل أوراقه « الشرعية » ، وكتاب شفرة دقيق الحجم ، لا يتجاوز حجمه حجم علبة الكبريت ، وجهازاً لاسلكيًا صغيراً يعمل على ترددات عالية في حقيبة جلدية داخل أسطوانة صغيرة ممتلئة بهواء مضغوط تمنع تسرب المياه .

وصل الرجل وأسطوانته إلى الساحل الإنجليزي تحت مراقبة ضابط المخابرات السوفييتي ، الذي كان يقف على سطح الغواصة ؛ ليشرف على إتمام العملية ، ويتأكد من دقة تنفيذها . ثم خلع الرجل ثياب الضفادع البشرية ، والثياب الصوفية ، وأخرج الحقيبة الجلدية من الأسطوانة المعدنية ، وارتدى الملابس الإنجليزية . ولما اطمأن إلى أن أحداً لم يره أعطى إشارة تعني أن كل شيء على ما يرام . عندئذ سحبت الغواصة إليها بحبل رفيع كل تلك الأدوات ؛ كي تخفي كل المعالم ، وغيرت اتجاهها صوب البحر المفتوح ، حيث غاصت إلى الأعماق ، واختفت تحت سطح الماء بعد أن أدت واجبها .

بدأ الرجل رحلته داخل وطنه الجديد وفقاً للخطة المرسومة . ومن هذه اللحظة أصبح هذا الرجل الغريب عميلاً خاصًا للمخابرات السوفييتية في المملكة المتحدة .

ولم يكن هذا الغريب سوى « بوريسوڤيتش زاجورسكي » ، الذي ولد عام ١٩٢١ في الاتحاد السوفييتي . كان شاباً طويل القامة ،

وسيم الوجه ، متناسق التقاطيع ، يبدو أصغر سنًّا من حقيقته . وكانت شخصيته قروية بسيطة ، يتميز بطاقة جبارة ، وقدرة خارقة على الإفلات من المخاطر في يسر ولين . ويتمتع بذاكرة حافظة لاقطة، وصبر يدنو من صبر أيوب - أشهر الصابرين في تاريخ الإنسانية - وهدوء أعصاب في أشد الأوقات حرجًا ، وحذر شديد مع جرأة في التصرف . وكان والده لا يكف عن التحدث إليه - منذ نعومة أظفاره - عن الشيوعية ، ولا يدخر جهداً في غرس مبادئها وأفكارها في نفسه ، فنشأ ملتزماً بالماركسية اللينينية .

وكان طبيعيًّا أن يعرف جهاز الـ «كي . جي . بي » كل شاردة و واردة عن بوريسوفيتش زاجورسكي ، فقد وضعه تحت تحريات مكثفة دقيقة ؛ فلم تكشف هذه التحريات عن شيء يشينه ، بل أكدت أنه طالب شيوعي مثاليّ موهوب ، ينتظره مستقبل مشرق مرموق ؛ فانتهى رأي الجهاز فيه أنه يصلح أن يكون عميلاً لديهم ، و وضعته لجنة الاختبار في عداد اللائقين للتدريب الخاص ، ثم وقع عليه الاختيار ليكون عميلاً سوفييتيًّا في إنجلترا .

التحق بوريسوفيتش بمدرسة الجاسوسية السوفييتية « جاتزينا » في عام ١٩٣٩ ، حيث تلقى دراسة مطولة ، وتدريباً مكثفاً ، استغرق عدة سنوات . وكان موضوع الدراسة الرئيسي هو : نظرية التجسس وكيفية تطبيقها ، إلى جوار بعض دراسات فنية كاستخدام الشفرة والحبر السريّ والتصوير العاديّ والتصوير بالميكروفيلم ، حيث يختصر حجم صفحة مكتوبة إلى حجم نقطة على بطاقة بريد أو رسالة ،

واستخدام الأجهزة اللاسلكية بتردداتها المختلفة ، والتدريب على قوة الملاحظة ، ودقة المراقبة ، والقدرة على تحليل السلوك واستكناه أغوار الشخصية . ثم دراسة المملكة المتحدة من حيث : تاريخها وجغرافيتها وسياستها ، والأعراف السائدة فيها ، والتقاليد والعادات التي يحرص أهلها عليها ، وطريقة التكيف مع هذا المجتمع الذي اختير للعيش فيه . ولا شك في أنه أولى اهتماماً خاصاً باللغة الإنجليزية حتى أتقنها إتقاناً بارعاً ، وأصبح يتحدث بها كالبريطانيين سواء بسواء ، ويعرف تعبيراتهم الدارجة ، ولكناتهم المختلفة .

ثم كانت المرحلة التالية من دراسته عملية خالصة ، تركزت على خلق كيان له ، يمكّنه من أن يقف على قدميه في إنجلترا ؛ فاخترعت له قصة حياة كاملة ، تعيّن عليه أن يتمثلها تمثُّلاً واعياً ، وأن يتقمصها تقمصاً بصيراً ، وأن يعايشها معايشة تامة ، وأن يجعل منها الماضي الحقيقي له ، الذي يغطي كل ما فعله طوال السنوات الماضية من عمره .

ومن ثم فقد أصبح بوريسوڤيتش – منذ الآن – مواطناً إنجليزياً من « وينجهام » ، يدعى : الدكتور « جيوفري نوبل » ، متخذاً ساتراً هو تخرجه في كلية الطب ، ونزوحه إلى لندن بعد حصوله على الدكتوراة للقيام بأبحاث ودراسات .

ولقد كان لذكائه المتوقد أثره الذي لا ينكر في قدرته على استيعاب وتمثُّل كل ما تعلمه ، وإتقان كل ما تدرب عليه ، واجتيازه

امتحانات عسيرة أبلغ العسر وأشده ، استغرقت تسعة أيام كاملة ، وشملت كل شيء تلقاه ، حتى إن بعض الأسئلة كان خارج نطاق ما تعلمه ؛ مما جعله يظن أحياناً أنهم لا يريدون له اجتياز الامتحان . ولكنه تفوق فيها ، وكان من بين الطلبة العشرة الأوائل في المدرسة ، وغدا مهيئاً بدنيًا وذهنيًا وعلميًا لتنفيذ المهمات السرية التي تناط به ، وبدْء حياته العملية جاسوساً سوفييتيًا في لندن .

قضى الدكتور جيوفري نوبل الثمانية والأربعين ساعة التي تلت وصوله إلى الساحل الإنجليزيّ يتجول في الشوارع ويركب الحافلات العامة ؛ كي يستيقن من أن أحداً لا يقتفي أثره ، ثم وصل إلى « ميدلزبون » دون أن يعوقه شيء . وبعد الساعة التاسعة من مساء اليوم الثالث لوصوله إنجلترا راح يتمشى في هذه المدينة ، ويشاهد أسواقها وميادينها ، حتى قادته قدماه – وكأنما حدث ذلك من غير قصد – إلى ممر تحت أحد جسورها ، واقترب – بحذر شديد، وحرص بالغ – من عارضة معدنية وجد عليها علبة مغناطيسية ملتصقة بها ، فالتقطها بخفة وسرعة ، وأودعها جيبه ، حتى بلغ فندقه ، ففتحها و وجد فيها رسالة شفرية تقول له :

« تهانينا بسلامة الوصول . استمر في حذرك . لا تتعجل الحوادث . أطيب التمنيات ، الرئيس .»

ومن « ميدلزبون » اتجه الدكتور نوبل إلى « إدنبرة » ، حيث مكث فيها يومين ؛ ليتأكد من أن أحداً لا يتعقبه . وتوقفت خطاه

على الطريق في «كاريل» وغيرها من المدن الإنجليزية قبل أن يستقر به المقام في لندن العاصمة .

وكما هي الحال مع الجواسيس الذين يقيمون إقامة غير قانونية في بلاد أجنبية ؛ زودته رئاسته باعتمادات مالية كافية . لكنه آثر الإقامة في «بمليكو» ، حيث استأجر شقة صغيرة في بناية متعددة الطوابق، بحيث تنسجم حاله مع ما يدعيه من أنه يقوم بأبحاث ودراسات طبية؛ وحتى لا يثير الانتباه إليه لو عاش حياة ناعمة ، خاصة وأن الأطباء حديثي التخرج لا تتوفر لهم الإمكانات المادية – عادة – التي تتيح لهم الكثير من الإنفاق .

عاش الدكتور نوبل في هذا المسكن صامتاً هادئًا ، يخرج ويدخل كالطيف لا يكاد يحس به أحد ، ولم يصدر عنه أيٌّ سلوك من شأنه أن يؤذي مشاعر الآخرين . واستطاع – بذلك – أن يحيط نفسه بهالة من البراءة واللطف ، فلم يُبد أحد من البريطانيين ارتياباً في أمره ، أو شكًّا في بريطانيته . الأمر الذي جعله يوقن بأنه سينجح في مهمته بعد أن كان يظن أنه قد ينجح .

لقد كان الهدف الأسمى الذي يسيطر على نفس الدكتور نوبل ، ويستولي على جوانحه ، هو أن ينجح في مهمته ، مهما بذل في سبيل هذا النجاح من تضحيات ؛ فهو عميل قد نذر حياته كاملة لهذا الهدف . وكانت خطوات التنفيذ التي يرى أنها تبلغه هدفه واضحة في ذهنه أشد الوضوح ، وكانت تتلخص في خمس نقاط :

- وصول الرسائل إليه في أمن ودون تأخير .
- البحث عن مكان آمن يلتقي فيه وعملاءه .
- تجنيد هؤلاء العملاء لتكوين شبكة التجسس .
- إرسال المعلومات ، وتلبية احتياجات رئاسته .
- تغيير مسكنه كل بضعة أشهر ؛ كي يتعرف على مختلف قطاعات المدينة وضواحيها .

ويبدو أن الظروف قد وقفت إلى جانبه ، فساقته إلى مقهى صغير بالقرب من ميدان « بيكادللي » المشهور في لندن ، وهناك شاهد لوحة فنية بارعة رسمتها ريشة الإله ، لها قوام ملفوف ، و قدٌ متناسق ولفتة رشيقة ، وأنوثة طاغية . إذا ابتسمت فإنما تبتسم بشفتيها وعينيها وكل جوارحها ، وإذا ضحكت فإن ضحكتها تأسر القلوب ، وتسبي العقول ، و إذا تحدثت فإن صوتها يعلن به الحب عن نفسه . اسمها « سوزان » . تعمل سكرتيرة في إحدى شركات الإعلان ، وتقيم منفردة في شقة صغيرة بالقرب من « الماربل آرش » في وسط العاصمة .

ومنذ الوهلة الأولى راح الدكتور نوبل يركز عليها اهتمامه ، ويوليها عنايته ، ويتيح لها الشعور بالأمن والأمان في هذه العلاقة التي بدأها معها ؛ فقد كانت هذه الفتاة فرصته التي وضعتها الظروف بين يديه وعليه أن يغتنمها ، فخطط لكي تكون « صندوق بريده » ؛

ذلك أنها إنجليزية خالصة ، فلا يحتمل أن يتطرق إليها شك ، أو تحيط بها شبهة . كما أنها - بطبيعة عملها - يمكن أن تتلقى رسائل كثيرة من جهات متعددة ، ومن بلاد مختلفة دون إثارة أية ريبة . وأقبلت سوزان عليه ، وانتفع الدكتور نوبل باهتمامها به ، وبذل كل جهده لتتحول هذه الصداقة إلى قصة غرام ، تتوثق عراها ، وتتوطد دعائمها . وكثيراً ما كانا يحلمان بحياة واحدة في مستقبل زاه سعيد . وبعد فترة من الزمن عرض عليها - وهو في أبلغ الحرج - أن يتخذ عنوانها عنواناً لمراسلاته ؛ فهو يتلقى رسائل ونشرات علمية طبية من بلاد مختلفة كفرنسا وسويسرا والدانمرك وغيرها ، ويخشى أن تضيع هذه الرسائل في بنايته المزدحمة السكان ، أو يتأخر تسليمها إليه . أما وهما يتقابلان يوميًا فسيضمن سرعة وصول بريده ، ويطمئن إلى تسلمه ، ولم يكن في حاجة إلى أن يكمل ما يريد قوله؛ فقد أسرعت بتلبية طلبه ؛ لأنها لا ترى أي عائق يمنع ذلك . أظهرت ذلك بمنتهى حسن النية وطيبة القلب . وظل الدكتور نوبل حتى آخر أيام عمله في المملكة المتحدة ، يتلقى التعليمات والاحتياجات التي تبعث بها منظمة التجسس السوفييتي داخل رسائل عادية المظهر، أو في نشرات علمية حقيقية ، ومجلات طبية ، وبطاقات مصورة ، وتحت طوابع البريد الملصقة . كل ذلك كان يأتيه من دول غرب أوربا على عنوان منزل سوزان التي كانت - دون أن تدري - صندوقًا لبريد عميل سوفييتي يعمل ضد بلادها .

وما إن فرغ الدكتور نوبل من تأمين صندوق بريده ، حتى بدأ

فكره ينشط في تدبير المكان الملائم للقاءاته ، وكأنما كانت الظروف معه على موعد . فكما ساقت إليه صندوق بريد ممتازاً على غير انتظار ، كذلك أعانته في تدبير المكان ، فقد كان يبتاع صندوق ورنيش ذات مرة ، فالتقى وبائع أحذية يمتلك محلًا صغيراً لإصلاح الأحذية ، وكان هذا الرجل في حاجة ماسة إلى المال ؛ فحركة العمل ضعيفة ، وما يدرُّه المحل من دَخْل لا يكفي ضروراته ؛ ولذا كان مستعدًا غاية الاستعداد ليقوم بأية خدمة مقابل منحه بعض المال . وكثر تردد الدكتور نوبل على المحل لشراء بعض احتياجاته، أو لإجراء بعض الإصلاحات في أحذيته . وكان كثير الحديث مع الرجل ، يستشف منه أحواله ، ويتعرف بعمق على ظروفه ، ويحلل من خلال الأسئلة – التي تبدو عادية – شخصية الرجل . حتى إذا ما اطمأن عقله إليه ، فاتحه في أن يتخذ من المحل مكانًا يلتقي فيه و زملاءه من الدارسين والباحثين مقابل أن يمنحه مائة جنيه إسترليني كل شهر ، وذلك من قبيل الرغبة الصادقة المخلصة في العطف على الرجل ، والعمل على تقديم العون له . كما أنه يرغب في مساعدة نفسه حيث لا يستطيع استئجار مكتب في وسط المدينة ، يلتقي فيه وزملاءه الدارسين والباحثين . وكانت حاجة الرجل إلى المال تحول بينه وبين أيِّ اعتراض ، بل تدفعه دفعًا قويًا عنيفاً – لا يستطيع له مقاومة ولا عليه امتناعاً – إلى الموافقة والترحيب ؛ فقد هبطت عليه نعمة من السماء ، لم يكن يتوقعها . وساق إليه القدر هذا الرجل النبيل لينقذه من آلامه ؛ و وافق الرجل بمنتهى حسن

النية .

وهكذا وجد نوبل مكاناً آمناً لعقد لقاءاته ، دون أن يثير في حركته شكًّا أو ارتياباً ، دون أن يدري صاحب المحَلّ أنه يعاون في ارتكاب جرائم ضد بلاده ، يقوم بها جاسوس سوفييتي محترف ، يتخذ محله مقرًّا لممارسة نشاطه .

بعد أن اطمأن نوبل على صندوق بريده الآمن ، ومكان لقاءاته الآمن كذلك ، بدأ في تنفيذ مهمته ، وهي تكوين شبكة التجسس السوفييتية في لندن ، فاستطاع – في مهارة واقتدار – أن يجند طائفة من العملاء : فيهم الموظفون الرسميون الذين يتاح لهم الوصول إلى الوثائق والمعلومات في يسر ولين ، وفيهم الشخصيات التي تلقى تقديراً واحتراماً من المجتمع ؛ فلا يتطرق الشك إليها ، ولا تثير الريبة حولها ، وفيهم الأفراد ، الذين يحترفون العمالة وبيع المعلومات لمن يدفع الثمن .

وتوسّع نشاط الشبكة ، وكثر أفرادها ، وتنوعت مصادرها ، واستطاع نوبل من خلالها أن يزود « موسكو » بالكثير من المعلومات القيمة ، والأسرار الثمينة . وكانت عمليات التجنيد في الشبكة تتم في رَيْث وأناة ، وبقدر كبير من المكر و الدهاء ، وبكثير من الحيطة والحرص . تبدأ الخُطة – بعد تحديد الفريسة – بعمل ترجمة حياة لها ، تشمل تاريخ الأسرة ، والحالة الاجتماعية ، والمستوى التعليميّ والثقافيّ ، والوظائف التي شغلتها ، والأعمال

التي مارستها . ثم يأتي - بعد ذلك - تحليل دقيق للاتجاهات والميول والسلوك ، والوضع المالي ، والعادات في الشراب ، والرغبات الجنسية ، والمذهب السياسي ، ورأيها في الاتحاد السوفييتي . كذلك لا بد من تحديد الهدف من التجنيد : هل هو مجرد التأثير على آرائه ، وتعديلها إلى ما يستفيد منه الاتحاد السوفييتي ، أم تجنيده للعمل المباشر في الشبكة ؟ وفي ضوء تحديد الهدف تتحدَّد الإجراءات التي ينبغي أن تُتخذ في التنفيذ . وتتضمن هذه الإجراءات - بكل دقة - المصادر الفنية ، والعملاء الذين سوف يقومون بها ، والدور الذي يتعين علىَ كل منهم أن يلعبه . ويختلف عدد هؤلاء العملاء باختلاف شخصية الفريسة ، فقد يتعامل مع شخصية واحدة عدد من العملاء بطرق مختلفة ، يحاول واحد منهم أن يكتسب صداقتها ومودتها بأن يُسدي إليها خدمات خاصة . ويحاول عميل ثان أن يصل إلى هذه الشخصية المراد تجنيدها عن طريق الزوجة ، في حين يحاول ثالث إغراءه بالإنفاق في بذخ وإسراف حتى يفلس ، ويصبح في حاجة إلى المال ؛ وحينئذ تسهل رشوته . وفي هذه الأثناء سيتولّى الباقون نصب شباك الشهوات الجنسية التي يجب أن تقع فيها الفريسة ، ثم اصطناع الخوف من التشهير بها وافتضاح أمرها .

وعند نقطة معينة يجد الشخص المراد تجنيده - يجد نفسه وقد حطم القانون ، وتورط في علاقات سرية غير مشروعة . وكان مقياس النجاح عند الدكتور نوبل أن يذعن الشخص بمحض إرادته ، ويبدأ

من تلقاء نفسه في تقديم معلومات يعرف أنها موجهة إلى دولة أجنبية ؛ حينئذ يغدو سهلاً أن يُطلب منه ، وأن يُطالب – بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة – بتقديم معلومات سرية لدولة أجنبية .

وكان الدكتور نوبل لا يبخل على عملائه ؛ فهو يكافئهم على ما يؤدونه من عمل ، سواء أ كانوا يعرفون بالضبط ماذا يصنعون ، ولمصلحة من يصنعون ، أم كانوا لا يعرفون . ولكنه – في الوقت نفسه – لم يكن يغدق عليهم العطاء . كما كان يوجه لهم اللوم والتوبيخ عندما يرى إهمالا أو تقصيراً أو انحرافاً في التنفيذ . ولكنه لم يكن يطيل ذلك ، أو يتشدد فيه ، إنما هو رجل يضع كل شيء في موضعه ، ويُشعر كل واحد بأنه قريب منه ، معني بأمره ، مهتم بطموحه ، صادق في تقديم العون له ؛ ولذلك أعجب به كثيراً كل من عرفه أو جمعته الأيام به . ولكنهم – ولا شك – كانوا سيزدادون به إعجاباً لو عرفوا حقيقته .

وتمضي الأيام متلاحقة ، والنجاح يحالف الجاسوس السوفييتي بصورة باهرة ، وشطارته في مهمته تزداد تألقاً ولمعاناً . ولكن « لا يقع إلا الشاطر » كما يقولون ، والشاطر – هنا – هو الدكتور نوبل نفسه ، فقد تحول عنه الحظ ، وتخلّى عنه النجاح ؛ ليسقط في أيدي رجال مقاومة التجسس في بريطانيا . وذلك حينما دُعي خمسة رجال من أهم ضباط مقاومة الجاسوسية البريطانيين إلى مكتب كبار المسئولين في جهاز ال « سي. آي . سي . » و وزع عليهم تقرير ومجموعة من الصور المرسومة باليد . وراح هؤلاء الخمسة يفحصون

الصور وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ، واستبد الانزعاج بنفوسهم ، ثم تملكتهم نوبة غضب صارخ ، وغيظ محنق ، شأن من يشعر أن أحداً خانه ، أو استغفله .

كان مضمون التقرير الذى اطلع عليه هؤلاء الضباط مُروِّعاً ومفزعاً ؛ إذ كان يكشف عن دخول أحد العملاء الروس بلادهم بصورة غير مشروعة ، بل إن دخوله كان من غير الأماكن المخصصة لذلك ، ودون اتخاذ الإجراءات المفروض اتباعها . وكانت مجموعة الصور توضح ملامحه ، وتجلو قسماته ، الأمر الذي لا يدع سبيلاً إلى التشكيك في صحة هذه المعلومات ودقتها .

واكتسب الموضوع أعلى درجة من الأهمية ، وبدأ البحث عن رجل يدعى نوبل في بريطانيا ، وكان ذلك أمراً مثيراً غريباً ؛ فهو بمثابة البحث عن رجل يدعى « علياً » في القاهرة . ولكن رجال المخابرات لا يعرفون اليأس ، ولا يملّون التحري والدأب فيه ، وقد تعوّدوا الأعمال المضنية ، والتكليف بالأمور الجسام ؛ فهذه طبيعة عملهم . ومن ثم وصلوا بعد مجهودات شاقة إلى المنزل الذي يقطنه الدكتور نوبل ، وأعانتهم الأوصاف الجسمية التي يعرفونها ، والصور التي يحملونها على أنه الرجل الذي عنه يبحثون .

وفي منتصف إحدى الليالي فتح الدكتور نوبل باب شقته ؛ الذي كان يغلقه بالمفتاح ، ولم يكن يدري ماذا تخبئ له الأقدار . لقد كانت الشقة تسبح في ظلام دامس ، ولكن ما إن فتح الباب ودلف

إلى داخل الشقة حتى انطلق في وجهه ضوء مبهر من مصباح كاشف ، ورأى رجلاً يشهر في وجهه مسدساً ، وسمع صوتاً يقول له: « أرجو المعذرة ، فقد سمحت لنفسي بالدخول قبل أن تأذن . ها أنت ذا أيها الرفيق . إننا في انتظارك أكثر من أي شخص آخر . »

ولكن الدكتور نوبل كان ممثلاً قديراً ، فراح يبتسم وهو يقول للرجل : « وما السبب في ذلك ؟ »

و في هدوء تام أجاب الرجل : « يا صديقي ، هذا السبب تعرفه أنت ، وأعرفه أنا ، وتعرفه المخابرات السوفييتية . »

سأل الدكتور نوبل بهدوء أشد ، وهو يتصنع الدهشة ويدعي الاستغراب : « ماذا تعني ؟ »

وارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة باهتة ، ثم قال : « إنك تقول إنك رجل إنجليزيٌّ ، عشت في « وينغهام » . حسناً ! إن الأمر لا يعنيني ؛ فهذه شئونك الخاصة . وما دمت تود التظاهر بأنك إنجليزي فأنت حر في ذلك . ولكن لن تجد أحداً يصدقك بعد الآن . أرجو ألا أكون قد آذيت مشاعرك . »

وفي ثبات واتزان حاول الدكتور نوبل أن يواجه الموقف ، فقال : « إنني لا أفهم ما تقول . »

وانطلقت من فم الرجل ضحكة باردة ، وهو يقول : « إنك ترى أنك رجل إنجليزي ، ولكني أود أن أعرف : هل أنت كذلك؟ لا بد

أن تقول الحقيقة . »

واشتد تركيز الدكتور نوبل على التثبت بقصة حياته الوهمية ، فقال : « نعم ، بكل تأكيد . »

وفي لهجة آمرة حاسمة قال الرجل ، وهو يشير إلى غرفة النوم : « حسنا ، تقدم إلى هذه الغرفة . » وما إن ولجها نوبل ، حتى أصدر إليه الرجل أمراً بخلع ملابسه ، فسأل نوبل محتجاً : « ولكن لماذا ؟ »

« من واجبنا أن نحافظ عليك ، وأن نتأكد من أنك لا تحمل شيئاً تؤذي به نفسك . »

وخلع نوبل ثيابه ، و وقف وسط الحجرة ، على حين أخذ أحد الرجال يتفحصه بيديه ، اللتين كانتا مغطاتين بقفاز من المطاط ، وراح رجلان آخران يفتشان المسكن تفتيشاً دقيقاً ، ويفحصان ثيابه وحافظة نقوده فحصاً عميقاً .

قال له الرجل المتحدث ساخراً : « فكر بعقلك . لقد حان وقت الصراحة في الحديث . إن كل الدلائل تثبت أنك عميل سوفييتي ، موجه إلى هنا للقيام بأعمال التجسس ، وقد عرفنا ذلك ، كما عرفنا دخولك إلى بلادنا بطريق غير مشروع . ومن الآن لن تتلقى أوامرك من الروس . بل ستتلقاها مني أنا . »

وكان تفتيش أثاث منزله وحقائبه ومذكراته يعلن أنهم لم يعثروا

على شيء . ولكن رجلاً منهم تمتد يده إلى كتاب موضوع فوق إحدى المناضد في غرفة النوم ، ويدقق فيه ، وإذا بها المفاجأة القاتلة ، أو القشة التي قصمت ظهر البعير ، كما يقال .

وإذا كانت زلة العالِم بألف زلة فإن غلطة الشاطر كذلك بألف غلطة ، فمن السخرية المريرة أنه على الرغم مما حققه الدكتور نوبل من نجاح باهر في مهمته ، وأن الروس كانوا يعدونه عميلاً له قيمة استثنائية ، فإنه قد ارتكب خطأ جسيماً ، وتغاضى عن المبادئ الأساسية في مهنته ؛ إذ يبدو أنه لم يخطر على باله ، ولم يدر بخلده قط أمر اكتشافه . وليس مفهوماً سر غبائه في هذا الموضوع ، خاصة وأنه لم يكن غبيًّا في الموضوعات الأخرى . لقد كان هذا الخطأ الذي وقع فيه غريباً ومستغرباً في الوقت ذاته ، بل لا يتصور أن يكون صاحبه قد تعلّم ألف باء الجاسوسية .

لقد احتفظ الدكتور نوبل – على خلاف ما يجب – بأربعة جوازات سفر بريطانية مختلفة صالحة للاستخدام ، وهي جوازات حقيقية صادرة عن سلطات بريطانية . وكانت هذه الجوازات الأربعة تحمل صور وأسماء الدكتور نوبل و موريس و وود وسلوين . وكان نوبل في واحد منها كثيف الشعر ، وفي الثاني أصلع الرأس تماماً ، وفي الثالث يضع نظارة على عينيه ، وفي الرابع يرسل لحيته وشاربه .

من الطبيعي أن العقاب المتوقع للدكتور نوبل هو الإعدام ، فآثر

نوبل أن ينفذه في نفسه ؛ فقبل أن يتم استجوابه . وبعد اثنتي عشرة ساعة من اعتقاله وجد منتحراً بوساطة دبوس صغير يحتوي على مادة سامة ، كان يخفيه تحت ثيابه ملاصقاً لجسمه ، والعجيب أن رجال المخابرات الذين فحصوا جسده - ولا شك أنهم كانوا يتوقعون ذلك - لم يفطنوا إلى وجود هذا الدبوس ، الذي ما إن لمس جسده حتى فارق الحياة .

وهكذا استطاع الدكتور نوبل بشكَّة دبوس أن يدفن عملياته وأسراره كلها معه . وترك من خلفه جهاز المخابرات البريطانية يتخبط في استنتاجاته . غير أن السؤال الحائر الذي يتمتع بكثير من الأهمية هو : كيف نجح في إخفاء هذا الدبوس السام ؟

وطوال الأسابيع التي تلت انتحاره كان جيرانه ومعارفه وعملاؤه يتساءلون في حيرة ودهشة عما وقع له . وظن بعضهم أنه قضى نحبه ضحية حادث ، وظن غيرهم أنه ربما كان على قيد الحياة يرقد في أحد المستشفيات ، وظن آخرون أنه ربما التفَّت حوله بعض المتاعب العائلية فأخذته - على غير انتظار - إلى مسقط رأسه « وينغهام » . ولكن آخرين وقفوا متحيرين يقولون : إنه لسر غامض .

ولقد كان هذا السر أكثر غموضاً ، وأشد إبهاماً وتعمية ، مما يمكن أن يتوقعه أي مواطن في إنجلترا كلها ؛ فلم يكن يدور بخلد أحد أن الدكتور نوبل المختفي هو أخطر عميل سوفييتيٍّ ، استطاعت منظمة التجسس السوفييتي أن تزرعه في المملكة المتحدة ، وأن

هذا الدكتور الإنجليزي جيوفري نوبل ليس إلا الرفيق السوفييتي بوريسوفيتش زاجورسكي .

مات الدكتور نوبل ، أو بتعبير أدق الرفيق بوريسوفيتش ، وخلّف وراءه أسئلة كثيرة معلقة تحتاج إلى جواب :

ما الذي قدمه الدكتور نوبل للروس من معلومات وأسرار بالضبط ؟

ولم يكن هناك من يمتلك الجواب اليقيني القاطع على هذا التساؤل غير المخابرات السوفييتية ، والدكتور نوبل نفسه .

كيف عرفت المخابرات الإنجليزية أمر نوبل؟ كيف تعرفت عليه ؟ كيف استطاعت الوصول إليه ؟

إن أحداً خارج الـ « سي . آي . سي . » لا يتأتى له التحقق من الإجابة على ذلك . ويبدو – أيضاً – أن الـ « كي . جي . بي » لم تفلح بعد في العثور على جواب لها . ولكن أحد كبار المسئولين في الجهاز علق على ذلك بقوله :

« إنه عمل عظيم رائع . لا أملك إلا أن أقول الحقيقة .»

شهوة المال

قبل الهجوم المفاجئ الذي شنَّه اليابانيون على « بيرل هاربور » كان الملحق البحرِيُّ الأمريكيُّ في العاصمة اليابانية « طوكيو » قد أبلغ حكومته بأنه لا يتوقع من اليابانيين هجوماً قريباً ؛ لأن أعداداً كبيرة من بحّارة الأسطول اليابانيّ يجوبون شوارع طوكيو ، مما يدل على أن الأسطول لا يزال راسياً في قاعدته الرئيسية في « يوكو سوكا » . واقتنع الأمريكيون كل الاقتناع بهذه المعلومات لمطابقتها معلومات أخرى ، حصلوا عليها من بعض مصادرهم الموثوق بها .

وتصرَّفَ الأمريكيون وفقاً لهذه المعلومات التي وثقوا بها ؛ فكانت العاقبة وخيمة ؛ فالبحارة الذين يجوبون شوارع « طوكيو » لم يكونوا بحارة حقًّا ، وإنما كانوا جنوداً عاديين ، ارتدوا ملابس البحارة ؛ ليعملوا على تضليل العيون الأمريكية ، ويخفوا رحيل الأسطول اليابانيِّ لتأدية مهمته الخطيرة .

وبلغ من ثقة الأمريكيين بما لديهم من معلومات أن القائد العام للأسطول الأمريكيِّ في المحيط الهادي « هاربنو كيمبل » طرح سؤالاً يقول :

« ما مدى احتمالات هجوم مفاجئ على «« بيرل هاربور »» ؟ »

وجاءه رد قائد عملياته « شارل ماك موريس » قاطعاً : « لا احتمال . »

وبينما كانت هذه الثّقة التّامّة تسيطر على الأمريكيين ، وتملأ نفوسهم ، كان الأسطول اليابانيّ يشقّ طريقه في البحر إلى « بيرل هاربور » في هدوء وحذر . إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة . فما إن طلع صباح اليوم السابع من ديسمبر ١٩٤١حتى كانت المفاجأة الهائلة ، التي لم تكن تخطر على بال أحد في واشنطون و بيرل هاربور على حدّ سواء .

كان اليوم يوم أحد ، وكان الجو ينبئ بأنه سيكون لطيفاً منعشاً ، مما يدعو الكثيرين للقيام برحلات ترفيهية ، تحفل بالبهجة والمرح ، في هذا الميناء القريب من « هونولولو » عاصمة « هاواي » ، الذي كان معظم سكانه لم يفق بعد من سهرة يوم السبت .

في هذا اليوم – حيث لم يبق على الموعد المحدد لبدء الهجوم غير ربع الساعة – تقدّم « فوكيدا » قائد قوات الهجوم من الأدميرال اليابانيّ «كويشي ناجومو » في مقرّ قيادته على حاملة الطائرات اليابانية « ألاجي » ؛ ليقول له بلهجة من يخطو في طريق يعرف كلّ شبر فيه معرفة دقيقة واعية :

« سيدي ، إنّي على أتمّ استعداد للقيام بالمهمّة . »

أجابه الأدميرال ، وهو يشدُّ على يده : « وأنا واثق بك كلَّ الثقة .»

وحينما بلغت الساعة السادسة ودقيقة واحدة كانت الموجة الأولى من الطائرات اليابانية ، التي بلغ مجموعها ١٨٣ طائرة ، و التي كانت تشبه نقاطاً صغيرة قاتمة في السماء - كانت هذه الطائرات تقذف حممها على ميناء « بيرل هاربور » . وفي لحظات حاسمة انتهت الغارة اليابانية على الميناء ، التي استخدم فيها اليابانيون ٣٥٣ طائرة ، و قد تركته حطاماً تشتعل فيه النيران ، و تشيع الفوضى بين جنباته ، و يتخبّط الأحياء من رجاله في دماء القتلى والجرحى ، ويتعثّرون في أشلائهم ، ويسيطر عليهم الذهول ، ويسود سلوكهم الاضطراب والارتباك .

بعد انسحاب الطائرات المغيرة أمكنَ عملُ تقديرٍ أوّليٌّ للخسائر ؛ فكانت ثماني بوارج ، وثلاث مدمرات ، وثلاثة زوارق طوربيد ، وعدداً كبيراً من القطع البحرية المساعدة .كلُّ ذلك دُمِّرَ تدميراً تامًّا ، كما تحطَّمت مائة وثمانٍ وثمانون طائرة ، وبلغ عدد القتلى ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين قتيلاً . وأحصى اليابانيون خسائرهم بعد عودتهم ، فإذا هم قد فقدوا تسعًا وعشرين طائرة ، وأقلَّ من مئة رجل ، فعدّوا ذلك نصرًا باهرًا .

وكان من نتيجة ذلك الهجوم المفاجئ أن دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب مع الحلفاء ضدَّ دول المحور واليابان ،

فكان ذلك إيذانًا بالبداية الملتهبة للحرب العالمية الثانية ، وابتداء معارك الشرق الأقصى .

ولا شكَّ أن معركة « بيرل هاربور » قد حظيت بالكثير من ألوان الاهتمام والتحقيق والتساؤل عن الكيفية التي باغت بها اليابانيون الميناء هذه المباغتة ، وعن الدِّقَّة البارعة التي حدد بها اليابانيون مواقع الوحدات البحرية ، وغير ذلك من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات دقيقة مقنعة ، كي ترسم أسباب وخلفيات وملامح العملية كلها .

ولنبتعد قليلاً عن حادثة « بيرل هاربور » ، ولنمعن السَّير إلى مكان آخر بعيد عنها ، علَّنا نجد ضوءاً ينير الطريق إلى تلك الإجابات التي نبحث عنها .

بعد هذا التاريخ وقعت حادثة مثيرة ، تدخل ضمن فصول هذه المأساة ، على الرغم من أن مسرحها كان بعيداً جدًّا عن حدود هذا الميناء . فبعد شهور ستة على حادثة الميناء ، وبالتحديد في تمام الساعة الحادية عشرة و خمس دقائق من صباح يوم الثلاثاء ، السابع عشر من شهر يونيه سنة ألف وتسعمائة واثنتين وأربعين ؛ طرق رجل البريد شقة بائعة لعب الأطفال الآنسة « ماري ولاس » في سبرنغفيلد بولاية أوهايو الأمريكية ، وسلَّمها رسالة كُتِبَتْ على غلافها من الأمام جملتان ، هما : « غير معروفة » « العنوان مجهول » .

وما كادت « ماري » تفضُّ الرسالة ، وتقرأ سطورها المكتوبة بخط

نسائيٌّ ، وأسلوب مبعثر العبارات ، ممتلئ بالأخطاء اللُّغوية ، حتى ارتفع حاجباها ، وانفرجت شفتاها ، وتعاقبت على وجهها تعبيرات متعددة متنوعة : فمن دهشة إلى حيرة إلى قلق . حقًّا لقد كانت الرسالة غريبة جدًّا ، ومحيِّرة جدًّا . وكانت الآنسة « ماري » على حق أيضًا فيما استبدَّ بها من قلق ، وما أصابها من استغراب ، وما استولى عليها من حيرة ؛ فهي لم ترسل أية رسائل إلى أي إنسان ، ومع ذلك فقد كان عنوان الْمُرْسِلِ عنوانها . ومع أنها لم تُوَقِّعْ هذه الرسالة – بل لم تكتبها أصلاً – فقد كان التوقيع الذي ذيلت به سطور الرسالة شديد الشَّبه بتوقيعها ، بل بلغ درجة من التَّشابه لا تكاد تدرك معه الاختلاف إلا عين خبيرة مدرَّبة . كما أن الرسالة مرسلة من « نيويورك » إلى السيدة « إينزلوبيز دي مولينالي » ببيونيس أيريس بالأرجنتين . وماري لم تذهب إلى « نيويورك » منذ فترة طويلة ،كما أنها لم تكتب أية رسالة – طوال حياتها – إلى « بيونس أيريس » ، ولم تعرف أية سيدة هناك .

وعلى الرغم من أن « ماري » لا تفضي بمتاعبها ومشكلاتها لأحد ، وتتكتَّمُ أسرارها داخل صدرها – فإن الرسالة كانت تتضمَّن الحديث عن بعض شئونها العائليَّة ، و أسرارها الشخصية ، مما يدل – دلالة واضحة – على أن كاتبة الرسالة تعرف الكثير عنها .

قرأت « ماري » الرسالة الغريبة المحيِّرة من مبتدئها إلى منتهاها مرات عديدة ، فكانت كلُّ مرة تثير دهشتها أكثر من سابقتها ، وكلما تمعَّنت في الرسالة ازداد تحيُّرها ؛ فالحديث يدور عن لعب

الأطفال ، وهذا أمر لا بأس به ، ولكن العبارات التي تحدثت عن هذه اللعب تثير الشّكّ والريبة ، وتدفع « ماري » إلى اليقين بأنها تنطوي على شر كبير ، وأمر جِدّ خطير .

وبحاسّتها السادسة أدركت أن في الأمر سراً ، وأن هناك شيئاً يكمن بين طيات هذه الرسالة الغريبة المحيرة ؛ فقضى ذلك على ترددها ، وأنهى تحفُّظها ، وجعلها تخطو مسرعة - كما يقتضي الواجب الوطني - إلى إدارة المخابرات الأمريكية .

قرأ رجال المخابرات الأمريكية الرسالة فأثارت في أذهانهم الكثير من الأسئلة ، وأقامت أمام أبصارهم العديد من علامات الاستفهام ، وكلها جديرة بالبحث والتحقيق . وأجمعَ الخبراء في فرع الرقابة البريدية على أنها تخفي بين سطورها معاني غامضة ، توقظ الاهتمام وتضاعف الشّكّ في أنّ لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بأعمال الجاسوسية .

واتّفق رأيهم - بادئ الأمر - على أنّ هذه الرسالة الغامضة قد تكون حاملة لتعليمات أو معلومات سرِّية ، منطلقين من أن هذه الأشياء التي قد تبدو للإنسان العاديّ هامشية صغيرة ، ليست ذات بال - قد تكون لها أهمية بالغة وتلعب دوراً كبيراً في مجال الجاسوسية .

وصدرت التعليمات - كخطوة أولى - بأن تضبط كل رسالة مرسلة إلى الأرجنتين معنونة بأي عنوان ، ما دامت تحمل اسم السيدة

المذكورة ، أو تحمل على ظاهر غلافها اسم « ماري ولاس » . وبدأ خبراء قسم تحليل الشفرة يعيدون قراءة الرسالة مرة تلو مرة ، مدقّقين في كل كلمة من كلماتها ، وكل تعبير من تعبيراتها ، عامدين إلى تحليل هذه الكلمات والتعبيرات ، محاولين استقراء ما بين السطور ، التي كانت تهتم اهتماماً بالغاً بلعب الأطفال .

كانت الرسالة غامضة ، شديدة الغموض ، وكانت المعلومات التي تحتوي عليها خطيرة ، بالغة الخطورة ؛ فقد جاء في جزء منها هذه الكلمات : «... و قد كتبت لي أنك أرسلت خطاباً إلى السيد « شو » ، ومن ثم فقد سعيت إلى لقائه ، وعرفت منه أنه قد وقع له حادث أتلف سيارته ، غير أنه قام بإصلاحها ، وسيعود لعمله قريباً .»

ومن بين احتمالات متعددة تكاد تبلغ العشرين ، خطر للخبراء أن يكون السيد « شو » يعني المدمرة الأمريكية « شو » ، التي أصابها بعض التلف في إحدى المعارك البحرية ، وتمَّ إصلاحها .

وجاء في فقرة أخرى من الرسالة :

« .. سوف يجري كل الإصلاح في دمية مكسورة ذات « جونلة » من الحشائش ، أشبه ما تكون « بجونلات » هاواي ، في الأسبوع الأول من يوليه . »

وفي ضوء الافتراض الأول ، الذي فسَّر الخبراء به الفقرة الأولى فسَّروا هذه الفقرة ، فقد تكون الدمية المكسورة هي الطراد الخفيف « هونولولو » ، الذي سوف يجري إصلاح ما أصابه من تلف في

الأسبوع الأول من شهر يوليه .

وفي مكان آخر من الرسالة قالت الكاتبة :

«.. لقد حصلت من فوري على دمية جميلة ، تمثل راقصة معبد سيامية ، و أنا أحبها كثيرًا ، و لكنني لم أستطع الحصول على رفيق لها ؛ ولذلك فأنا أعيد كساء دمية عادية صغيرة ؛ لتبدو في صورة دمية سيامية أخرى . »

وافترض المحلل الذكيُّ أن كاتبة الرسالة تقصد أن تقول إنها حصلت على معلومات عن حاملة طائرات .كانت قد أصيبت بالطوربيدات ، وتعذَّرَ استبدال غيرها بها فوراً ، ومن ثم يجري الآن تحويل سفينة أخرى ، و إعدادها لتكون حاملة طائرات . أما قولها : « وأنا أحبها كثيرًا » فذلك لتضفي البراءة على الرسالة .

وفي موقع آخر من الرسالة تقول الكاتبة :

«.. ليست لدي في الوقت الحاضر غير ثلاث عرائس جميلة ، أيرلندية الطابع ، تمثل إحداها صياداً شيخاً ، يضع على ظهره الشبكة التي يصطاد بها الأسماك ، وتمثل الثانية عجوزاً طاعنة في السن ، تحمل فوق ظهرها بعض الأخشاب ، أما الثالثة فتمثل طفلاً صغيراً . »

وفسر الخبراء هذه العبارة تفسيراً ذكيًّا بارعًا ، لا يكاد يخطر على بال ، فقد حدسوا أن وصف العَرائس بأنها أيرلندية الطابع إنما يعني

أنّها سفن في طريقها إلى البحر الأيرلنديّ ، وفسروا الشيخ الصياد وشبكته بأنه حاملة طائرات كبيرة ، حولها شبكة مضادة للطائرات ، ورأوا أن العجوز الطاعنة في السن ما هي إلا بارجة كبيرة كثيرة المدافع ، ورجحوا أن يكون الطفل فرقاطة صغيرة .

ولفت نظر الخبراء عبارة تقول :

« .. تَمَّ إعداد عروستين في ثياب اللوردات الإنجليزية ، وعروسة في ثياب زعماء الهنود الحمر ، وعروسة في ثياب نرويجية .. وهذه العرائس من بين سبع وعشرين عروسة في ثياب أيرلندية ، أرسلت من « بوسطن » في الثالث من يونيه الماضي . »

وخطر للخبراء أن تكون الكاتبة تتحدث عن السبع والعشرين سفينة التي أبحرت من « بوسطن » إلى « أيرلندا » في اليوم الثالث من يونيه ١٩٤٢ في حراسة البارجة الأمريكية « الرئيس هارونبرج » ، وكان من بينها سفينتان حربيتان إنجليزيتان ، وسفينة نقل بضائع نرويجية ، هي الباخرة « ليبل » .

وقبل نهاية الرسالة جاءت هذه السطور :

« .. سوف تكون الدمى الإنجليزية المكسورة في ورشة الدمى ، التي تعمل ليلاً ونهاراً ، وسيستغرق الإصلاح بضعة أسابيع . »

وكان تفسير هذه السطور سهلاً هيِّناً ، فالسفن الإنجليزية التابعة للأدميرالية البريطانية سوف تكون تحت الإصلاح لبضعة أسابيع ، في

ورشة الإصلاح التي تعمل ليلاً ونهاراً .

وإذا تجاوزنا كثيراً من التفاصيل التي لا تعنينا الآن فإننا نجد أن ما افترضه المحللون قد تأكدت صحته فرضاً فرضاً ، ولذا فقد انكب المختصون يقارنون بين سطور الرسائل التي تحتفظ بها « ماري دالاس » ، والتي تبادلتها مع هواة الدمى وباعتها ، وسطور هذه الرسالة والرسائل المرتدة التي تم ضبطها ؛ حتى وصلوا إلى أن هناك تشابهاً بين خطوط بعض هذه الرسائل ورسائل قديمة كانت قد أرسلتها سيدة تدعى « فالفالي ويكنسون » ، تسكن في ماديسون مانهاتن بولاية نيويورك الأمريكية .

ولما سئلت « ماري » عن هذه السيدة قالت :

إن « فالفالي » امرأة عجوز شديدة التديُّن ، بيضاء الوجه والشعر والقلب ، لينة الجانب ، حلوة المعشر ، تغلب فيها نوازع الخير نوازع الشر ، لا تكذب ولا تعرف كيف تكذب ، تعيش على هامش المجتمع ، وطموحها محدود جدًّا .. قضت عمرها كله في صناعة الدمى ، ولا يمكن – بحال – أن تكون جاسوسة ، أو لها علاقة – قريبة أو بعيدة – بالجاسوسية .

ولكن كم من المظاهر ما يخدع !

لقد راح رجال مقاومة الجاسوسية المضادة في أمريكا – وهم رجال لا يغترّون بالمظهر ، ولا ينخدعون به – راحوا يبحثون تاريخ السيدة العجوز « فالفالي » وينقِّبون في ماضيها ، ويتحرَّون عن

سلوكها ، ويدرسون - في عناية فائقة - مشوار حياتها ، ويتعرفون نقاط الضعف في شخصيتها ، ويحللون كل نقطة تحليلاً دقيقاً . وهالهم ما وجدوه : فالسيدة « فالفالي » ولدت لأبوين ألمانيين ، ثم اتخذت الجنسية الأمريكية ، وقد تقدَّمَ بها العمر ، ولكن ملامح جمال الصبا ما زالت تبدو على محياها ، تتميز ببساطة عفوية محببة إلى النفوس ، ولكنها تحب المال حبًّا جمًّا ، وتعشقه عشقاً عنيفاً .

وهي ترتبط بصداقة متينة مع رجلين أمريكيين من أصل ألمانيٌ مثلها ، هما : « أرنست ليهمتز » و« هاري سبرينر » ، يعملان في جزيرة « ستانس » في مدخل ميناء نيويورك ، وعملهما هذا ييسر لهما البقاء - دون إثارة للشبهات - عيناً ساهرة على السفن التي تدخل الميناء أو تخرج منه ، كما يتيح لهما الحصول على المعلومات المبكرة الصحيحة عن تحركات السفن . ومن المعروف - كما يقول خبراء الجاسوسية - أن الجاسوس يجب أن يقترب بصفة دائمة من الهدف الذي يرصده .

إلى جانب هذه الصداقة الوطيدة التي تربطها بالرجلين الأمريكيين فهي لا تكفُّ عن التردُّد على النّادي اليابانيِّ في مدينة « نيويورك » ، كما أنها كانت موجودة في كل البلاد والأماكن التي بعثت منها الرسائل المرتدة المضبوطة .

كما أنها تملك أموالاً كثيرة ، وتنفق في شيء من البذخ ، على الرغم من ضعف الحركة التجارية لبيع الدمى ، وخاصة الأنواع

الغالية الثمن التي تتجر فيها « فالفالي » ، وعلى الرغم من أنها لم ترث عن زوجها شيئاً من المال ذا بال فقد ازدادت ثروتها في الأوقات الأخيرة بصورة مفاجئة ، حيث أودعت في المصرف أربع ورقات من فئة المئة دولار ، وكانت أرقام هذه الأوراق الأمريكية من بين أرقام الأوراق المالية التي صرفت للسفارة اليابانية بواشنطن العاصمة .

كل هذه الاعتبارات قادت رجال مقاومة الجاسوسية إلى الشّكّ العميق في « فالفالي » ، وفي أنها – من وجهة نظر أمنية – تمارس نشاطاً تجسسيًا ، ولكن ما بين أيديهم من شواهد لا ينهض دليلاً قاطعاً في توجيه تهمة خطيرة ضدّها كالخيانة ، كما أن هذه الشواهد التي حصلوا عليها أو استنبطوها بالمنطق العقلي الصارم – لا يقام لها وزن في مجال الدعوى القضائية ، فكان لزاماً عليهم أن يبحثوا عمّا يؤكدها .

أرسلوا إحدى عميلاتهم إلى محلّ « فالفالي » حيث اشترت منها بعض لعب الأطفال ، ثم قامت بكتابة رسالة إليها بشأن هذه اللعب . وأجابتها « فالفالي » برسالة ، أثبت الخبراء أنها كتبت على نفس الآلة الكاتبة ، التي كتبت عليها الرسائل المرتدّة الموجودة في حوزة رجال المخابرات ، وهي ذاتها التي كتبت عليها الرسالة الغامضة التي كانت الخيط الأول في الموضوع كلّه ، بل إنهم أكّدوا تماثل الضغط على الورق أمارة على أن الكاتب شخص واحد . ومن ثم أحكم رجال المخابرات مراقبة « فالفالي » ورصدوا تحركاتها ، لعلهم يلاحظون أموراً أخرى يسترشدون بها ، ويصلون من

ورائها إلى الحقيقة التي يبحثون عنها .

تعقَّبوها في الليل والنهار ، تسمَّعوا مُكالماتها الهاتفية ، قرءوا رسائلها البريدية . باختصار كانوا ظلَّها في كلِّ وقت وفي كلِّ مكان ؛ ليتعرَّفوا على الأماكن التي تتردَّد عليها ، وعلى الأشخاص الذين تلقاهم ، والأغراض التي تهدف إليها من هذه اللقاءات . وفي الوقت ذاته وضعوا نصب أعينهم « ليهمتز » و « سبرينر » ، وتتبَّعوا نشاطهما – كل على حدة – عن كثب ، وفي يقظة وحذر تامَّين .

بعد أن اتَّضحت الأبعاد الكاملة لخيانة هؤلاء الثلاثة ، راحت إدارة مكافحة التَّجسُّس تزن قرارها بميزان حَسّاس ، فأخذت توازن بين المزايا المحتملة والمخاطر المتزايدة ، إذا ظَلّوا يمارسون نشاطهم التَّجسُّسيَّ تحت بصر الإدارة ، وكان القرار هو وضع حدٍّ لهذا النشاط .

وفي إحدى الأمسيات الباردة من شتاء عام ١٩٤٤ ، في اليوم الحادي والعشرين من شهر يناير ، توقَّفت سيارة « كاديلاك » سوداء اللون أمام منزل صغير في « ماديسون » ، على حين كانت هناك سيارة أخرى حمراء اللون من طراز « شيڤروليه » تقف على بعد مناسب من السيارة الأولى، وأحاط أربعة رجال بالمنزل ، وطرقوا الباب الذي يحمل لافتة صغيرة مكتوباً عليها « فالفالي ديكنسون » ، ودخلوا دون أن يؤذن لهم ، حيث اعتقلوا الساكنة الوحيدة في هذا المنزل الصغير . وجدوها في غرفة النوم ، لم تغمض عينيها بعد .

وأخرج أحدهم ورقة من جيبه ، وقرأ إذن الاعتقال :

« السيدة فالفالي ديكنسون ، باسم الحكومة الأمريكية أقبض عليك ؛ لاتهامك بالتجسُّس ضدَّ الولايات المتحدة الأمريكية لحساب المخابرات اليابانية . » وأخذ الرجال يفتِّشون المنزل تفتيشاً دقيقاً ، تناول جميع غرفه ، وشمل كلَّ قطعة أثاث فيه . لكنهم لم يعثروا على شيء يدينها ، فقد كانت لا تكتب تقاريرها ، ولا تحتفظ برسائلها في بيتها ، وإنما كانت تستأجر غرفة في مكان آخر ، تتخذها مقرًّا لكتابة تقاريرها وتحرير رسائلها ، والاحتفاظ بما تودُّ الاحتفاظ به من وثائق وأوراق .

لم تبد « فالفالي » أية مقاومة حين اصطحبها الرجال من منزلها إلى الطريق ، ولكنها ما كادت تبلغ الطَّريق العام حتى أخذت تركلهم بقدميها ما استطاعت ، وتنشب أظافرها في عنق مَنْ قَرُب منها ، وتشدُّ شعر رأس أحدهم ، محاولة الفرار من بين أيديهم . لكنَّهم سرعان ما أحكموا وثاقها ، وقيَّدوا حركتها ، وألقوها في السيارة « الكاديلاك » . وانطلقت السيارات إلى أحد الأماكن الآمنة التابعة للمخابرات الأمريكية ، حيث وُجِّه إليها الاتهام بأنها تعمل لحساب جهاز « الكميتاي » – المخابرات اليابانية . وفي نفس الساعة كانت هناك مجموعتان أخريان من رجال المخابرات تُلقيان القبض على الرجلين : « ليهمتز » و« سبرينر » ، اللذين اعترفا من فورهما بما ارتكبا من جرم في حق الوطن .

أما « فالفالي » فقد أصرت – عند التحقيق معها – على أنها لم ترتكب جرماً ، ولم تقترف خطأ في حق وطنها ، وكل ما وجه إليها من تهم إنما هو ادعاءات باطلة ، عارية عن الصحة ؛ فهي– قَطُّ – لم تكن جاسوسة ، ولا تعرف شيئاً عن الجاسوسية . أما هذه الرسائل فقد كتبتها حقًّا ، ولكن لحساب زوجها الذي كان يرغمها على كتابتها قبل وفاته في عام ١٩٤٣ ، وهي لا تفهم منها شيئاً ، لكنها لا يمكن أن تأتي فعلاً يضرُّ ضرراً قريباً أو بعيداً بالأمن الوطنِيّ .

ولكنَّ عُمْرَ الكذب – كما يقال – قصير ، فسرعان ما ضعفت مقاومتها ، فاعترفت بجريمتها النكراء ، وكانت اعترافاتها صحيحة في أساسها ، وإن احتوت على أخطاء في بعض التفاصيل . قالت لمستجوبيها إن عملاء « الكميتاي » قد اتصلوا بها ، وأغروها بأن تشاركهم في عمليات غير قانونية ، ولكنها تدرُّ أرباحاً هائلة ، وحيث إن حبها للمال يعادل تعصُّبها للمسيحية ، فقد سال لعابها للمال الذي تبحث عنه بشتّى الوسائل ، وتجعله هدف حياتها ، تشقُّ إليه كلَّ طريق صالحة أو غير صالحة ، فغايتها جمع المال الذي تحبه حبًّا جمًّا ، والغاية عندها تبررالوسيلة ، ولم تجد وسيلة أسرع في كسب المال وتنميته من هذه الوسيلة – وسيلة الخيانة ، فانغمست في طريق الخيانة ، وجرفها تياره أملاً في المزيد – المزيد من المال .

تقول أوراق التحقيق : إنَّ « فالفالي » – بالتعاون مع عملاء آخرين للمخابرات اليابانية – مارست نشاطها التجسُّسيَّ بهمَّة لا تفتر ، وعزيمة لا تلين ، في مختلف الموانئ الأمريكية . وبعثت

الكثير من المعلومات المهمة الخطيرة عن مواقع الوحدات البحرية للأسطول الأمريكيّ ، وعن تحركاتها وكفايتها ، وعن قوافل السفن التجارية ، مما أتاح لليابانيين فرصة رصد هذه التحركات ومتابعتها أوّلاً بأول ، كما أتاح لهم الإلمام الكافي بحالة الوحدات البحرية وكفايتها القتالية . بل إنها أرسلت إلى اليابانيين تقريراً فنيًّا دقيقاً دون رصيد علميٍّ كافٍ ؛ فهي لم تكن تفهم معظم محتوياته -كما تقول- إنّما استقته من عمال حوض إصلاح السفن في « بروكلن » حيث كانت تستحثهم على الكلام بتوجيه أسئلة ذكية ماهرة ، يبدو في ظاهرها البراءة وفي باطنها كل الخبث والدهاء . وكانوا - على سجيتهم - يجيبون عليها في إسهاب ، وكانت تمتصُّ هذه المعلومات امتصاصاً أو على حدِّ تعبيرها هي : « كنت كالإسفنج الذي يمتص الماء . »

وتأكَّدَ أنّها بالتعاون مع أعضاء الشّبكة ، وبالإضافة إلى مصادر معلومات يابانية أخرى ؛ كانَتْ وراء المعلومات المبكرة الدقيقة عن النشاط البحريِّ الأمريكيِّ ، التي ساعدت اليابانيين على تخطيط هجومهم المباغت على الأسطول الأمريكيِّ في ميناء « بيرل هاربور » في دقَّة واقتدار ، ومكّنتهم من اعتراض وإغراق وإصابة وحدات الأسطول الأمريكيِّ والقوافل التجارية لدول الحلفاء في البحار والمحيطات الأخرى .

وتبيّن أنها لم تكن تتّصل اتصالاً مباشراً بجهاز « الكميتاي » ، وتبعث بمعلوماتها إليه ، وإنما كانت تعمل في ذكاء ومهارة ،

فتبعث بمعلوماتها إلى عناوين أشخاص يتعاملون مع جهاز المخابرات اليابانيّ بطريقة يطلق عليها في مصطلحات الجاسوسية « صناديق البريد » .

وإذا شئنا الدقة و التحديد ، فإن الأمانة تقتضي منا أن نقول : إن « فالفالي » و « إرنست ليهمتز » و« هاري سبرينر » ليسوا وحدهم الذين سيتحملون عبء المأساة التي نزلت بالأسطول الأمريكيّ في « بيرل هاربور » ؛ وإنما هي بوتقة المعلومات الهائلة الدقيقة التي توفّرت بسخاء بالغ عن وحدات هذا الأسطول ومواقعها ومواعيد وصولها وإبحارها . هذه المعلومات التي جمعها العملاء اليابانيون المنتشرون هنا وهناك هي التي أتاحت لليابانيين تحقيق عنصر المفاجأة.

ولعلّ من أهمّ هؤلاء العملاء عائلة « كوهين » التي قدمت من ألمانيا إلى جزر « هاواي » – تلك الجزر التي تعد أجمل جزر العالم وأشدّها سحراً في النفوس ، والتي اكتشفها الرحالة الإنجليزيّ « جيمس كوك » عام ١٧٧٨ ، وأعلن قبولها عضواً في الولايات المتحدة الأمريكية في نوفمبر عام ١٩٥٨ ، فكانت الولاية الأمريكية الخمسين . انتقلت عائلة « كوهين » من العاصمة « هونولولو » حيث استقرّت في ميناء « بيرل هاربور » . وسرعان ما افتتحت ابنتهم « روث كوهين » صالوناً أنيقاً جذاباً للتجميل ، كان ملتقى زوجات ضباط البحرية الأمريكية .

وكان دور « روث » يتركز في تزويد المخابرات اليابانية

بمعلومات كافية ودقيقة عن أعداد وأنواع الوحدات البحرية الأمريكية ومواقعها وتحركاتها . وقد حقَّق صالونها نجاحاً عظيماً في كل ذلك ، فكان مصدراً مهمًّا للمعلومات عن طريق ثرثرة زوجات الضباط اللاتي كنِ يُفْرِطْنَ في الحديث ، والإدلاء بما سمعن من أزواجهن ، بغير تحرُّز أو احتياط . كما حقق نجاحاً ملحوظاً فيما درَّه من كسب مادي على « روث » وعائلتها .

وحينما كانت قاذفات القنابل اليابانية تقذف حممها على الميناء في صباح ذلك الأحد ، كانت عائلة « كوهين » – الأب والأم والابنة – تقوم بإطلاق إشارات ضوئية متَّفق عليها ، تعلن نجاح قاذفات القنابل أو إخفاقها .

ولكن القصاص كان لهم بالمرصاد ، فقد افتضح أمرهم ، وأُلقي القبض عليهم ، وقُدِّموا للمحاكمة ، حيث حكم على الأب بالإعدام ، ولكنه أنقذ حياته بما أفضى به إلى الأمريكيين من معلومات عن كل ما يعرفه . أما زوجته وابنته « روث » فقد حكم عليهما بالسجن .

ثم قُدِّمَ الثَّلاثة – فالفالي و ليهمتز و سبرينر – إلى المحاكمة ، فإذا « فالفالي » تنكر – في إصرار عنيد – كل ما اعترفت به ، وتنفي نفياً قاطعاً كلَّ ما أدْلَتْ به من تفاصيل ، وتعلن – في تأكيد– أنها لا تعرف شيئاً عن هذا الادِّعاء الذي يزعمون ، وأنها لم ترتكب يوماً ما يمسُّ مصلحة الوطن وأمنه من قريب أو بعيد ، و تُقْسِمُ

على ذلك بأغلظ الأيمان .

لكنَّ إصرارها العنيد على الإنكار لم يُجْدِ فتيلاً ، وأيمانها المُغلَّظة لم تنجها من العقاب ، فأصدرت المحكمة حكمها بسجنها وزميليها عشر سنوات ، وتغريم كل منهم مبلغاً قدره عشرة آلاف دولار أمريكيّ .

وهنا أفلت من « فالفالي » زمامها ، وخانتها رباطة جأشها ، وانهار تماسكها ، فأجهشت بالبكاء الذي يتخلَّله النحيب والنشيج ، وراحت تردِّدُ بغير وعي :

« لماذا فعلت ذلك بحق السماء ؟ .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ »

ثم قالت – في صوت متهدِّج تتخلَّله العبرات :

« صلّوا من أجلي. إنني نادمة على ما فعلت ! لقد كانت غلطة لا ضرورة لها . إنني لم أتحقق إلا الآن من الأضرار التي ألحقتها ببلادي ! لقد أعماني ما ملأ نفسي من طمع في المال . وجشَع إليه . »

وكانت هذه العبارة الأخيرة صحيحة تمامًا .

الدُّبة التي قتلت صاحبها

من الغريب المثير أن يقف هذا الرجل أمام القاضي يدفع عن نفسه التهمة بقوله إنه لم يكسِب إثماً ، ولم يقترف جريمة ، وإنما أحب وطنه ، وأخلص له الحب . لقد رأى وطنه على شفا الهاوية فأسرع ينقذه من التردي فيها . لقد رآه ينساق إلى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل ؛ فسعى جادًّا ليحول بينه وبينها . وإذا كان قد كُتب عليه أن يخوض حرباً فلتكن في سبيل أهداف سامية ، وقضايا تخدم البشرية ، وتوفر لها الأمن والطمأنينة . والأشد غرابة أنه بعد أن أمضى العقوبة التي حكم عليه بها ، خرج يطلب راتبه عن الفترة التي قضاها وراء القضبان ؛ لأنه طُرد من الخدمة بغير سند قانوني .

لكن قمة الغرابة تكمن في الطريقة الذكية التي أمكن بها تجنيد هذا الرجل للعمل في جهاز المخابرات .

لقد بدأت القصة في جهاز المخابرات الألماني ، وانتهت في جهاز المخابرات الإنجليزي ، وكان بطلاها رجلاً وامرأة .

أما المرأة فهي « آنا وولكوف » الروسية الأصل ، الإنجليزية المولد والجنسية . وأبرز ما تتميز به البساطة المحتشمة – البساطة في كل

شيء : في الوجه الهادئ الجمال ، الخالي من المساحيق ، في الملابس الأنيقة ذات الألوان الهادئة ، في الكلمة التي تنساب من بين شفتيها فلا تشعرك أنها خرجت بعد تفكير عميق ، في التعبير بملامح وجهها الرائقة كالطفلة ، في الابتسامة الناعمة التي يحار المرء في فهم معناها . لكنها تتمتع بذكاء وقاد ، وبثقافة واسعة عميقة ، تجيد التحدث في عدد غير قليل من الموضوعات عن بصر وإحاطة . لها صداقات متنوعة متعددة ، وذات صلات اجتماعية واسعة مع الأوساط الراقية .

كانت آنا تؤمن إيماناً عميقاً بأن النازية قامت لصالح الجنس البشري ، وتحقيق رخائه ، وتوفير أمنه وسلامه ، وتُعجب إعجاباً شديداً بالفوهرر « أدولف هتلر » – الزعيم الألماني آنذاك – وترغب رغبة صادقة في التضحية بكل ما تملك من جهد ونفس ومال في سبيل تحقيق رسالته . ودائماً تحتفظ في حقيبة يدها بصورته .

ورآها جهاز المخابرات الألماني فرصة سانحة ؛ فهي لا تحتاج إلى بذل جهد في تجنيدها ؛ إذ هي مجندة من تلقاء نفسها . وإنما كل ما تحتاجه أن توجَّه التوجيه الصحيح ؛ لكي تخدم أهدافها التي تؤمن بها ، وتعين هتلر في تحقيق رسالته ومبادئه التي تعمقت في وِجدانها . ومن ثم قام الجهاز في اللحظة التي رآها مناسبة ، وبطريقته في العمل – قام بتكليفها بمهمة محدودة ، هي الحصول على الرسائل التي تتبادلها الحكومتان الأمريكية والإنجليزية

عن طريق السفارة الأمريكية في لندن ، والتي يقوم على العمل فيها كاتب الشفرة الأمريكي « تيلير كنت » .

وهذا هو البطل الثاني في القصة : تيلير كنت ، أمريكي الأصل والمولد والجنسية . من مواليد عام ١٩١٤ . يتمتع بقامة فارعة ، وجسم رياضي ، وطبع هادئ رزين ، واستقامة شديدة وحس وطني متقد ، لا يسهل إغراؤه ، ويتعذر الإيقاع به . مخلص في عمله كل الإخلاص . نزيه نزاهة لا يتطرق إليها شك . لا يدخن ولا يشرب الخمر .

وكان ينفر من الحرب أشد النفور ، ويكره العنف كل الكراهية ، ويعشق الجمال في كل مظاهر الحياة من حوله ، ويخفق قلبه بقوة وشوق متطلعاً إلى أمل مشرق ، وغد أفضل .

التحق تيلير عام ١٩٣٤ بالعمل في وزارة الخارجية الأمريكية ، حيث عُيِّن موظفاً للشفرة في السفارة الأمريكية بالعاصمة الروسية . ثم نُقل بعد ذلك إلى السفارة الأمريكية في لندن ؛ ليقوم بالعمل نفسه .

وعن طريق المصادفة المخططة التقى تيلير و آنا في إحدى حفلات الاستقبال الرسمية في لندن ، حيث قام أصدقاؤه بتقديمها إليه ، وتعريفها عليه .كان الإعجاب المشترك هو طابع هذا اللقاء الأول بينهما . وتحول هذا الإعجاب إلى صداقة ، ثم إلى صداقة حميمة قوية . بُهر تيلير بآنا . لم يبهره جمالها ؛ فلم يكن جمالا أخّاذاً ،

وإنما بهره ذكاؤها المتوقد ، وأفقها الواسع ، وثقافتها العميقة ، وحديثها اللبق ، ولسانها الذّلق ، وقدرتها الفائقة على الإقناع بما تسوقه من أدلة وبراهين .كما سحرته جاذبيتها وخفة ظلها وطلاقة روحها . لقد بُهر بذكائها ، وسُحر بجاذبيتها ، فإذا هو - بعد وقت قصير - عبد خاضع لذكائها ، وأسير قابع لجاذبيتها .

ونجحت آنا وولكوف في أن تحصل من تيلير على كل ما تريد من رسائل ، نجحت نجاحاً منقطع النظير ، فاق كل توقعات جهاز المخابرات الألماني ، واستطاعت على مدى شهور أربعة أن تبعث إلى رئاسة الجهاز في برلين نسخًا مصورة من كل الرسائل المتبادلة بين الحكومتين الأمريكية والبريطانية عن طريق السفارة الأمريكية في لندن . وكان « وليم جويس » الرجل الذي عُرف طوال الحرب العالمية الثانية باسم « لورد هاوهاو » يذيع بعض هذه المعلومات في الإذاعة النازية الموجهة إلى بريطانيا ؛ أملاً في تثبيط عزائم شعوب دول الحلفاء عامة ، والشعب الإنجليزي خاصة ؛ وسعياً إلى إضعاف الروح المعنوية لدى هذه الشعوب .

ولا يخفى على أحد أن في كل جهاز للمخابرات فرعًا وظيفته التنصُّت والاستماع . وقد استطاع هذا الفرع في جهاز المخابرات الإنجليزية أن يرصد رسالتين موجهتين من العملاء الألمان في بريطانيا إلى رئاستهم في « برلين » ، إحداهما من المجموعة ١٥٧ (مجموعة كودية عددية) والأخرى من المجموعة ٣٢ (مجموعة شفرية) و تتكون كل منهما من خمسة حروف . وعلى الفور نُقلت

الرسالتان إلى قسم تحليل الشفرة والكود التابع للجهاز . وبعد جهود مضنية أمكن حل رموزها . كانت ترجمتها تحتوي على معلومات بالغة الخطورة . ولأن هذه الرسائل شديدة السرية ، لا يعرفها غير عدد لا يتجاوز عدد أصابع اليدين من البريطانيين ، وعدد أقل من الأمريكيين ؛ فقد أثارت معرفتها كثيراً من الذعر والقلق في دوائر الحكومة البريطانية ، وحصرت مصدر تسربها في واحد من اثنين : الأدميرالية البريطانية أو السفارة الأمريكية . أما احتمال سرقتها فغير وارد ، وكل ما يُتصوَّر افتراضه أن يكون أحد من وُكل إليهم أمر حفظها والقيام عليها قد خان هذه الأمانة ، وغدا السؤال الكبير الذي يبحث عن إجابة : من فعل هذا ؟

شمر جهاز المخابرات الإنجليزي عن ساعده ، ونثر كنانته -كما يقولون - وراح يمعن في البحث والتحري عن الفاعل ، فأسفرت تحرياته عن أن الأدميرالية البريطانية لا صلة لها بتسرب هذه المعلومات . ومن ثم حصر شكوكه في السفارة الأمريكية ، فوضع موظفيها تحت المراقبة الدقيقة . كما نشط في مراقبة بعض من يشتبه في نشاطهم . وكان من بين هؤلاء آنا ، فقد كانت تحضر الاجتماعات التي يعقدها الفاشيون في بريطانيا ، وسبق لها أن قامت بِلَصْق بعض المنشورات التي تحض البريطانيين على مقاومة الحرب ، وتسعى إلى تحطيم روحهم المعنوية .

واسترعى انتباه رجال المخابرات في أثناء هذه المراقبة المحكمة أن تيلير موظف الشفرة في السفارة الأمريكية يزور كثيرًا آنا ، وأنهما

يترددان معًا على محل صغير لبيع آلات التصوير وأدواته ، يقع قريبًا من شارع « فيليت » – شارع الصحافة في لندن – يمتلكه مصور ماهر متخصص في أعمال الصحف . وقد اتضح للجهاز أنهما أوكلا لهذا المصوّر – بعد تجنيده – عملية تحميض وطبع الأفلام المشتملة على التقارير البريطانية والرسائل الأمريكية .

لقد تكشّفت للجهاز أبعاد الخيانة ، واتضحت معالمها ، وتجمعت لديه خيوط الحقائق التي تقطع بأن تيلير وراء تسرب المعلومات ، وأن آنا وراء خيانته ، ومن ثم فلم يبق إلا القبض عليهما .

ألقى رجال المخابرات الإنجليزية القبض على آنا ، ثم ذهبوا إلى تيلير .

في الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة من صباح ذلك اليوم – وكان الفجر لايزال بعيداً – استيقظ تيلير مذعوراً ؛ فقد سمع باب شقته يُدفع بقوة وعنف . وكان الظلام يخيم على الشقة ، فراح يتحسس موضع زر مفتاح الكهرباء . لكنه ما كاد يخطو خطوة واحدة حتى غمره الضوء في غرفة نومه ، وألفى نفسه يقف مواجهاً عدداً من الرجال .

ثار تيلير في وجوههم قائلاً: « كيف تقتحمون مسكني الخاص على هذا النحو ؟ »

جاءه صوت أحدهم قاطعاً حاسماً كالسيف : « سيدي ، لقد

وصلتنا معلومات تؤكد أنك جاسوس . »

ثم ابتسم الرجل ابتسامة فاترة ، واستطرد يقول :

« ويؤسفني أن أقول لك : إن لدينا أمراً بالقبض عليك . »

صاح بهم تيلير في غضب عارم : « لقد غاب عن أذهان رؤسائكم أنني رعية أمريكية ، وأنني أتمتع بحصانة دبلوماسية . »

ويختار أحد الرجال الألفاظ بعناية ، ويقول في هدوء وأدب : « سيدي ، ليس لك الحق في التجسس اعتماداً على حصانتك الدبلوماسية . دعني أخبرك أننا طلبنا من سعادة السفير أن يرفع عنك هذه الحصانة فوافق سعادته . »

لم يستسلم تيلير ، وإنما أخذ يصيح في وجوههم ، ويحاول منعهم من القيام بعملهم ، ويتوعدهم بسوء المصير ؛ لاجترائهم عليه ؛ وإهدارهم حرمته وحرمة مسكنه . لكنهم لم يقيموا وزنًا لصياحه ، ولم يعبئوا بوعيده . وسرعان ما أنهوا عملهم في فحص محتويات المسكن . وامتدت يد أحدهم تفحص جسم تيلير من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ثم طلبوا إليه مرافقتهم في هدوء ، ولكنه رفض وقاوم بعنف ، فأمسك أحدهم بذراعيه من الوراء ، و وضع آخر قطعة قطن تحت أنفه ، وقع على أثرها مغشيًا عليه ؛ فقد كانت بها مادة مخدّرة .

وحين بدأ استجوابه في مقر رئاسة هيئة مكافحة الجاسوسية المضادة

في بريطانيا ، وكان السكرتير الثاني للسفارة الأمريكية في لندن حاضراً هذا الاستجواب - استرخى تيلير في مقعده ، ونظر الى المحقق مبتسماً وقال له :

« لا تجهد نفسك ؛ فإن كل سؤال تلقيه لا جواب له عندي غير كلمة واحدة ، هي « لا » ومن ثم فلا حاجة للاستجواب . »

وعلى أثر ذلك عقدت جلسة سرية لمحاكمته وصاحبته ، لم يحضرها غير القاضي والمحلفين والمتهمين والدفاع والحارس . وحاول تيلير أن يدفع عن نفسه التهمة ، وأن يفند الأدلة والبراهين التي جاءت في قائمة الادعاء ، ويشكك في صحتها . ولقد أجاد في استخدام الحجج وسوق المبررات لما فعل ، ولكن القاضي لم يجدها مقنعة لـه ، ولم تستقم لديه ؛ فأصدر حكمه بسجنه سبع سنوات ، وسجن صاحبته آنا خمس عشرة سنة .

لم تنته القضية بعد ، ولم يقفل جهاز المخابرات الإنجليزي ملفَّها ، وإنما راح يبحث ويتقصّى ما استغلق عليه من أمر تيلير ، وهاله ما وجد .

لقد بهرته آنا بعقلها ، وسحرته بجاذبيتها ؛ فألقى زمامه إليها . واستطاعت بقوة منطقها ، وطلاقة لسانها ، وقدرتها الفائقة على التأثير ، أن تستغل نفوره من الحرب و ويلاتها ، وحبه للسلم والأمن ، وعشقه لجمال الحياة ؛ فتسللت إلى عقله وقلبه بخطى محسوبة مدروسة ، وأقنعته بأن وقوف أمريكا خارج الحرب سيتيح لهتلر أن

يقضي على اليهود ، ويخلّص العالم من شرهم ومكرهم ؛ فهم وراء كل ما يعيشه العالم من مشكلات ، ومبعث كل ما يعتري العالم من اضطراب ، وما يشيع فيه من خلل وفساد في جميع الميادين : اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية . لذلك فإن القضاء عليهم تحقيق لأمن العالم وسلامه ، واطمئنانه ورخائه . ولكن بريطانيا تحرض أمريكا على دخول الحرب . والرئيس الأمريكي اليهودي « روزفلت » يدلي بتصريحات تقود أمريكا إلى الحرب والدمار أكثر مما تقودها نحو السلم والرخاء . وهذا يتناقض والأساس الذي قامت عليه الاستراتيجية الأمريكية ، و تيلير باعتباره مواطناً أمريكيًّا محبًّا لوطنه يستطيع أن يجنبها ويلات حرب لا شأن لها بها ، ولا مصلحة لها فيها . وقد يكون لها - إذا هي اكتوت بنارها - أوخم العواقب في ديارها وحياة شعبها .

وطفقت آنا تزحف إلى هدفها في حذر وخفة ، تهيئ لتيلير أن يهوي إلى قاع البئر الذي أعدته له في يسر وبساطة ، ومن ثم أخذت تسهب في الحديث عن الحرب و ويلاتها ، فقالت :

« لعلك توافقني فيما سأقول ، فأنت تعلم - وكل إنسان يعلم - أن الشرائع السماوية والقوانين الطبيعية تحرم قتل الإنسان لأخيه ، والحضارة الإنسانية تعد هذا القتل وصمة في جبين التقدم والتحضر . ولا شك أن الحروب هي المهالك البشرية التي تقدم فيها الأرواح رخيصة على مذابح الأهواء والمطامع والمصالح . ولقد وعى التاريخ أن الإنسان قد ذاق طعم الحرب ، واكتوى بويلاتها على مر القرون ،

فلم يجن من ورائها خيراً ، وما كانت نتائجها إلا الخراب والتدمير للغالب والمغلوب على السواء . وهناك حقيقة إنسانية عبر عنها شاعر سويديٌ ذات مرة بقوله : « إن أعظم صلوات الإنسان لا تطلب النصر ، وإنما تطلب السلام والأمان . »

« وإني لأتساءل – في صدق – عن الأسباب الحقيقية التي جعلت الحرب تلاحق الإنسان منذ هبط أبونا آدم فوق سطح الأرض حتى الآن فلا أكاد أجدها . »

وتصمت آنا لحظة ، ثم تتابع حديثها :

« لعلك تذكر أن الزعيم الهندي العظيم « غاندي » الذي عُرف باسم « المهاتما » أو « الروح العظيم » قد استطاع أن يحقق ثورة كبرى باتباع سياسة عدم العنف . وإنني أميل إلى الاعتقاد بأن الحرب نشاط لا جدوى منه ، ويشهد الذين لم تخنهم الذاكرة أن اشتراككم في الحرب العالمية الأولى كان نتيجة الضغط القوي من الدعاية الأجنبية ، والمصارف الدولية ، وأصحاب المصانع الحربية .

« وكانت نتائجها وبالاً على الشعب الأمريكي ، وباعثة على اليأس وخيبة الأمل . »

واستولى عليها الحماس ، فواصلت كلامها :

« منذ بدء الخليقة والإنسان في صراع دائم من أجل السيطرة

على ما حوله ومن حوله . ولا مفر في الحياة الإنسانية من الاختلاف في وجهات النظر ، سواء في المجال السياسي أو الفكري أو العلمي . وهذا مفيد للإنسانية و تطورها ؛ حتى لا يجمد الجنس البشري ، ويتوقف نموه . ولكن عندما يتمنطق كل طرف في الخلاف بمدفعه ويتقابل مع الطرف الآخر ، وتسيل بينهما أنهار من الدماء ؛ فهذه هي الكراهية التي تحركها نزعات التدمير والتخريب ، والتي يقف وراءها ويبعثها حقد اليهود ورغبتهم في التسلط والسيطرة على العالم كله . »

وانتقل الحديث إلى الجانب الذي لا يؤمن بجدوى الحرب ، فقالت وهي تشعل قداحتها الفضية عدة مرات في الهواء :

« إنني أتساءل لماذا ترغب الولايات المتحدة في أن تحارب في أرض غير أرضها ؟ إن هذا قد يضر بالمصالح الأمريكية ولا يحقق لها فائدة ذات قيمة . ولسنا في حاجة إلى أن نخمن ماذا سيكون الدمار الذي سوف يحيق بالبشرية في مثل هذه الحروب الشاملة . إن أية محاولة للتدخل الخارجي في الحرب تزيد الأمر تعقيداً واضطراباً . ثم دعني أسألك : أ لا يؤدي اشتراك الولايات المتحدة في القتال إلى فتح الباب أمام تعقيدات كثيرة متباينة ؟ »

ثم أبدت آنا تعجبها من احتمال دخول أمريكا الحرب ، فقالت :

« أعتقد أن هناك بعض الزوايا التي تستحق أن نلقي عليها مزيداً من الضوء ، فما يحيرني حقًّا هو أن ألمانيا تبعد عنكم بعداً شاسعاً ،

وهي لم تتعرض للمصالح الأمريكية ، وليست بينها وبينكم مشكلات ؛ فلماذا تعتزمون محاربتها ، وتهيئون النفوس لذلك ؟

« إن ما يتذرع به رئيسكم روزفلت من أنه يتدخل عسكريًا لمنع النازية من تغيير ميزان القوى يبدو وكأنه سخرية بالعقول . إن الحقيقة التي لا جدوى من التهرب منها ، والالتفاف حولها أنه يدفع البلاد إلى أتون الحرب نتيجة اعتبارات سياسية محلية ، وصداقات شخصية ، وارتباطات عنصرية غير موضوعية . وهي – بالطبع – لا تتصل من قريب أو بعيد بالمصالح الأمريكية . »

وعندما تطرق الحديث إلى دور الولايات المتحدة في العالم قالت آنا :

« إن الحقيقة التي لا جدال فيها أن الولايات المتحدة تتحمل مسئولية تاريخية تجاه البشرية كلها ، وأنها بكل قوتها وهيبتها قادرة على دعم السلام كما لا تقدر على ذلك دولة أخرى . ولا شك أن الزّج بها في الحرب سوف يفقدها ذلك ، ويضعها في مأزق حرج ، حيث تتخلى عن المبادئ التي قامت عليها ، والاستراتيجية التي وضعتها ، ومن ثم فعليها أن توقف هذه التصريحات التي تعقّد الأمور ، وتزيدها خطورة ، وتتحمل تبعاتها في إقرار السلام بالدخول في مباحثات ومفاوضات ، تهدف إلى دعم السلام وتسعى إليه في جد والتزام . »

وتتوقف آنا عن الحديث فجأة ، وتسأله :

« هل تعرف من يصوغ سياسة الولايات المتحدة ويقررها ؟ »

نظر إليها مستغرباً ، ثم قال : « نعم ، أعرف . إنه الرئيس روزفلت . »

وعادت آنا تقول في هدوء : « من المسلم به أن للبيت الأبيض استراتيجيته التي تتعلق بها أبصار العالم كله ، وهذا ما يجعل معالجة الموقف مَحَكًّا لكفاية الرئيس روزفلت وحنكته السياسية . ولم يعد سرًّا أن تشرشل – وهو جذر المتاعب كلها في رأيي – يعمل بعزيمة جبارة في سبيل إغراء رئيسكم بدخول الحرب . ويبدو أن تشرشل ينسج خيوطه حول صاحبكم بقوة وإحكام ، فبات قريباً اكتمال خيوط الغواية .

« ولعلك ما زلت تذكر تصريحات رئيسكم التي كان فيها خطيباً متحمساً صائحاً منذراً بالحرب ؛ لأن الشعب الأمريكي لا يتسنى له الوقوف مكتوف الأيدي أمام النازية التي تطحن الأبرياء ، ولا تعرف للرحمة معنى . ولا أشك في أن هناك قراراً في الظل سيعلنه رئيسكم مفاجأة للعالم ، فتصريحاته بقدر ما توحي بذلك بقدر ما تزيد مخاطر الحرب يوماً بعد يوم . »

وتوقفت آنا عن الحديث هنيهة ، وأخذت تدقق في اختيار الألفاظ والمعاني ، ثم قالت :

« أنا لا أريد أن أمْليَ عليك شيئاً من أفكاري ، وإنما أفكر معك بصوت مسموع ، وأدع لك أن تستنبط ما تريد . إنني أعتقد اعتقاداً

جازماً أن « الفوهرر » - تعني هتلر - كان على حق عندما أعلن أن اليهودية الدولية هي سبب كل الكوارث التي تجتاح العالم ، ومبعث كل الشرور التي تموج بها البشرية ، وأنه لا سبيل إلى استقرار العالم وأمنه إلا بالقضاء على اليهود . ولن أكون صريحة بالقدر الكافي إذا لم أشِر إلى أن رئيسكم اليهودي روزفلت داعية - وهذا انطباعي الشخصي - إلى الحرب . ومن يتأمل الظواهر يدرك أن المسألة مسألة وقت حتى ينتهي الإعداد العسكري لبلادكم ، فيجرها صاحبكم إلى الحرب ، زاعماً - كما يقول - أن بلاده مستعدة لعملية عسكرية لا تستهدف شن الحرب ، وإنما تستهدف إقرار السلام .

« ولعلك توافقني في أن من يريد إقرار السلام لا ينحاز لطرف دون طرف ، وإنما يعمل على تقريب وجهات النظر ، وإذابة الفوارق بين الجانبين . »

وتصمت آنا لحظات ، ريثما تشعل لنفسها لفافة تبغ ، ثم تستأنف الحديث ، وكل شيء في وجهها وحركاتها ينبئ بالثورة :

« لا أكتمك القول بأنني لست مستريحة إلى السياسة الأمريكية بقيادة روزفلت منذ بداية الأزمة . ولست بذلك أريد أن أقحم نفسي في شئونكم ، ولا أبيح لها أن تشير عليكم بما ينبغي أو لا ينبغي عمله . والواقع أن إمكانات « واشنطن » في الضغط على « لندن » قوية وعديدة . ولكن ما يحدث هو عكس ذلك تماماً ،

وسيظل هكذا دون احتمال تغيير في المستقبل القريب على الأقل .

« ولن يستطيع أحد إقناعي بأن روزفلت عاجز إلى هذا الحد ، وهذا ما يقوله الكثيرون بألسنة متعددة ، وهذا هو الخطر الذي يجب عليكم أن تحذروه . ولا أظن أن الشعب الأمريكي يمكن أن يبقى هكذا جامداً حيال النكبة التي ستحل ببلاده ، وبالعالم أجمع . »

ويتصل الحديث بينهما ، ويستمر طويلاً . تحاول آنا من خلاله أن تؤكد في ذهن تيلير أن روزفلت شخصية باهتة ، لا ثقة له بنفسه ، و لكيلا يتهم بالخور والضعف يضطر إلى اتخاذ مواقف متطرفة .

وعندما شارفت المناقشات على النهاية قالت آنا :

« إنني شديدة الأسف . فربما لم يكن من حقي أن أثير هذا الموضوع ، ولكن خطره حملني على ذلك ، فأنا لا أتصور رئيساً لبلاده يقحمها - بقصد أو بغير قصد - في حرب شاملة ، دون أن يكون هناك من الحقائق ما يؤكد له أن بلاده تتعرض لخطر ماحق ، لا يدفعه غير الحرب .كما أن تصريحات رئيسكم ترسم أمامنا حدود أفكاره ونياته . ولن يكون من قبيل المفاجأة أن يعلن قريباً قرار اشتراككم في الحرب . وقد يكون هناك من بينكم من يؤيد أفكار رئيسكم ، لكنه تأييد ينبع من المصالح الشخصية أو الارتباطات العرقية . ولكن الذي لا شك فيه أن هناك - أيضاً - من ينتقد هذه الأفكار ويستهجنها . والمحصلة النهائية لكل ذلك جرُّ بلادكم إلى حرب شاملة قد تضرها أكثر مما تفيدها .»

وكان ختام المناقشات هو تقييم آنا للموقف بقولها :

« أعتقد أنني عرضت آرائي بصورة واضحة عليك ، وأرى أن الأحداث تتلاحق في سرعة مذهلة ، وأصبحنا في حاجة إلى عمل خارق ينقذ الموقف ، ولا يضيع فرصة تحقيق السلام . ويبدو أن رئيسكم لم يفهم حتمية التاريخ ، وأنه يجافي منطق الوقائع ، ويضاد الرأي العام العالمي ، وينكر البديهيات ؛ ولذلك يسرف فيما يطلق من وعود للحلفاء ، ويفرط في الضغط على دول المحور ، مما يهدد السلام العالمي ، ويخل بالتوازن .

« ومن هنا فإني أقول ما يقوله كثير غيري : إن الوضع متفجر ، وإن فتيل القنبلة هو روزفلت ؛ ولذا ينبغي إبعاده ؛ حفاظًا على سلام العالم ، ومصالح أمريكا . إنني من العناد بما يكفي للاعتقاد بأنه لا زالت هناك فرصة لمنع دخول بلادكم الحرب ، وأرفض التسليم بأن وقع الأحداث لايمكن التحكم فيه ، ولا يمكنني الاقتناع بأنه يمكن توريطكم في حرب تتعارض بوضوح شديد مع مصالحكم الحيوية . ثم دعني أصارحك : هل كتب على بلادكم أن تتحمل نزوات بعض من يتولون أمورها ممن أعمتهم أوهام الزعامة والصداقة ؛ ليدفعوا بالمصالح القومية الامريكية وبالاستقرار والأمن الأمريكي إلى المجهول المفزع ؟

« وأكرر لك ، إنني لا أقحم نفسي في شئونكم ، ولكنه واجب الصداقة من نحو ، وما يصيب العالم من جراء تصرف رئيسكم من

نحو آخر – يدفعانني لهذا الحديث . »

وكان رد فعل تيلير أن سألها : « وكيف يتسنى تجنب القتال في نظرك ؟ »

أجابت بلهجة هادئة ، وصوت متزن النبرات :

« إن الخطوة الحيوية في رأيي ، وأكاد أن أقول : إن الخطوة المحتومة ، هي أن تظل أبواب التفاهم مفتوحة ؛ حفاظاً على أمن العالم وسلامته ؛ وصوناً للجنس البشري مما يتهدده من دمار وخراب. إن المفاهيم الألمانية والأمريكية ما زالت متباعدة ، ولا سبيل لتقاربها والتقائها في نقاط مقبولة إلا بالمفاوضات والمحادثات . ولكن يبدو أن ذلك أمل بعيد في الآونة الحاضرة ، فسيبقى شبح الحرب قائماً طالما بقي روزفلت يدير دفة السياسة الأمريكية .

« ولن يتاح لجهود السلام أن تقوم إلا في رعاية رئيس أمريكي جديد لا يفكر بعقلية الحرب ، ولا يدير ظهره لخبرات التاريخ ، ولا يتنكر للحقائق الموضوعية ، ولا يستند في قراراته إلى الهوى والعصبية العنصرية . رئيس جديد يثق بنفسه ، ويثق به الناس ، ويعي مسئولية أمريكا التاريخية تجاه العالم . »

أخذ تيلير يرمقها بنظرات حائرة متسائلة تشي بعدم فهمه ، ثم سألها : « ماذا تعنين ؟»

قالت آنا وهي تنظر إلى صديقها نظرة تكاد تزلقه ، وكأنها تتهمه

بالغباء : « ماذا أعني ؟ يا له من سؤال ! أعني أنه يجب إبعاد روزفلت . »

فغر تيلير فاه من الدهشة ، ثم قال : « آسف إن كنت أخالفك الرأي ، فقد تعودت التنفس بحرية . إن منطقك هذا خطير ، يا آنا . »

وترد آنا من فورها : « لكنه منطق الواقع . وأرجو أن أضيف : إن إبعاد روزفلت ليس هدفًا في حد ذاته ، ولكنه يساعد على خلق مناخ ملائم لتحقيق السلام . »

واحتدم الجدل بينهما طويلًا ، وارتفعت درجة حرارته ، ودامت بينهما المناقشات جلسات متعددة ، وتقاربت وتباعدت وجهات نظرهما . أسهبت آنا في الحديث عما ينتظر أمريكا من دمار وخراب ، وفي نهاية هذه المناقشات المتصلة الطويلة بدا أن تيلير أخذ يتفهم وجهة نظر آنا ويتشربها ؛ ولذلك قال والجد يكسو ملامح وجهه :

« أنا شديد الاقتناع بما تقولين . لكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ أخبريني ، وسأفعل ما تشيرين به إذا اقتنعت . »

« دعنا نكن واضحين واقعيين . ثمة حاجة ملحة إلى أن يعرف الشعب الأمريكي الحقيقة عارية كاملة . وإذا كنت تنشد المساهمة في تجنيب أمريكا ويلات الحرب فإن ذلك في مقدورك . »

ولما استفسر منها عن كيفية ذلك ، تقدمت آنا بإجابة أجهدت

نفسها في صياغتها ، حيث قالت :

« يجب أن يعرف الشعب الأمريكي أبعاد السياسة الحمقاء التي يتبعها الرئيس اليهودي روزفلت وأخطارها . وهذا يتطلب تسليط الضوء على أفكاره ونواياه ، فمتى عرف الأمريكيون ذلك ، وأدركوا خطر الصداقة التي تربطه بصانع المتاعب تشرشل عملوا على إسقاطه في الانتخابات ، واختيار رئيس آخر بدلاً منه ، يكون أكثر تعقلاً ، وأكثر كفاية في معالجة الموقف . »

« هذه وجهة نظر عريضة . أريد خطوطاً واضحة محددة . »

ترددت آنا قليلاً ، ثم قالت وهي تضغط على كلماتها :

« يمكنك - إذا رغبت - دفاعاً عن أمريكا وشعبها أن تنقل صور المكاتبات والرسائل التي يتم تبادلها بين الحكومتين : الأمريكية والبريطانية ، فمن شأنها أن توقظ الشعب الأمريكي ، وتجعله يدرك الخطر الذي يتهدّده . وسأعرف الطريقة التي تصل بها هذه المعلومات إلى الأيدي التي تستطيع أن تسقط بها روزفلت . »

وختمت كلامها بقولها :

« لا أريد منك أن تقطع في الأمر برأي الآن ، ولكن أتحْ لنفسك فرصة التفكير فيه ، ولك - بالطبع - الحق في قبوله أو رفضه ، فذلك يتوقف على مدى حبك لوطنك ، وإخلاصك في خدمته . »

واختمرت الفكرة في ذهنه ، وسرح بخاطره بعيداً ، ورأى أن

حديثها منطقي مقبول ، وراقه كثيراً فهمها الواعي العميق للمشكلات الدولية ، و قال لنفسه : « إن سلامة الوطن وأمنه واستقراره يجب أن تظل الغاية المثلى التي يسعى إلى تحقيقها المواطن الصالح . » واحتل هذا الأمر الجانب الأكبر من تفكيره ، وتجسدت في عقله فكرة واحدة هي : كيف يمكن إيقاف الحرب؟

لقد كان تأثير المناقشات التي دامت جلسات متعددة – كان تأثيرها طاغياً على عقله و وجدانه ، فقد استطاعت آنا أن تتسلل إليهما ، وتبث في أنحاء صدره أن عليه واجباً وطنيًا لا سبيل إلى التهاون فيه ، وهو أن يحول بين وطنه والتردّي في مهالك الحرب التي لا تُبقي ولا تذر .

وهذا هو التأثير الذي كانت تهدف إليه ، وهذه هي الخُطة التي وضعتها رئاسة المخابرات الألمانية بإتقان ، ونفذتها آنا بخبرة وحنكة .

ومن هذا المنطلق – منطلق الشعور الوطني الجارف ، والرغبة المخلصة الجادة في أن يحول بين وطنه والتورط في حرب شاملة مدمرة – بدأ تيلير ينفذ ما أملته عليه آنا ، وراح يسلمها نسخ الرسائل السرية المتبادلة بين وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن والسفارة الأمريكية في لندن ، وكلّ ما يصل إلى يده من رسائل لتشفيرها أو حلها ، دون أن يرتاب في ذلك ، أو يطلب له ثمناً .

وكان تيلير بذلك أهم وأخطر من شبكة كاملة من العملاء والجواسيس ، ولا يمكن تخمين مدى الضرر الذي نزل ببلاده من

جراء سلوكه .

لقد كان تيلير تجسيداً حيًّا لتلك الحكاية القديمة : حكاية الدُّبَّة التي أرادت أن تدفع عن صاحبها النائم أذى ذبابة حطت على وجهه فقتلت الاثنين بحجر واحد !

النسر

وقف أمام المحكمة متعالياً في صلف وغرور ، لا تطرف منه عين ولا يَجِفُ له قلب ، لا يحس ندماً ، أو يبدو عليه أنه لا يحس ، ولا يلتمس رحمة ، ولا يبحث عن تبرير لما فعل ؛ بل يُظهر العناد والاقتناع بما حدث منه ، تعبث يده – أحياناً – بأنفه أو بأذنه . اعترف بهدوء بما ارتكب ، ولكنه زعم أنه ليس مجرماً ، وأن هذه الفَعلة كانت جزءاً من الجاسوسية الدولية ، وفصلاً من فصول الحرب الخفية بين الدول ، وأن ما وقع ليس فعله ، وإنما هو رد فعل مساو في القوَّة لفعله ، ومضادٌ له في الاتجاه (كما تقول قوانين الحركة) . وحينما أصدر القاضي حكمه بسجنه مدى الحياة ابيض وجهه ، وعلت شفتيه ابتسامة صفراء باهتة . لكنه ظل على صلفه وكبريائه السقيمة . وضم عقبيه ، ثم انحنى في وقار متكلف ، وقال :

« شكراً سيدي . »

لم يكن هذا الرجل الواقف أمام منصة القضاء رجلاً عادياً ، ولا شابًا يبحث عن ملذات الحياة ، ويغريه المال ، ولا موظفاً صغيراً مغموراً في دائرة من الدوائر ؛ بل كان رجلاً ذا مكانة اجتماعية عالية ، ومنزلة وظيفية مرموقة . يشهد له تاريخه بالكفاية والاقتدار والالتزام في كل ما تقلّد من وظائف ، وما تقلّب فيه من مناصب .

كان آخرها مستشار وزارة الخارجية السويدية لشئون نزع السلاح ؛ للمساعدة في الأعمال التمهيدية لمؤتمر جنيف لنزع السلاح . لم يكن في بداية حياة هذا الرجل ، ويُدعى « شنيغ إيريك فنرشتروم » ، شيء يوحي بهذه النهاية الأليمة ؛ فقد كان رجلاً لا ترقى إليه الريبة ، ولا تحوم حوله الشبهة . ليس من ذوي الميول الهدامة ، ولا ينتمي للمذاهب السياسية المتطرفة ، وليس من السهل على عملاء أية منظمة للتجسس أن يخترقوا الحجب الكثيفة التي يحيط بها شخصيته . ولكن هذه الحجب نفسها ، والغموض الذي يتلفع بردائه كانا نقطة ضعفه ، وكانا المنفذ الذي اختُرق منه ؛ فقد كان متعطشاً للعظمة ، مولعاً بأن يكون في الصدارة دائماً في كل حدث يقع في بلاده .

وما لنا نتساق في غموض مثل غموضه ، وإبهام مثل إبهامه ؟ فلنبدأ حكايته من بدايتها .

كان مولد شنيغ في اليوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٠٦ ، في أسرة أحد ضباط الجيش السويديّ . وكانت طفولته عادية ، وإن قلّ أصدقاؤه . واتجه بعواطفه نحو أمه ؛ لأن أباه كان رجلاً متحفظاً في عواطفه ، لا يفصح عنها ، ولا ينزع عن وجهه قشرة الجدية العسكرية مع ابنه . و لكن الطفل كان يتميز بالجسم الناحل ، والقامة الطويلة ، والذكاء الحاد ، والثقة في النفس التي تبلغ حد الغرور .

وأسلمتْه هذه الصفات النفسية إلى العكوف على القراءة في صباه ، فأولع بها ولعاً شديداً . وكان أشد ما يجذبه إلى القراءة ، ويطيل الوقوف عنده ، هو كتب المغامرات والقصص البوليسية ؛ فقد كان يجد فيها نفسه ، ويحقق من خلالها ذاته ، وكانت ترضي تعطشه للعظمة والكبرياء . قرأ لأرسين لوبين ، وأمضى الساعات الطويلة يقرأ روايات أجاثا كريستي ، وعايش شخصية « شرلوك هولمز » أبعد المخبرين السريين الخياليين صيتاً . وحبس أنفاسه أكثر من مرة مع الشخصيات التي ابتدعتها قصص « كارل ماي » . كان لا يطيق إذا وقعت يده على كتاب من هذا النوع أن يدعه حتى يعرف محتواه ويصبح صديقاً أو متقمصاً لبعض شخصياته .

وكانت رياضته الأثيرة لديه هي الجولف ، كما كان يلعب البريدج . وكان يرضيه أبسط الطعام ، ويشرب دون إفراط . ولكنه يعنى عناية فائقة بمظهره وأناقته . يكثر من التردد على الحفلات التي تقيمها السفارات ، ويجد متعة وارتياحاً لهذا النوع من الحياة الاجتماعية التي يحياها ذوو الياقات المرتفعة ، والملابس المتحفظة الأنيقة .

وازداد شنيغ نضجاً ، فإذا هو متحدث جيد ، يحسن اختيار الجملة التي تشد الأذن وتلفت الذهن ، وتثير الانتباه . ولكنه لا يتحدث إلى أي أحد ، وإنما يتخير محدِّثيه كما يتخير جمله . وكل ما يشغله أن يكون معروفاً عند الناس ، حاضراً في أذهانهم دائماً ، يعتزون بعلاقتهم معه ، ويفخرون بصلتهم به .

وعُرف بين الناس بالجدية والانضباط ، والتنزه عن الأخطاء الخلقية ، والترفُّع عن الجري وراء العلاقات الغرامية ؛ فلم تكن المرأة تقضُّ مضجعه ، وتشغل باله .

وكان شديد التعصب لرأيه ، يخلط خلطاً قويًّا بين رأيه وكرامته ؛ فلا يخضع لدليل ، ولا يرضخ لبرهان ، مهما كانت قوة الرأي الآخر وحجته . وفي معظم الأوقات كان ينتهي النقاش أو الحديث بحديثه المستفيض عن نفسه .

تزوج شنيغ عام ١٩٣٢ من ذات عينين خضراوين ساحرتين مثبتتين في وجه أبيض فاتن مشرب بالحمرة ، يحيط به ويسترسل من حوله شعر أصفر لامع كالذهب . وكانت « أولا غريتا كالسون » زوجته التي تمتزج فيها ثورة الأنثى بضراعة المرأة تحبه حبًّا جمًّا يتحدى الوصف ، وهي ابنة أحد المديرين الأغنياء لإحدى الصحف السويدية .

عمل شنيغ في السلاح البحريِّ الملكيِّ السويديِّ ، وتلقى فيه تدريباً حسناً ، ثم نقل إلى السلاح الجويِّ في الثالث عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٣٢ . و في شتاء العام التالي أرسل إلى المدينة الروسية « ريغا » عاصمة لاتفيا ؛ ليتقن اللغة الروسية . وكانت هذه المدينة القريبة من الحدود السويدية تموج بالجواسيس والوسطاء والعملاء ، الذين يبيعون ويشترون للطرفين ، و هو ما يعرف في عالم المخابرات بالعملاء المزدوجين . و شنيغ وإن أحس بهؤلاء إلا أنه

كان بعيداً عنهم . ثم عين في عام ١٩٤١ ملحقاً جويًا في السفارة السويدية بموسكو ؛ نظراً لإتقانه اللغة الروسية ، و عاد بعدها إلى « ستوكهولم » في عام ١٩٤٣ . وكثيراً ما كان يرافق الضباط الروس الذين يأتون لزيارة منشآت وقواعد السلاح الجويّ الملكيّ .

وتمضي الأيام به هادئة مطمئنة ، وهو يشبع حاجته إلى الظهور ، وحبه للتربع في مكان بارز من الصورة ، ويزداد صلفاً وغروراً ، وإن كان هو يسمي ذلك كبرياء وكرامة . ولكنّ العام (١٩٤٨) يحل ومعه أنباء خالية من السرور لشنيغ ؛ فقد عرف أن القيادة قررت تخطيه في الترقية إلى رتبة المقدم ، ومعنى ذلك أنه لن يتجاوز – بعد ذلك – رتبة العقيد طيار .

أصابه هذا الخبر بخيبة شديدة وكأنما صاعقة نزلت عليه من السماء فكادت تدق عنقه ، وتقصم ظهره . لقد ديست كرامتُهُ ، وذُلّت كبرياؤه فإذا به يستشيط غضباً ، ويشتعل حقداً وموجدة ، وتتوهج نار العداوة بينه وبين الذين حرموه حقه ، وألحقوا به الأذى والهوان في أعز ما يملك : كرامته وكبريائه . لقد غلت مراجل الانتقام في صدره من أولئك الذين أهانوه ، ولم يجد لذلك وسيلة غير أن يقدم أسرارهم العسكرية على طبق من الذهب إلى الروس .

لم يطلب حقّه شاكيًا ؛ فذلك عزيز على نفسه ، يتنافى مع كرامته وكبريائه . ولكنه – وفي غمرة الغضب وسورة الانفعال – انتقم لنفسه بالتفريط في حق بلده . فعرض طائعاً مختاراً على

المخابرات السوفييتية أن يتعاون معها .

وبمهارة سيكولوجية فائقة تعامل الروس معه ، أرضَوْا غروره ، وأشبعوا حاجته إلى الإحساس بالعظمة ، وأفردوا له في الصورة مكاناً بارزاً ، مستثيرين بذلك تقديره لذاته ، داعمين أنانيته . لقد طاروا به فرحاً ؛ فقد جاءهم من حيث لم يحتسبوا عميل من طراز نادر . ومن ثم سمحوا له أن يسحب من الأموال ما يشاء ، واختاروا له اسماً حركيًّا ينسجم مع غروره وهو (النسر) ، وكان همزة الوصل بينه وبين المنظمة ضابط روسيٌّ كبير برتبة جنرال عرف باسم « بيرتز باڤلوڤتش ليموكوف » . وقد وصفه شنيغ بأنه « خير صديق عرفه » . وقام خبير محنَّك من عملاء ال « كي . جي – بي » بتدريبه على كل أعمال التجسّس ، ابتداء من المصطلحات المهنية التي تستخدمها المنظمة ، وانتهاء بكيفية التفطن إلى المراقبة ، والتخلص منها ، واستخدام نقاط الاتصال الخفية .

وبسرعة شديدة أتقن التلميذ الراغب في التعلُّم الدروس واستوعبها استيعاباً جيداً ، وتجاوب تجاوباً فذًّا مع الخطَّة التي أحكمت رئاسة التجسس السوفييتيّ تصميمها وتنفيذها ؛ فأفشى لهم أسرار الدفاع الجويِّ الملكيّ السويديّ ، وزودهم بمعلومات عن أحدث الطائرات الحربية ، وأمدهم بتفصيلات مذهلة عن الصواريخ البريطانية والأمريكية . لقد كان كنزاً ثميناً وقعوا عليه ، فأحكموا قبضتهم عليه ، وأحاطوه بكامل إعجابهم ، وكل تقديرهم ، وعدُّوه عميلاً من الدرجة الأولى .

وفي التاسع من شهر مايو ١٩٥٢ عُيِّن شنيغ ملحقاً جويًا بالسفارة السويدية بالولايات المتحدة الأمريكية . وكان عملاء السوفييت ينظمون لقاءاتهم معه ، بطريقة جيدة ، لا تثير الشكوك ، ولا تبعث على الارتياب ؛ إذ كانت تتم – وكأنها جاءت مصادفة بغير تخطيط ولا تنظيم – في الحدائق العامة ، وفي الشوارع العامة ، في وسط مدينة « واشنطن » . وخلال عملية المصافحة باليد يتم تسليم الأفلام المصورة الصغيرة ، التي تحتوي على معلومات بالغة القيمة . كما كان شنيغ يترك أحياناً ما يود توصيله من أوراق وأشرطة في جيب معطفه ، في غرفة المعاطف ، في أثناء الحفلات الدبلوماسية التي تقيمها السفارات الشيوعية ، ثم يأتي عميل سوفييتيّ فيفرغ ما في جيب المعطف في ريث وأناة .

بيد أن الدور الرئيسيّ النشط بدأ حينما عين شنيغ بعد عودته إلى « ستوكهلم » رئيساً لقسم القوات الجويّة بقيادة الدفاع الجويّ السويديّ ، فكانت تسعى إلى مكتبه كل أنواع الوثائق السرية ، وخطط العمليات العسكرية ، وكل المعلومات التي تتصل بالنشاط العسكريّ ، والأسلحة الحديثة ، وأجهزة الدفاع الجويّ . كما كان عليه أن يقدم إلى وزير الدفاع السويديّ تقارير عن الصواريخ الموجهة، مما مهد له الطريق تمهيداً غير طبيعيّ ؛ لكي يمد السوفييت بفيض زاخر من المعلومات الدقيقة الشاملة ، الأمر الذي لا يتأتّى لشبكة متكاملة . وكانت هذه الفترة ذروة نشاطه في عالم الجاسوسية .

لقد كان شنيغ يؤدي مهمة التجسس من خلال قيامه بواجبه

الوظيفيّ ، فلم يُضطر إلى الإقدام على خطوات تلفت النظر ، وتثير الانتباه . وبلغ مستوى أدائه لعمله درجة عالية من الإتقان جعلته نموذجاً يُحتذى ، ونبراساً يقتدى . الأمر الذي جعل عملية اكتشافه عسيرة متعذرة على أجهزة الأمن ، ولكن ..

بلغت الفرع المختص بمقاومة الجاسوسية في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٥٩وفي مطلع عام ١٩٦٠ تقارير تشير بأصابع الاتهام إلى شنيغ ؛ فقد أيقظ الشك في نفوس بعض زملائه بسبب فضوله المثير في الاطلاع على وثائق سرية ، ليست لها صلة بطبيعة عمله . ونمت بذرة الشك في صدورهم ، فإذا هم يقتنعون بأن في الأمر سرًّا ، وقد يكون سرًّا خطيراً ، وعملاً مريباً .

ولما كانت هذه الشكوك لا تسندها أدلة مادية فإن عدداً غير قليل من المسئولين السويديين لم يصدقوها ، بل زعموا أنها مجرد ادعاءات باطلة لا أساس لها من الصحة ، ولا سند لها من الواقع . قد تكون هناك شبهات من حوله وظنون ، ولكنهم ليسوا على استعداد لتصديق أن زميلاً جديراً بالتقدير والاحترام ، وجنديًا بارزاً مثله حصل على أرفع النياشين والأوسمة – ينزلق إلى مثل هذه الهوّة السحيقة . بحثوا تقارير المخابرات ، وقتلوها درساً ، ولكنهم انتهوا إلى أنها مبهمة غامضة غير مبررة تبريراً مقنعاً ، وقد تكون مبنية على شائعات لا تدين أحداً . وقالوا إن المعلومات التي بين أيدي رجال المخابرات السويدية لاتمثل أدلة قطعية على الخيانة ، وإنما هي أدلة ظنّيّة في أحسن الأحوال . وبلغ اقتناعهم بسلامة موقفه حدًّا جعل مسئولاً كبيراً

بوزارة الدفاع يقول لرجال المخابرات : « من حقكم أن ترتابوا في أيٍّ شخص كائناً من كان ، أما أنا فثقتي مطلقة بهذا الرجل . »

ومن ثم فقد أهملت تقارير المخابرات، ونُحِّيَتْ جانباً تحذيراتهم ، وصدر قرار بتعيينه مستشاراً بوزارة الخارجية السويدية لشئون نزع السلاح ؛ للمساعدة في الأعمال التمهيدية لمؤتمر جنيف لنزع السلاح . وكان ذلك في اليوم الرابع عشر من شهر يونيه عام ١٩٦١ . وما إن استقرت به الحال في منصبه الجديد حتى أخذ يتردد على زملائه في وزارة الدفاع ، يسأل عن معلومات عسكرية ، زاعماً لهم أنه يريدها للاستعانة بها في عمله ، وتأدية متطلبات وظيفته . وكان يحصل على ما يرغب فيه من معلومات ، أو إن شئت التعبير الدقيق ، ما يرغب فيه الروس دون أن تبدو منه أية بادرة تؤدي إلى سوء الظن فيه ، أو تدعو إلى الارتياب في أمره .

وتمضي الأيام ، ويدمن شنيغ عملية التجسس ، حتى تصبح ممارستها عنده لوناً من التسلية يجد فيه الكثير من اللذة والمتاع ، فإذا به يتجسس حبًّا في التجسس !

في مجال الجاسوسية ليس هناك حادث صغير وحادث كبير ، فقد يكون الخيط الواهي الضعيف مفتاحاً لاكتشاف أضخم شبكات الجاسوسية وأعتاها ، وقد يكون الحادث الكبير زوبعة لا معنى لها ولا صدى . وقد أدَّت كلمة عابرة في حديث هاتفيٍّ إلى افتضاح أمر شنيغ ، حيث قالت ابنته الصغرى لإحدى صديقاتها : إن والدها

يمتلك أغرب جهاز إذاعيٍّ في العالم ، لا يستقبل غير روسيا .

وأمسك رجال المخابرات السويدية الخيط بقبضة حديدية ، وأيقنوا أن لديه جهازاً لاسلكيًّا ذا موجة قصيرة ، ولكنهم لم يتسرعوا في اتخاذ الموقف ، على الرغم من تشوُّقهم إليه . بل تذرعوا بالصبر ، و وضعوه تحت المراقبة الواعية الدقيقة حتى يقطعوا الشك باليقين ، ويجمعوا الأدلة الدامغة على تورطه ؛ فلا يكون هناك مجال للشك في تحرياتهم ، أو دحض أقوالهم وادعاءاتهم .

لاحقته عيونهم ليلاً ونهاراً ، تعدُّ حركاته وسكناته ، وتكاد تحصي أنفاسه . فقد دسُّوا عليه السيدة « كارمين بروزوين » ؛ كي تعمل خادمة غير متفرغة لدى أسرته – وهي امرأة في منتصف العقد السادس من العمر ، لا تثير شكًّا ولا ريبة . وحدَّدوا لها مهمتها في التعاون معهم لإماطة اللثام عن الحقيقة الكاملة .

وكان أول ما لاحظته السيدة بروزوين أن شنيغ فنرشتروم يمتلك مجموعة غريبة من الأجهزة والآلات ، من بينها آلة تصوير ، وخزانة مخبأة خلف إحدى الستائر ، ومذياع صغير موضوع دائماً داخل حقيبة . وكان هذا من الوسائل التي تعزز الشك ، وتدفع به إلى اليقين .

كما أنها لاحظت أن الرجل يقوم بغسل مناديله وجواربه بنفسه في هدوء وعناية ، وأن هذه المناديل والجوارب لم تكن متسخة تحتاج إلى تنظيف . وكان لهذا أكثر من مدلول عند رجال المخابرات .

لماذا يقوم الرجل بهذا العمل وفي بيته امرأة تُعنى بتدبير أمره ، وخادم تقوم بتنظيف ثيابه ؟ ورجح لديهم أنه يستخدم الحبر السري في كتابة تقاريره ، وأنه لا يحتفظ به في زجاجة ، بل يغمس فيه منديلاً أو جورباً ثم يجففه ، فإذا ما احتاج إليه نقعه وجمع ماءه ليكتب به ما يشاء .

وهكذا بدأت حجب الغموض تنقشع شيئاً فشيئاً ، وبدأت الحقائق تتضح رويداً رويداً . حتى جاء الدليل الدامغ ، والبرهان الساطع ، حينما أبلغتهم السيدة بروزوين أنها عثرت على لفافتين غريبتي الشكل ، مخبّأتين بالغرفة العلوية من المنزل تحت كمية من نثارة الخشب . واكتشفت داخل اللفافتين كرات من الأفلام . وبذلك أصبح بين يدي رجال المخابرات السويدية الدليل الماديُّ الذي يسمح لهم بالتحرك .

بعد ظهر يوم الخميس العشرين من يونيه ١٩٦٣ ، وقفت سيارة سوداء من طراز « ليموزين » وقد أسدلت على نوافذها ستائر سوداء كذلك . لا تفصح عن شيء مما بداخلها ، ولا تتيح لعين أن تتطفل عليها . و وقف رجلان أمام غطاء مقدمتها المكشوف يتدارسان ما قد يكون أصابها من خلل ، على حين قبع في داخلها رجل ثالث يتحفز للوثوب . وعلى بعد خطوات منها لا تتجاوز المئة وقفت سيارة أخرى من طراز « ڤولڤو » وقد التف حولها ثلاثة رجال أشداء ، يتظاهرون بأن واحدا من إطاراتها قد فرغ ما به من هواء . أما الرجل الرابع فقد كان يتمشى ببطء وحذر فوق الرصيف .

وفي الساعة الواحدة والدقيقة السابعة وخمس وثلاثين ثانية مر بجانب السيارة « ڤولڤو » رجل طويل القامة ، أنيق الملبس . وسرعان ما أحاط به الرجال الذين كانوا يلتفون حولها إحاطة السوار بالمعصم وتقدم أحدهم منه ، و وضع يده على كتفه ، وعرّفه بنفسه في لهجة مهذبة ، ثم قال في كلمات حاسمة باترة :

« كولونيل شنيغ إيريك فنرشتروم ، باسم القانون أقبض عليك ؛ فأنت متهم بالخيانة العظمى . »

لم يهتز الرجل ، ولم يَبْدُ عليه أي أثر للمفاجأة . ولكنه قابل كلام رجل المخابرات بحملقة خالية من أي معنى ، وهزة كتف لا تعني شيئاً ، وادعاء مهذب بالجهل عما يتحدث عنه . وتبع الرجال الثلاثة في هدوء واستسلام إلى السيارة « ليموزين » . ولم يمض غير سبع و أربعين ثانية بالضبط فيما بين مروره بجوار السيارة « ڤولڤو » ونقله إلى السيارة « ليموزين » . وانطلقت السيارتان تمرقان بسرعة البرق الخاطف ، حتى بلغتا أحد المنازل الآمنة التابعة للمخابرات السويدية .

وهكذا في طرفة عين ، وبطريقة غير مثيرة ، وفي وضح النهار على مرأى من كل العيون – أسدل الستار على قصة من أنجح قصص الجاسوسية الدولية ، بدأت أحداثها في عام ١٩٤٨ ، وانتهى فصلها الأخير في عام ١٩٦٣ .

هز نبأ القبض على شنيغ إيريك فنرشتروم السويد كلها ، من

أقصاها إلى أقصاها ، وأفردت الصحف للنبأ صفحاتها ، وتبارت في رواية تفاصيل هذه القضية ، التي تركت مشاعر جارفة من الألم العميق في وجدان الشعب ، وأحدثت شرخاً في أعماقه . فقد طالت مدة تجسس هذا الرجل وخيانته حتى أربت على خمسة عشر عاما متصلة . قدّم في أثنائها للسوفييت ما لم يكونوا يحلمون به من معلومات . قدمها طائعاً مختاراً ، ثم أفلت من حكم الإعدام بثغرة في القانون جعلته يُسجن مدى الحياة ، وجعلته ينحني في وقار مصطنع ، وكبرياء مزيفة أمام القاضي ، ليقول له : « شكراً سيدي . »

الجري وراء السراب

هو رجل أمريكي ، طويل القامة ، ضخم الجسم . لم تمنعه ضخامته من القدرة على الحركة السريعة ، ولم تَحُلْ بينه وبين اليقظة الدقيقة ، ولم تصرفه عن العناية الفائقة بأناقة ملبسه ومظهره .

دلف هذا الرجل إلى مطعم « أرامانوڤيل » الذي يقع في الغابة المعروفة بأنها عشُّ المحبين ، وبخاصة الأثرياء منهم في باريس ، وكان ذلك ظُهر اليوم الخامس من يونيه ١٩٥١ .

جلس الرجل الأمريكيُّ يتناول طعام الغداء وحده ، فالتهم طبقاً من حساء السمك المطهو على الطريقة المارسيلية ، وطبقاً آخر من شرائح اللحم البارد ، ثم تناول بعض ثمار التفاح ، ثم احتسى قدحاً من القهوة الفرنسية ، وأشعل غليونه ، وأخذ يقلب صفحات مجلة « نيوزويك » ، التي كان يصطحبها معه .

وفجأة دقَّ الهاتف ، يطلب ذلك الرجل الأمريكيَّ ، الذي عَلَت الدهشة وجهه ، وامتُقِعَتْ أساريره ؛ فلم يكن أحد من معارفه يدري أنه في هذا المكان ، ولم يكن كذلك ينتظر محادثة هاتفية .

« هالو . أنا سولون . »

« هل أنت رئيس مكتب « الديلي إكسبريس » ؟»

فوجئ الرجل بالسؤال ، وتجمدت الكلمات على شفتيه لحظة ، ثم قال : « نعم ، من أنت من فضلك ؟ »

بهدوء واتزان قال المتحدث : « أنا صديق يقدم لك خدمة ، ويصنع فيك معروفًا . سأسدي إليك نصيحة طيبة . »

ارتبك سولون وتردد قبل أن يقول في صوت حاول أن يكون رقيقًا : « هل هناك ما يمنعك من أن تزورني في مكتبي صباح الغد ؟ »

بفظاظة وغلظة ردَّ المتحدث : « أنت لم تفهمني ، ليس هناك ما أقصُّه عليك . كل ما في الأمر أنني أريد أن أنصحك قبل فوات الأوان . »

دهش سولون وسأله : « وما المجال الذي تريد أن تختصني بالنصح فيه ؟ »

صمت المتحدث لحظة ، كأنما يود أن يوقظ الفضول في نفس سولون ، ثم قال : « إن القصة التي تجرى وراءها ليست من صالحك في شيء . »

لم يفهم سولون ماذا يعني الرجل ، فقال والدهشة تستغرقه : « أية قصة ؟ أنا آسف ، فأنا لا أعرف عمَّ تتحدث . »

في سخرية وتهكم قال المتحدث : « قد تكون صادقًا فيما تقول ،

وقد تفهم الأمر يوماً ما . ولكن هناك نقطة هامة أود أن أركز عليها وهي ... »

ثم سكت هنيهة ، وأردف بصوت اجتهد في أن يكون مشحوناً بالإيحاءات : « لا تحاول البحث عن أناس مفقودين ، ولا السؤال عنهم ؛ فذلك ليس من مصلحتك . »

قال سولون وهو يتصنع الدهشة ، محاولاً أن تكتسي لهجته بالجدية : « لا أفهم قصدك . من هؤلاء المفقودون ؟ »

ولكن المتحدث رد في حزم : « لا تتغابَ عليّ ، إنك تفهم جيداً ما أقصد ، وإذا كنت تبحث عن المتاعب فستجدها في انتظارك . »

وبأعصاب هادئة سأله سولون : « من أنت ؟ ولماذا لا تتفضل بشرب كأس معي؟ »

ضحك المتحدث المجهول ضحكة فاترة ، ثم قال في حسم : « أنا لا أشرب الخمر . اسمع نصيحتي ، وحاول أن تكون أكثر تفهماً ؛ لأن المسألة سوف تضنيك ، ومن الخير لك أن تنساها . »

قال سولون وهو يحاول أن يضحك : « إذاً ، قل لي : أين هما؟ أين أجدهما ؟ »

ردّ المتحدث المجهول وكأنه يصدر حكماً نهائيًّا : « لا داعي لأن تلف وتدور حول الموضوع ، وعلى أية حال سأريحك . لن تجدهما ، إنهما ليسا في فرنسا كلها ، ولا أظنك يخامرك شك في

ذلك . مع السلامة . »

ولم يكد هذا المتحدث المجهول يتم جملته حتى كانت سماعة الهاتف قد ارتطمت بأذن سولون الذي كاد يصيبه الجنون . وحاول عبثاً أن يعرف رقم الهاتف الذي كان يتحدث منه ذلك المجهول ، ولكن عامل الهاتف قال له : « هذا مستحيل ، يا سيدي . »

وطافت برأس سولون ألوان من الشك ، وانتابته الحيرة ، وساوره القلق ، وبدا عليه الانزعاج والضيق . لكنه حاول أن يهدئ من ثائرة نفسه ، ويقنعها بأن هذه المحادثة الهاتفية لم تكن غير دعابة ثقيلة من صديق سمج ، لم يحسن اختيار الموضوع ولا الوقت ، أو على الأقل تمنى أن تكون المحادثة كذلك .

ولم يمض غير يومين على هذه المحادثة الهاتفية حتى بثت وكالة الأنباء البريطانية والوكالات العالمية أنباء متضاربة متداخلة ، موثوقة المصادر ، وبالتالي مرجحة الصحة ، ولكنها مثيرة خطيرة ؛ عن هرب اثنين من الدبلوماسيين البريطانيين . كما أذاعت أن هناك من الدلائل ما يرجح أن يكونا قد فرّا إلى الاتحاد السوفييتي .

وتقاطر الصحفيون من كل مكان إلى لندن ليكونوا قريبين من الأحداث في عاصمة المفاجآت ، وليعرفوا – وهذه عادة صحفية – ماذا جرى ؟ وكيف جرى ؟ ولماذا جرى ؟

طالع المجتمع البريطانيُّ هذا الخبر المزعج قبل أن يفيق من خبر ليس أقل منه إثارةً وإزعاجاً ، ألا وهو تقديم ثلاثة من العلماء

البريطانيين أسراراً ذرية إلى السوفييت ، وهم الدكتور ألان ناي ماي والدكتور كلاوس فوخس والدكتور بورنو بونتيكورفو . ولاذت ألدوائر الحكومية البريطانية بالصمت المطبق ، فلم تتحرك لتنفي أيا من الخبرين أو لتؤكده . أثارت الأخبار وموقف الحكومة الصامتة موجة عارمة من الغضب والسخط في الشارع البريطانيّ . فما واجب الحكومة إذا كان لا يعنيها ما يتصل بالأمن القوميّ للبلاد من أمور ؟ وعاش البريطانيون في حالة من الصدمة النفسية الجماعية .

بيد أن الحكومة لم تفلح في أن تسدل على الموضوع ستاراً كثيفاً يحجبه عن الناس ، وينسيهم إياه ، فيخلون بينها وبينه ؛ فقد تداولته الصحف ، وتناقلت تفصيلاته وكالات الأنباء ، وراحت تبدئ وتعيد ، فصعّد حثيثاً إلى صدارة الاهتمام العالميّ . ومن ثم لم تجد الحكومة مفرا من أن تصدر بياناً مقتضباً جاء فيه :

« اختفى أثنان من رجال وزارة الخارجية البريطانية ، حيث تغيبا عن مسكنيهما منذ الخامس والعشرين من شهر مايو الماضي ، واسم الأول: د. د. ماكلين ، رئيس شعبة أمريكا بالوزارة ، واسم الثاني : ج . ف . بيرجيس ، السكرتير الثاني في القسم العام بالوزارة . ويجري البحث عنهما ، وإن كان المعروف أنهما قد ذهبا إلى فرنسا . ولما كان تغيبهما دون الحصول على إجازة فقد اعتُبرا هاربين من أول شهر يونيه . »

وبدلاً من أن يطفئ هذا البيان جمرة الغضب المتقدة في الشارع

البريطاني ، زادها اشتعالاً وتوهجاً . لقد تلقفت الصحف القضية ، وأثارت الرأى العام حيال قصور أو تقصير الجهات الأمنية المسئولة ، التي يبدو أنها لم تكن من اليقظة والوعي بحيث تحول بين هذا الحادث و وقوعه . وطالبت الصحف بأن تفصح الحكومة عن كل ما يتعلق به ، مهما كان فيه من إحراج ، وأن تضع كل النقط فوق كل الحروف ؛ فمن حق الناس الذين وثقوا في الحكومة أن يعرفوا ، ومن الواجب على الحكومة ألا تدفن رأسها في الرمال ، ومن حق دافعي الضرائب أن يعرفوا كل الحقائق . ولكن التعليق الوحيد الذي خرج من مقر الحكومة البريطانية يقول : « ليس من المعتاد تقديم معلومات تفصيلية في مثل هذه الأمور . كما أن الدول تحافظ على أسرار مخابراتها ، ويكون دائماً حسابها بعيداً عن العلانية . »

وعيَّن البرلمان الإنجليزي لجنة كلفها بأن تتحرى الأسباب التي أدت إلى وقوع هذا الحادث ، وتنظر في إجراءات الأمن من ألفها إلى يائها ؛ كي تتلافى تكرار مثل هذه الحوادث .

ويدور الفلك دورته ، ويتعاقب الليل والنهار ، وتنصرم الأسابيع والشهور ، ثم السنوات ، والحكومة البريطانية لا تستطيع أن تقدم تبريراً واحداً مقنعاً لهروب الرجلين ، ولا تستطيع أن تلقي ضوءاً – ولو خافتاً – عن مقر إقامتهما ، ولا عن كيفية فرارهما . وبقي موضوع هذين الرجلين لغزاً تلفه الأسرار ، ويحوطه الكتمان . ولم تنفك طلاسم هذا اللغز ، ولم تَنْجَبْ حجب الكتمان إلا بعد أن ارتد بتروف السكرتير الثالث في السفارة الروسية في العاصمة الأسترالية

« كانبيرا » ، الذي كان – في الوقت ذاته – رئيس شبكات الجاسوسية الروسية في أستراليا ، والذي اكتسب حق اللجوء السياسيّ له ولزوجته أفدوكيا في أبريل ١٩٤٥ . حينذاك أعلن بتروف ما يعرفه عن تحركات هذين الدبلوماسيين البريطانيين ماكلين وبيرجيس ، وأنهما يعملان في وزارة الخارجية السوفييتية ، ويقيمان في « موسكو » .

ولعل الشوق يغالبك – عزيزي القارئ – للتعرف على شخصية هذين الرجلين ، اللذين أثارا هذه الضجة المفزعة في نفوس أبناء الشعب البريطانيّ ، وأطلقا هذه الصيحة المنكرة من ألسنتهم .

أما ماكلين فهو « دونالد ديوارث ماكلين » ابن لإحدى عائلات الأحرار المعروفة في بريطانيا . ولد في الخامس والعشرين من شهر مايو عام ١٩١٣ . كان في أثناء دراسته في كلية « ترينيتي » بجامعة « كامبردج » طالباً متفوقاً . وكان في وظيفته ذا كفاية نادرة ، وقدرة بارعة ، وإرادة عازمة . يعرف تماماً ما يريد ، ويعمل بجد واقتدار لتحقيق ما يريد . وكان مرحاً ودوداً ، يألف الناس ويألفونه في بساطة وسرعة ، يجيد فن العلاقات العّامة إجادة بالغة ، حتى كاد ينعقد الإجماع على أنّه خُلق دبلوماسيا . يعرف كيف يكسبك إلى صفه إن كنت له عدوا ، وكيف يمتص غضبك إذا كنت هائجاً ثائراً ، وكيف يستخرج أحلى ما عندك إذا كنت متحدثاً . وكان متزوجاً وله طفلان ، و ولدت طفلته الثالثة بعد هروبه بوقت قصير ، وإن كانت هناك علامة استفهام حول رجولته .

أما بيرجيس فهو « جي فرانسيس دي مونكي بيرجيس » ، ولد في السادس من شهر أبريل عام ١٩١١ في « ديفونپورت » ، وتخرج في الكلية نفسها التي تخرج فيها صاحبه ماكلين . وهو قوي البنية ، يميل إلى السمنة ، يفرط في شرب الكحول إلى حد فقد معه الثقة بنفسه من الناحية الجنسية . وكان ذكيًّا ساخراً ثرثاراً ، يدلي برأيه في موضوع ما ، ثم يعود فيعدل عنه ؛ لأنه كان لا يتروى ولا يمعن التفكير كما ينبغي . وكان لا يعنى بمظهره ، ولا يهتم بنظافته الشخصية ، ويرتدي ثيابه كيفما اتفق . لا انسجام بين ألوانها ولا اتساق بين أجزائها ، بل تشيع فيها الفوضى ، ويسودها الإهمال . وكان لا يتقن فن التكلف والتصنع ، بل يكاد يجهله جهلاً تامًّا . وكان متزوجاً من الأمريكية « ميلندا مارلينغ » .

كانت أصابع ماكلين بحكم وظيفته منبثة في جميع مجالات حلف الأطلنطي – الناتو – يعرف ما يجري في سراديبه ومنحنياته ، وكيف يجري . وكان مستطيعاً أن يكشف للسوفييت عن الخُطط التي أعدها الغرب للعمل معاً ، وعن الطريقة التي يمكن بها تدمير العلاقات التي تربط بين دول الغرب ؛ فيحل الشقاق والخلاف بدل الوفاق والائتلاف .

وكذلك صاحبه بيرجيس ، فعلى الرغم من إهماله البوهيمي إلا أنه قد استطاع أن يحصل على نسخة من مشروع « واشنطن » الخاص بالحرب النفسية فيما وراء الستار الحديديّ – كما كان يحلو للصحافة الغربية أن تطلق على الاتحاد السوفييتي آنذاك – هذا

المشروع الذي رصد لتنفيذه مائتان وخمسون مليون دولار أمريكي .

ولا شك في أن وجودهما في وزارة الخارجية يتيح لهما الإلمام بالكثير عن استراتيجية العمل الدبلوماسيّ الإنجليزيّ ، و أهدافه ونواياه .

وحينما بلغت حدة التوتر الدوليّ ذروتها في الفترة (١٩٥٠ — ١٩٥١) من فترات الحرب الباردة التي ابتدعها « جون فوستر دالاس » وزير الخارجية الأمريكية الأسبق ؛ في هذه الفترة حيث كان النشاط الدبلوماسي الظاهر يتسم بأرق العبارات ، وكان النشاط غير الظاهر يتسابق في إمداد كل دبلوماسيٍّ بلاده بأدق المعلومات الممكنة . في هذه الفترة تلقت أجهزة الأمن البريطانية أنباء من مصادر موثوق بها أن هناك معلومات خطيرة عن السياسة الاستراتيجية البريطانية قد تسربت إلى السوفييت .

وكان لهذه الأنباء دويٌّ عاصف في الأوساط الدبلوماسية البريطانية العليا . كأنما هو زلزال قويٌّ هزَّ كل جانب من جوانبها ، و نكاد نقول : أثار الذعر في نفوس أعضائها ؛ فجذب ذلك — بعنف — انتباه المسئولين في جهاز المخابرات الإنجليزية المعروف باسم « سى . آي . سي » ، هذا الجهاز الذي يُعد أقدم أجهزة المخابرات العالمية ، والذي لا يخشى شيئاً قدر ما يخشى تسليط الأضواء عليه ، وكَشْفَ النقاب عن عملياته ، أيًّا كان نصيبها من النجاح أو الفشل .

شمر هذا الجهاز عن ساعده ، وانتابته الحيرة ، وأمضّه القلق إزاء تدابير الأمن السرية الخاصة بوزارة الخارجية ، وثارت في ذهنه تساؤلات كثيرة . ومن ثم بدأ تحرياته الواسعة النطاق ؛ أملاً في أن يكتشف الثغرة التي نفذت منها هذه المعلومات ، وتسربت إلى السوفييت . وشملت تحرياته كل موظفي وزارة الخارجية ، مهما كانت درجاتهم الوظيفية ، فأشارت هذه التحريات بألف أصبع إلى ماكلين و بيرجيس ، وما لبثت أن انحصرت فيهما . وكان على جهاز الأمن السريّ المعروف باسم « إم . آي . سيكس » – وهو جهاز وثيق الصلة بوزارة الخارجية البريطانية يخدم عملها وعملياتها ، كان عليه أن يتتبع خطوات الرجلين ، ويرقب حركاتهما ، ويتعرف على علاقاتهما واتصالاتهما . ونكاد نقول يحصي أنفاسهما . وشعر الرجلان بذلك ، وأحسا أن الخناق يضيق عليهما ، ولعلهما – كما يغلب على الظن – تلقيا تحذيراً بذلك ، من جهة يعنيها أمرهما ، جهة شمت رائحة الخطر بأنفها القوي الدقيق ، وتوقعت أسوأ الاحتمالات ، فكانت الحيطة اللازمة في مثل هذه الأمور ، وكان القرار الذي لا معدى عنه ، وهو .. الفرار .

أما كيف كان تنفيذ هذا القرار ، وكيف اتخذ الرجلان طريقهما إلى موسكو ، فلا يزال ذلك سرًّا مكتوماً ، لا يعلمه غير أولئك الذين استطاعوا بالحيلة والدهاء والمناورة التغلب على إجراءات الأمن البريطانية .

لكن الذين يدسُّون أنوفهم بين الأشياء لم يعدموا الحيلة في

الوصول إلى أثارة من علم ، وإن كانت رواياتهم قد اختلفت وتضاربت . غير أن أكثرها اقتراباً من الصواب ، وأدناها احتمالا للصحة ، تلك الرواية التي تدّعي أنهما غادرا « تاسفيلد » بالسيارة ، فوصلا إلى « ساوثهامپتون » ولحقا بسفينة الركاب « ڤاليز » التي أبحرت إلى « سانت مالو » ، ثم استقلا القطار إلى « باريس » ، ومنها ركبا طائرة سوڤييتية أو تشيكية حتى « براغ » – عاصمة تشيكوسلوڤاكيا – فابتلعتهما شوارعها ، وذابا في طرقاتها . ومنها كان الطريق معبّداً إلى موسكو ، حيث تم تعيينهما مستشارين في وزارة الخارجية السوڤييتية .

ويظل أمر الرجلين لغزاً محيراً ، تحيط به لفائف الغموض والإبهام ، وتتراكم دونه الحجب الكثيفة . ولكن الأيام تمضي ، وإذا بعض لفائف الغموض تتساقط ، وإذا بعض الحجب تنزاح ، وإذا بنا نعلم ماكنا نجهله ، ونعرف ما لم نكن نعرفه .

لقد عرف جهاز المخابرات البريطاني – بعد فوات الأوان – أن كلا الرجلين كان شيوعيًّا حتى النخاع منذ كان طالباً في الجامعة ، على الرغم من أن أحداً منهما لم يشترك قط في المنظمات اليسارية في بريطانيا . ولكنهما قرآ الكتب الأساسية في الفكر الماركسيّ ، وعلى رأسها كتاب « رأس المال » لكارل ماركس ، وآمنا بأن الشيوعية ستفرض نفسها على العالم ؛ إذ هي الدواء لجميع ما يعاني منه العالم من أدواء . كما كانا مقتنعين بأن الاتحاد السوڤييتي يتبع نظاماً عادلاً ، يحظى فيه كل ذي حق بحقه ، ويسعد باستمتاعه

به ، وذلك بتطبيق مقولتهم : « من كلٌ حسب قدرته ولكلٌ حسب حاجته . »

كانا مؤمنين إيماناً شديداً ، يكاد يبلغ حدَّ التطرف والتعصب ، بأن وعد الشيوعية لجميع سكان البسيطة بحياة أرغد ، ومستقبل أفضل – سوف يتحقق . ومن ثم كانا لا يعدان أنفسهما مواطنين يدينان بالولاء للبلد الذي نشآ فيه ، وتمتعا بخيراته ؛ وإنما يعدان أنفسهما مواطنين يدينان بالولاء للمبدإ الذي يعتنقانه ، ولذلك وضعا مصلحتهما فوق مصلحة بلدهما ، وانزلقا إلى ما انزلقا إليه ، وتورطا فيما تورطا فيه .

تُرى ماذا يكون رأيهما الآن – لو كانا على قيد الحياة ؟

أ لا يريان أنهما ضيّعا جهدهما في الجري وراء السراب ؟

السيدة السوداء

بينما كان العالم كله يترقب في لهفة ، وينتظر في تفاؤل انعقاد القمة الرباعية بين (أيزنهاور ، خروشوف ، ديجول ، ماكميلان) في قصر الرئاسة في باريس ، صباح اليوم السادس عشر من مايو عام ١٩٦٠ ، وما سيعقبها من تلبية « أيزنهاور » للدعوة الموجهة إليه من « خروشوف » لزيارة « موسكو » .

بينما كان العالم كله يترقب ذلك إذا به يجابه بغير ما كان يتوقعه ، فينهار مؤتمر القمة قبل انعقاده ، وتُلغى الزيارة ، وتعصف الريح بكل ما كان يسود العالم من تفاؤل ، وتزداد الحرب الباردة بين القوتين العظميين اشتعالاً وتوهجاً ؛ فقد وقع ما لم يكن في حسبان أحد .

لقد أطلق الروس صواريخهم في اليوم الأول من شهر مايو عام ١٩٦٠ ، وكان يوم أحد . أطلقوا صواريخهم في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح ذلك اليوم– بتوقيت موسكو – على طائرة أمريكية من طراز (U-2) فأسقطوها .

كانت هذه الطائرة تقوم برحلة استطلاع من باكستان حتى

النرويج عبر الاتحاد السوفييتي على ارتفاع يزيد على ٢٠٫٠٠٠ متر ، وقد توغلت في الأجواء الروسية مسافة تقرب من (١٢٥٠) ميلاً ، وأسقطت على بعد تسعمائة ميل شرقي موسكو بالقرب من فيردلونسك . وفي الحال نقل قائدها « فرانسيس جاري باورز » إلى سجن « لوبيانكا » المظلم – بمقر المخابرات السوفييتية في وسط موسكو – حيث كان ينتظره استجواب دقيق .

حملت الأخبار في اليوم الثاني من مايو نبأ سقوط الطائرة ، فقد أذاعت الخارجية الأمريكية أن طائرة من طراز (U-2) قد فقدت ، ورجحت أن تكون الريح قد دفعتها بعيداً عن مسارها .

ولكن اليوم السابع من مايو حمل نبأ مخالفاً عن الطائرة المفقودة ، فقد أعلن الزعيم السوفييتي خروشوف من إحدى قاعات قصر « الكرملين » في الميدان الأحمر بموسكو ، أمام أعضاء مجلس السوفييت الأعلى ؛ أنه قد أسقطت طائرة أمريكية من طراز (U-2) ، وهي طائرة صنعتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لأغراض التجسس البعيد المدى . ثم صاح في انفعال : « إنهم – يعني الأمريكيين – يدوسون بذلك كل الأعراف الدولية ، التي تقضي بأن على كل بلد أن يحترم سيادة البلد الآخر . »

وأضاف : « إن هذا العمل يعد عملاً عدائيًّا ، ويمثل انتهاكاً صارخاً لكل المواثيق الدولية ، وسوف يواجه من جانب الاتحاد السوفييتي بما يناسبه من إجراء ! » وكان إعلان « خروشوف » هذا فضيحة سياسية مدوية للولايات المتحدة الأمريكية ، وإزعاجاً خطيراً لضمائر الملايين من البشر .

ومن البديهي في قوانين لعبة الجاسوسية - ولكل لعبة قوانينها - أن تدفع الجهة المتهمة عن نفسها ما رميت به ، وأن تنكر صلتها به أو تتغاضى عن الحديث عنه . وهذا ما فعلته وزارة الخارجية الأمريكية . لكن الرئيس الأمريكي « أيزنهاور » خرج على قوانين اللعبة ، وخالف أعرافها ، و إذا به يعترف بقيام الطائرة بالتجسس ، ولكن ينكر إسقاط الروس لها ؛ فلو كان ذلك لهوت محترقة ، ولكن قائدها « باورز » اضطر للهبوط عندما تعطلت طائرته إثر اشتعال في محركها النفاث . و أعلن الرئيس الأمريكي - صراحةً - أن الطائرة كانت تقوم بجمع المعلومات ؛ بغية التحقق من صحة البيانات التي يقدمها الروس في مؤتمر نزع السلاح ، الذي تنعقد اجتماعاته في « جنيف » . ودافع بحرارة عن عمليات جمع المعلومات مدعياً أنها أصبحت من حقائق الحياة ، التي يجب على الدول أن تتقبلها ، مهما كان رأيها فيها سيئاً ، ومهما تنادت بعض الدول بإيقافها ؛ إذ إنّها ضرورة حتمية لتأمين سلامة الولايات المتحدة الأمريكية . وأضاف قائلاً : « إننا إذا كنا نقوم بالتجسس على الروس فإنهم يمارسون نفس العمل .» وأصر - ممعناً في الاستفزاز والتحدي - على حق بلاده في تأمين سلامتها ، وأن عمليات التجسس الاستطلاعي سوف تستمر .

وكان هذا الاعتراف وخيم العاقبة ؛ فقد زاد الحال سوءاً ، والأمور تعقيداً ، وأقض مضاجع كثير من الدول ، وهز ضمائر شعوب العالم . وكان من أبسط معانيه أن قائد الطائرة « فرانسيس باورز » قد صدر قرار إدانته من حكومته قبل أن يقدمه معتقلوه إلى

المحاكمة .

ومن ثم كان الطيار الأمريكي رجلاً كريماً أبلغ ما يكون الكرم مع مستجوبيه ؛ فلم يبخل عليهم بجواب ، ولم يحبس عنهم معلومة . وإنما فتح لهم قلبه ، وأطلق لسانه ، مؤثراً الحياة على الموت ، بعد أن عرف أن موته لن يكلفهم غير رصاصة واحدة تستقر في قلبه .

وكانت إجابته مدعومة بالوقائع والتواريخ ، مما صحح الكثير من معلومات جهاز المخابرات الروسي عن الأهداف والنوايا الأمريكية، وحصل بمقتضاها على معلومات لم يكن يحلم بها . وقد سجلت اعترافاته فيما يقرب من (٢٥٧) صفحة من القطع الكبير .

وحوكم قائد الطيارة في اليوم السابع عشر من أغسطس . وحكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات كاملة .

ولم يسدل الستار بذلك على حادث الطيارة ، فقد كان هناك حادث آخر يتصل به اتصالاً وثيقاً ، ويرتبط به ارتباطاً متيناً — قد فرض نفسه على مسرح الجاسوسية أو حرب الدهاء والمعلومات كما يطلقون عليها ، فقد ترددت فى منتصف صيف ١٩٦٠ وعلى وجه التحديد اليوم الأول من أغسطس أنباء عن اختفاء رجلين من العاملين في أكثر المسائل سرية ، في أعلى جهاز سري في الولايات المتحدة ، حيث لا تعرف اليد اليمنى ما تفعل اليسرى ، وهو وكالة الأمن القومي الأمريكي ، التي يرمز لها بالحروف (N.S.A.) والتي تتخذ مقرًا لها على بعد خمسة وثلاثين

كيلومتراً من واشنطن .

أصابت هذه الأنباء – التي ترددت بعد حادث الطيارة بثلاثة أشهر – كثيراً من الأمريكيين بشيء غير قليل من الفزع والقلق ، ولكن هذا الفزع وهذا القلق تصاعدا إلى صدمة عنيفة في دوائر المخابرات ، عندما عرف أن الرجلين قد غادرا « واشنطن » إلى « مكسيكو سيتي » ومنها طارا إلي العاصمة الكوبية « هاڤانا » . فاضطرت وزارة الدفاع الأمريكية إلي أن تصدر بياناً وجيزًا تقول فيه : « إنهما اختفيا في ظروف غامضة ، ويحتمل أن يكونا قد ذهبا إلى الاتحاد السوفييتي . » فازدادت بذلك علامات الاستفهام والتعجب ، وتعددت الروايات وتضاربت .

وقطعت جهيزة قول كل خطيب –كما يقول المثل العربيُّ القديم – فما كاد ينتصف نهار اليوم السادس من شهر سبتمبر ١٩٦٠ حتى انعقد مؤتمر صحافي على مسرح دار الصحافة في موسكو ، روى فيه الأمريكيان « وليم هاملتون مارتن » و« بيرنون فرجيسون ميتشيل » قدراً هائلاً من الأسرار التي تخص وكالة الأمن القومي الأمريكي ، وسردا كثيراً من المعلومات والتفاصيل المذهلة البالغة الحساسية والخطورة ، وقدما كثيراً من الحقائق والأرقام المذهلة ، مما كان قد وصل إلى علمهما خلال فترة السنوات الثلاثة التي قضياها في العمل إخصائيين في علم الشفرة ، في إدارة الأبحاث والتنمية التابعة للوكالة .

وكان من بين ما كشفه « مارتن » و« ميتشل » من أسرار خطيرة أن وكالة (N.S.A.) قد استطاعت أن تفك رموز أكثر الشفرات

الخاصة التي تستخدمها دول العالم ، مما أصبح يتيح لها التعرف على البرقيات المرسلة بالمذياع ، والأجهزة اللاسلكية ، والهاتف الإذاعي ، وما يلتقط بأقمار التجسس ، أو بطائرات مجهزة بوسائل تجسس على درجة عالية من التقنية ، أو بطريقة التجسس الإلكتروني.

وتقوم هذه الوكالة بتسجيل المكالمات والإشارات والاتصالات بأجهزة متناهية في صغر الحجم ، بأية لغة كانت ، وبأصوات واضحة ، ثم تعيد ترجمتها ، ومعرفة ما فيها من أسرار ومعلومات . كما لا يعجزها تسجيل الأحاديث التي تدور في أية غرفة مغلقة بوساطة أجهزة حساسة جدًا ، لا تتسنى رؤيتها بالعين المجردة . وهذه الوكالة لا يرد اسمها في الميزانية الأمريكية العامة ، بل ترصد لها الأموال الطائلة تحت أسماء مختصرة ، أو صيغ أخرى .

وأعلن الرجلان فيما أعلناه أن وكالة (سي . آي . إيه) تستخدم الطائرات الاستطلاعية لاقتحام المجال الجوي السوفييتي ؛ لكي تجمع المعلومات بوساطة أدوات وأجهزة صنعت خصيصاً لذلك ؛ حتى تتعرف على درجة الاستعداد الدفاعي ومدى كفايته ودقته ، وعلى أجهزة « الرادار » والمنشآت الدفاعية داخل الأرض السوفييتية .

وأوضحا أن هذا العمل - التجسس من الجو - يثير اشمئزازهما وينفران منه نفوراً شديداً ؛ لأنه يحمل طابع استفزاز وتحد للدول الأخرى . كما أعلنا عدم ارتياحهما لكثير من الأساليب التي تمارسها الولايات المتحدة في مجال جمع المعلومات . ومن ثم فإنّهما قد هربا إلى الأرض السوفييتية طائعين مختارين ، وإنهما

بمزيد الغبطة والسرور يطمعان في أن يكونا مواطنين سوڤييتين . وكان من أغرب الأسباب التي ذكرها الرجلان لاختيار روسيا وطناً لهما أن الاتحاد السوڤييتي « يشجع مواهب النساء » ، وأن ذلك يعلي – على حد تعبيرهما – من شأن المجتمع السوڤييتي ، ويجعل من المرأة السوڤييتية رفيقاً مرغوباً فيه .

ولكن الأدعى للضحك إلى حد البكاء – ما دام شر البلية ما يضحك – قولهما : إن الرجل السوڤييتي يقدم ذراعه اليمنى إلى السيدة التي بجواره في أثناء الطريق ، بينما الرجل الأمريكي لا يهتم بأي ذراع يقدمها لرفيقته ! كما أن الروسي فيه من التهذيب ما يجعله يتخلى عن مقعده للسيدات في أثناء ركوبه السيارات العامة أو القطار بينما الرجل الأمريكي لا يفعل ذلك !

واستشاطت المخابرات الأمريكية غضباً ، لا لأن الرجلين قد هربا ، فذلك الارتداد والهروب أمر معروف في مجال الجاسوسية ، ولكن الذي أثار المخابرات الأمريكية ما كانت تقوله التحريات عن الرجلين . وعلى الرغم من ذلك فقد تم استخدامهما باستمرار في مكان دقيق خطير .

كان كلا الرجلين ينتمي إلى ذلك النمط المثالي للأسرة الأمريكية .كانا يعيشان منفصلين في مساكن مخصصة لغير المتزوجين ، وكانا – باعتبارهما إخصائيين في علم الشفرة – في موقع ممتاز ، يسمح لهما بالاطلاع على كثير من أدق الأسرار ، وعلى الإلمام بكثير من مجريات الأمور في الوكالة . وكان الاهتمام المشترك بينهما هو علم الشفرة ، ونادراً ما يتحدثان في موضوع

سواه . ولم تكن لهما مغامرات عاطفية ذات بال ، على الرغم من وسامتهما وتمتع كل منهم بجسم رياضي .

كان « مارتن » في الخامسة والعشرين من عمره ، شغوفاً بدراسة علم النفس والتنويم المغناطيسي ، يحب الموسيقى - الكلاسيك - وإن كان لا يعرف عنها إلا قليلاً . أنهى دراسته الثانوية ، ثم قضى سنة مدرسية في كلية المعلمين « بالينسبرج » في « واشنطن » ، ثم جند في البحرية الأمريكية . وهناك التقى « ميتشل » حيث عملا معاً في قسم الشفرة . وحصل مارتن على منحة دراسية لمدة عام بجامعة « ألينوي » ، ثم جددت لمدة عامين . وما إن انتهى تجنيده حتى عاد إلى « واشنطن » للإعداد لدرجة الماجستير في الرياضيات .

أما ميتشل فكان في الحادية و الثلاثين ، أمضى شبابه في « يوريكا » بولاية « كاليفورنيا » . وكانت تستهويه الدراسات العملية ، ويشغف بالكتب التي تعالج فلسفة العلوم الرياضية . أتم دراسته الثانوية ، ثم قضى سنة ونصف السنة في معهد التكنولوجيا بولاية «كاليفورنيا » ، ثم جند في البحرية الأمريكية . وبعد أن أدى واجبه الوطني عكف على دراسة الرياضيات بجامعة « ستانفورد » .

ورشح الاثنان - مارتن ثم ميتشل - في مفتتح عام ١٩٥٧ للعمل بوكالة الأمن القومي الأمريكي إخصائيين في الرياضيات . وكان بدء عملهما في اليوم الثامن من يونيه ، براتب قدره ستة آلاف دولار في العام .

ونشط البحث بعد هروب الرجلين ، ونشط استقراء تاريخ

حياتهما ؛ وإذا الأمر يتكشف عن أن الرجلين كان يعربان عن مناهضة قوية للسياسة الأمريكية ، ويعارضان معارضة شديدة هذه الرحلات الاستطلاعية التي تقوم بها الطائرات فوق الاتحاد السوفييتي ، ويريان أنها تعمل على تعكير صفو الوفاق الدولي ، وتهديد السلام العالمي ، وزيادة حدة التوتر بين الشرق والغرب ، وتزايد خطر اشتعال الحرب .

كما اتضح أن الرجلين كانا قد انضما إلى الحركة الشيوعية في أمريكا عام ١٩٥٨ ، وأن لديهما اقتناعاً كاملاً بالمبادئ الشيوعية ، وإن كانا يظهران غير ما يبطنان : فهما يظهران معاداتهما للأفكار الشيوعية ، وينقدانها نقداً لاذعاً ؛ لكي يستطيعا الاستمرار في عملهما لتقديم خدماتهما للاتحاد السوفييتي .

ولقد كان بينهما وبين رئيس شبكة التجسس السوفييتي المقيم في « واشنطن » تعاون وثيق ، فقد زوداه في بداية عام ١٩٥٩ بمعلومات وافية عن نظام الشفرة الأمريكي ، وكان ذلك وراء الكشف عن رحلة « فرانسيس باورز » قائد الطائرة ذات الأجنحة العريضة ، التي كان السوفييت يطلقون عليها اسم « السيدة السوداء » في عالم التجسس .

وكان طبيعيًا بعد سقوط الطائرة ، وما انطوى عليه من فضيحة سياسية زعزعت الكثيرين في أمريكا ، وصدمت الكثيرين في العالم ، أن ينشط رجال مكافحة الجاسوسية المضادة في الـ (سي . آي . إيه) في بحثهم وتحريهم ؛ ليتعرفوا على الشفرة أو الشفرات التي تسربت

عن طريقها أنباء رحلة الطائرة . وخشي رئيس الشبكة الروسية في واشنطن على رجليّه مارتن وميتشل أن يفتضح أمرهما ، وقد يفتضح بذلك أمر الشبكة كلها ، ويكون الأمر وبالاً عليه وعلى عملائه ، فالموقف بات جادا ، والخطر أصبح وشيكًا ، فرأى الأخذ بأشد الاحتمالات سوءاً . اتصل بإدارة النقل والتحركات بمنظمته التي اصطنعت من التدابير ما يكفل نقل الرجلين إلى موسكو .

وفي هدوء ويسر تمت عملية نقلهما إلى الاتحاد السوفييتي ، وإن كانت أوراق هذه الرحلة لا تزال مطوية ؛ إذ ليس من شأن المخابرات أن تكشف من أوراقها إلا ما يخدم غرضها ، ويحقق هدفها . ولكن ما عرف عن هذه الرحلة يجعلنا نصفها بالهدوء واليسر ، فقد تقدم الرجلان يطلب كل منهما الحصول على إجازته السنوية ابتداء من ٢٤ يونيه ١٩٦٠ ، وأذاعا أنّهما سيقضيانها في زيارة أسرتيهما على الساحل الغربي لأمريكا . وفي يوم ٢٥ من شهر يونيه غادرا « واشنطن » إلى « مكسيكو سيتي » . وفي اليوم الأول من يوليه طارا من هُناك إلى العاصمة الكوبية « هاڤانا » ، الواقعة على مسافة نصف ساعة بالطائرة من ولاية فلوريدا الأمريكية والتي كانت تعتبر موقعًا أماميا للعالم الشيوعي في أمريكا اللاتينية حيث كانت تقع فى منطقة النفوذ و الهيمنة السوفييتية . ثم أبحرا بعد ذلك بوقت قليل إلى الاتحاد السوفييتي على متن إحدى سفن الصيد الروسية .

ولا شك في أن عملاء منظمة التجسس السوفييتي في « هاڤانا » كان لهم دور مذكور في عملية النقل هذه ، وإتمام إجراءاتها ، ونكاد نلمح أحد العملاء وهو يودع الرجلين في الميناء ، بعد أن

أشرف على العملية ، واطمأن على دقة تنفيذها .

بهذا الهدوء واليسر انتقل الرجلان إلى موسكو ، دون أن يثيرا ضجةٍ ، أو يحدثا زوبعة ، إلا يوم ظهورهما على مسرح دار الصحاف في موسكو ، فقد كان ذلك صرخة منكرة ، وصيحة مرعبة في وجه الولايات المتحدة الأمريكية . ولم يخلفا وراءهما من أثر إلا بياناً دعائيا ، كانا قد كتباه قبل رحيلهما بتوجيه من إدارة الصحافة في منظمة التجسس السوفييتي ، ذكرا فيه أن اقتناعهما الكامل بالفكر الشيوعي ، واعتناقهما لمبادئه ، هو السبب في هروبهما من الولايات المتحدة الأمريكية . ورغبا في أن ينشر هذا البيان في الصحف الأمريكية .

و قد عثر على هذا البيان في الخزانة رقم (١٤٧) في مصرف « لوريل » ماريلاند – المستأجرة باسم : ب. ف. ميتشل .

القرار المدمِّر

إنه لمن أشدِّ المواقف إيلاماً للنفس ، وأعنفها حرجاً للصدر ، وأكثرها إرهاقاً وإعناتاً ، وأفظعها إيحاشاً ، أن يقف إنسان ذلك الموقف الذي وقفه شاب سوفييتي، عادي الذكاء ، متواضع البديهة ، لا يتخطى عمره السادسة والعشرين . وكان شيوعيًّا بحكم أصله وفصله وسلوكه وأحلامه ، يعمل كاتباً للشفرة في مكتب الملحق العسكريِّ السوفييتي في « أوتاوا » عاصمة كندا .

ولا نذيع سرًّا إذا قلنا : إن عمل الملحق العسكري – بصورة عامة – ليس بعيداً عن عمل المخابرات ، بل هو منها جدُّ قريب . وإن موظف الشفرة – بطبيعة عمله – يطَّلع على أسرار كثيرة ، بالغة الأهمية ، قد لايتاح الاطلاع عليها للسفير نفسه .

ومن هنا ألفى « إيجور اسفير جوزنكو » عضو « الكوموزومول » – منظمة الشباب الشيوعية – ألفى نفسه يفكر في اتخاذ قرار خطير أشد الخطورة ، تحضُّه عليه ، وتزينه له زوجته « آنا » ، بعد أن تزعزع الإيمان بالشيوعية في نفسه ، وتخلخلت المبادئ التي نُشِّئَ عليها في وجدانه ، واضطرب الإحساس بالولاء لوطنه في قلبه – فراح يتخذ الوسائل التي قد تعينه فيما هو مُقْدم عليه ، ورأى أن ما بين يديه من

وثائق ومستندات هو أحكم سبيل لتنفيذ قراره ، فشرع يُثني أركان الوثائق التي يراها ذات أهمية ؛ كي يتعرف عليها في يسر وسهولة عندما يجيء الوقت الملائم ، فاختار أكثر من مئة خطاب وتقرير و وثيقة تثبت أن كثيراً من الدبلوماسيين السوفييت في العاصمة الكندية وفي غيرها من المدن ، يعملون في أعمال غير دبلوماسية . كما اختار بعض الوثائق ذات الأهمية البالغة و المتبادلة بين الخارجية السوفييتية والسفير في كندا ، وبعض الوثائق التي تكشف عن سرقة الأبحاث الذرية الكندية .

ولما كان جوزنكو قد تلقى دراسة قصيرة مركّزة في أعمال الخدمة السرية ، فقد استطاع أن يُبقي ملفات السفارة في حالة منتظمة ، لا يتسنى معها الكشف عما تخيره من بينها من وثائق ومستندات ، يستطيع أن يصطحبها معه في آخر لحظة قبل تركه خدمة بلاده .

تُرى ما البواعث التي تمور في نفس جوزنكو ؟ وما الدوافع التي تدفعه ليتخذ قرار الإقامة في وطن غير وطنه ، يتحدث لغة غير لغته ، ويمارس عادات غير عادات قومه ، ويحرق الجسور التي تربطه بعشيرته ؟ وما الأهداف التي تشده إلى الإقدام على هذا الموقف الخطير ؟ فلندعه يحدثنا بنفسه ، ويحكي لنا حكايته :

« لم تكن كندا بالنسبة لي ولزوجتي آنا مجرد بلد نؤدي فيه عملاً ، ثم نعود أدراجنا ، إنما كانت بلداً جديداً ، وحياة جديدة ، ومفاهيم جديدة ، وطرائق حياة جديدة ، فما أن قضينا سنة في ربوعها حتى كنا قد أحسسنا أننا نعيش حياة كندية تامة . لقد اهتزت مشاعرنا

اهتزازاً بالغاً و زلزلت المبادئ التي صبت في عقولنا زلزلة عنيفة ، وبدت الشيوعية في نظرنا كابوساً ثقيلاً جاثماً على صدورنا ، وأنها لا تعدو وهماً عقيديًّا لا يثبت أمام الحقيقة ، أو حلماً مزعجاً ينبغي للإنسان أن يتخلص منه عندما يصحو من نومه . إننا لم نكن نعرف للحياة معنى قبل أن نعيش في كندا ، ولم نذق لها قبل ذلك طعماً ، ولم ندرك الكُنه الذي يجعل الناس يحرصون عليها ، ويلهثون وراءها . لقد شعرنا أن كل ما حُشيت به أذهاننا من آراء ، وما أشربناه من معتقدات قد تبخَّر وذهب أدراج الرياح ، بل إن أرواحنا ذاتها قد ذابت في أجسادنا ، واتخذت صورة أخرى مغايرة لما كانت عليه .. صورة جديدة متطلعة إلى الحياة ، مقبلة عليها ، تنبض بإحساس واحد ، ورغبة واحدة ، هي الرغبة في السعادة ، والتمتع بمباهج الحياة . ولقد انعكس ذلك آثاراً سلبية على ولائنا للوطن وانتمائنا إليه .

« وعندما اقتربت نهاية المدة المقررة لخدمتي في كندا وهي سنتان حاولت جاهداً أن تتأجل هذه النهاية ، وأن تتأخر عودتي إلى موسكو . و لكن هذه المحاولات باءت بالفشل ؛ فسرعان ماوصل « كولاكوف » كاتب الشفرة الجديد ، وبات محتوماً عليَّ أن أعود إلى موسكو خلال أيام . ولم أعش هذه الأيام ، أو عشتها في صراع نفسيٍّ مرير ، وقلق صاخب عنيف : عيوني زائغة ، ونظراتي شاردة ، وفكري ساهم ، ومشاعري مضطربة مختلطة . وشرعت أفكر تفكيراً جادًّا فيما كنت قد اعتزمته من البقاء في كندا ، واتخاذ الخطوات التي تمكنني من ذلك . ولكنني كنت أسمع صوتاً داخليًّا ، يأتي

من أغوار عميقة ، يهتف بي :

« « ماذا تحاول أن تفعل يا إيجور ؟ هل يجول بخاطرك أن تكون خائناً لوطنك ؟ كيف تبيح لنفسك أن تتحول من مواطن أمين شريف إلى خائن لوطنك ، عدو لأهلك وعشيرتك ؟ أ لا تخجل من نفسك ؟ هل تستطيع – فيما بعد – مواجهة ولدك ؟ عن أي شيء تبحث ؟ أي هدف تسعى إليه ؟ إن ما تتعلق به لا يعدو أن يكون سراباً . لماذا لا تعود إلى الوطن في موعدك يا إيجور؟ إن الإحساس بأنك في بلدك ، بين أهلك وعشيرتك إحساس لا يقدر بثمن ، ولا يمكن إيفاؤه حقه من التقييم ، ولا تقديره حق قدره ، إلا حينما تفقده ، ويضيع منك ، فتتجرع غصص الغربة ، وآلام الحرمان من الأهل والعشيرة والوطن . لماذا تقطع يا إيجور ما بينك وبين الوطن من وشائج ؟ ستجتاحك الذكريات يوماً ما ، وستتحرق حنيناً وشوقاً إلى أهلك وعشيرتك ، وستندم ندماً لا نظير له على ما بدر منك ، ولات ساعة مَنْدم . لماذا تتنكر لوطنك ؟ لماذا تود أن تتردى في هاوية الخيانة بمحض إرادتك ، ودون أن يورطك فيها أحد ؟ لماذا تبيع رفاقك وأهلك وعشيرتك ؟ لماذا ترضى لنفسك أن تكون عيناً على وطنك بعد أن كنت عيناً له ؟ لماذا ترضى لنفسك أن تعيش مسخاً مشوهاً لا وزن له ولا قيمة بين الأحياء ؟ سيتنكر لك هؤلاء الذين سوف تقدم لهم أسرار وطنك على طبق من ذهب ، وسوف يزدرونك ، ولن يغفر أصدقاؤك خيانتك ، وستظل في أعينهم الخائن المذموم ، والمثل السيِّئ للشباب الذي يجب أن يذكروه ليجتنبوه . ماذا ستفعل يا مجنون ؟ أين مبادئك ؟ أين كرامتك ؟ لا .. لا .. لن تفعل ..

لن تفعل .. لن تخون وطنك .

« ‹‹ إن الأفق الذي يمتد إليه بصرك يا إيجور ينبغي أن تكون أعلام الوطن وحده هي التي تخفق على جنباته . ومن الخير لك أن تنسى تلك الأفكار التي اقتحمت عليك رأسك ، والتي لن تفيدك في شيء بل تزيدك نصباً ولغوباً . إن تغليب المصلحة الشخصية على المصلحة القومية هو طابع الخونة الجبناء ، فهل تقبل أن تكون واحداً منهم ؟ هل تدرك ما ينتظرك إذا ما فشلت خُطتك ؟ أنت قطعاً تعرف ، فهل تقدر على تخيل الكارثة التي تكون قد دفعت نفسك إليها دفعاً ؟ هل أنت غبيٌ إلى هذا الحد ؟

« ‹‹ ماذا يتبقّى لك يا إيجور بعد أن تضع نفسك في بؤرة الخيانة ؟ ماذا يتبقى لك بعد أن تعرض نفسك للبيع ؟ إن هؤلاء الكنديين لن يعاونوك إلا بمقدار ما يحصلون عليه منك من معلومات . وعندما يستنفدون منك أغراضهم سيلقون بك جيفة قذرة على قارعة الطريق .

« ‹‹ دعك من كل هذا الذي تفكر فيه يا إيجور ، وعد إلى أرض آبائك وأجدادك .. تلك الأرض التي نشأت فوق أرضها وتموت تحت سمائها . غذّتْك بخيراتها ، وأضحت كل قطرة دم فيك ترتبط بها ، وتُشد إليها بخيوط قوية متينة ، لا تَقْدر - مهما حاولت - على صرمها . من الخير لك يا إيجور أن تثوب إلى رشدك ، وتعود إلى وعيك ، وتنفي عن ذاكرتك وذهنك هذا الخبث الفكريَّ الذي ألمَّ بك . ›› »

وقضى إيجور أياماً بعد ذلك يتعذب . إنه يتمزق أسى وحسرة بين ما يرغب فيه وما يجب عليه أن يفعله .

تجذبه أضواء الحياة البهيجة في « أوتاوا » ، وتشده جذوره العميقة إلى موسكو . تقوم في ذهنه المقارنة الدقيقة بين الشيوعية التي نُشِّئَ عليها والرأسمالية التي يتطلع إلى الاستغراق فيها .

يحيره الاختيارُ حيرة عنيفة قاسية .. الاختيار بين واجبه الوطنيِّ المقدس ورغبته الشخصية .

لقد كانت أياماً فظيعة مفزعة ، عانى فيها إيجور معاناة قاسية ، وقاسى فيها أهوالاً نفسية رهيبة . ولكنها تمضي بغير توقف ، ولم يبق أمامه إلا أن يتخذ القرار .

وانتصرت الرغبة الشخصية على الواجب الوطنيِّ .

وقرر إيجور أن يسلك طريق الخيانة ، وأن يمضي فيه إلى نهايته ، ولتكن العواقب ما تكون .

وكانت الخطوة الأولى على درب الخيانة ، التي نفثت سمومها في روحه ، أن انطلق من مكتبه في السفارة السوفييتية بالعاصمة الكندية ، فيما بين الساعة السادسة والثامنة من مساء اليوم الخامس من سبتمبر ١٩٤٥ - راح من مكتبه وقد دسَّ الوثائق والمستندات في جيوب معطفه ، وسعى مباشرة إلى مكاتب صحيفة « أوتاوا » الكندية . وما هي إلا لحظة حتى كان يجلس في مواجهة رئيس تحريرها ، يعرض عليه ما في حوزته من وثائق سرية ، ويخبره باستعداده

لإفشاء أسرار ، وتقديم معلومات قد تكون في صالح الكنديين . وكل ما يريده أن تعتبره الحكومة الكندية لاجئًا سياسيًا ، تبسط عليه حمايتها ، وتوفّر له الأمن والأمان .

و وجد رئيس التحرير أمامه رجلاً عجيباً ، يقدم أغرب حكاية في تاريخ الأخبار ، وظن به الظنون : فقد تكون به لوثة عقلية ، وقد تكون خدعة من خدع المخابرات ، وقد يكون ما لديه من وثائق مزوراً ، فوعده بالنظر في الموضوع ، وطلب إليه أن يعود إلى سفارته بما يحمل من أوراق .

ولم يصغ إيجور للنصيحة ، وإنما رأى أنه يجب عليه أن يعمل بسرعة ، قبل أن يفلح عملاء السوفييت في اقتناصه ، فذهب إلى عدد من كبار الموظفين الكنديين ، وكلهم لم يعيروه انتباهاً ، ولم ينظروا إلى الموضوع نظرة جادة ، بل ردوه كما ردَّه رئيس التحرير ؛ فقد تكون فعلته هذه مؤامرة زجّت بها إحدى الوكالات المناهضة للسوفييت ؛ كي تكون سبباً في فضيحة تعرّض الحكومة الكندية للحرج البالغ .

وأصابت إيجور هذه المعاملة السلبية بنوع من الإحباط ، وكاد اليأس يبسط كفيه على صدره ، وبدأ يشعر أن هذا نذير من نذر السوء ؛ فهذه خُطته في بدايتها قد منيت بالفشل ، فبات ليلة ليلاء لم يذق فيها للنوم طعماً ، ولم يتوقف ذهنه عن التفكير ، وتخيُّل المستقبل المجهول . وفي الصباح وضع الوثائق في طرد غير منتظم ، وخرج هو وزوجته وابنهما « أندري » خرجوا يعاودون الكرَّ ،

ويحاولون الوصول إلى أية هيئة كندية أو موظف يستمع إليهم ، ويلقي بالاً إلى حديثهم . ولكنهم لم يجدوا آذاناً صاغية .

وأفرخ الرعب في صدر إيجور . وكان الليل قد أرخى سدوله ، وفي جنح الظلام وقعت أحداث مريبة غيرت الاتجاه . فقد اكتشف رئيس شبكة الجاسوسية السوفييتية في كندا « الكولونيل زابوتين » ، الذي كان اسمه الكودي « جرانت » والذي كان مقيداً في السلك الدبلوماسيّ على الملحق العسكريّ منذ صيف ١٩٤٣ حينما حل بالبلاد الكندية - اكتشف تغيُّب إيجور عن عمله ، كما اكتشف نقص بعض الوثائق التي وصلت حديثاً ، فأيقن أن الأمر ليس أمر مرض أو عذر مقبول . وفي الحال اتخذ إجراءاته على أن إيجور ليس في موضع الثقة ، وأن في الأمر خطراً موشكاً يجب الإسراع في تجنبه أو تلافيه . وأدرك أنه في سباق رهيب مع الوقت ، فالدقيقة قد تكلف ثمناً باهظاً . ويبدو أن زابوتين كان يرى المستقبل - مستقبله هو - بعين لا تخطئُ .

أمر « ڤيتالي باڤلوف » مساعد رئيس الشبكة السوفييتية الذي كان يتستر وراء العمل سكرتيراً ثانياً في السفارة - أمر اثنين من رجاله بمراقبة شقة إيجور الواقعة في المنزل رقم ٥١١ بشارع سومرست وإبلاغه فور وصوله إليها . وحينما وصل إيجور وزوجته وابنه نحو الساعة السابعة مساء ذهبت مجموعة محدودة برئاسة باڤلوف إلى الشقة ولكل منها عمل معين ، وكانت مهمتهم دقيقة : إذ كان عليهم أن يدخلوا الشقة ، ويجروا تفتيشاً دقيقاً لاستعادة الأوراق التي سرقها إيجور ، ويرغموه على الذهاب معهم ، أو يختطفوه إذا

استدعى الأمر . وكل ذلك دون إذن قانونيٍّ من السلطات الكندية المختصة .

أحس إيجور بمراقبته ؛ فلم يدخل شقته و إنما دخل شقة أحد الجيران وهو « مين » ، الذي يعمل رقيباً بالقوات الجوية الكندية ، وكذلك خلّى بين مجموعة باقلوف وبين الشقة ، فكسرت قفلها وقامت بفتحها ، وقلبت محتوياتها . وقام إيجور بإبلاغ الشرطة الكندية التي جاءت مسرعة . ولم يستطع باقلوف أن يذكر سبباً لكسر قفل الشقة واقتحامها ، لكنه طالب مفتش الشرطة الكنديٍّ بمغادرة المكان فوراً ؛ إذ إن إيجور أذن له بدخول الشقة في غيابه ، وألمح إلى أن مركزه الدبلوماسيٍّ ينبغي أن يكون كافياً لإشباع فضول رجال الشرطة ، ولكن مفتش الشرطة لم يقتنع بما أبداه باقلوف ، ورفض مغادرة المكان إلا بعد أن يغادره باقلوف ورفاقه . وتم له ما أراد .

أثار حادث الاقتحام هذا اهتمام السلطات الكندية ، وفي سرية تامة وفي ظل حراسة قوية ، نقل إيجور وأسرته في صباح اليوم السابع من شهر سبتمبر إلى مكان أمين ، و وضعوا تحت رعاية الشرطة وعدتهم الحكومة الكندية لاجئين سياسيين ، ومنحتهم حمايتها ، وأولتهم رعايتها ؛ فأصبحوا بمأمن من باقلوف ورجاله . لا تصل إليهم أيديهم ، ولا يتوجسون منهم خيفة . ولكن بذلك انتهت حياة المواطن الشريف إيجور لتبدأ حياة اللاجئ الخائن إيجور .

تكلم إيجور كثيراً ، فقد كانت لديه كمية موفورة من المعلومات ،

وقضى مستجوبوه الكنديون وقتاً طويلاً في استجوابه ، حتى نضب معينه ، ولم يعد لديه ما يضيف . وكان يخامر الكنديين بعض الشك فيما أدلى به إيجور ولكن الأيام أقامت الدليل على صدق وصحة ما رواه .

ولا نكشف سرًا حين نقول : إن معظم أفراد السلك الدبلوماسيّ والقنصليّ يقومون بدور إيجابيّ في أعمال التجسس ما عدا السفير ، فإنه يحظر عليه المشاركة في ذلك بأي وجه من الوجوه ؛ حتى يتاح له إذا ما ضبط أحد الموظفين متلبساً أن ينفي علمه بذلك – وهو صادق فيما يقول – ولا يتأتى لأحد في هذه الحال أن يوجه إليه لوماً على عمل قام به موظف في وقت فراغه ، بعيداً عن مبنى السفارة. ومن ثم فقد بعث السفير السوفييتي في كندا زاروبين ظهر يوم السابع من سبتمبر ١٩٤٥ مذكرة احتجاج إلى وزارة الخارجية الكندية ، وكانت صياغتها أقرب إلى الإنذار منها إلى الاحتجاج ، ذكر فيها بكبرياء متناهية وصلف لا حدَّ له أن الموظف السوفييتي إيجور اسفير جوزنكو قد اختلس نقوداً كانت في حوزته من السفارة ، وأن على الحكومة الكندية أن تقوم بتسليمه فوراً ، كما طلب في ختام المذكرة أو الإنذار معاقبة رجال الشرطة الذين أظهروا وقاحة متناهية في أثناء اصطدامهم برجال السفارة في شقة إيجور .

ومضت فترة تجاوزت ثلاثة شهور على أحداث تلك الليلة ، والجهات الرسمية الكندية صامتة . ولم يصدر أمر باعتقال أحد ، فظن الروس أن صاحبهم إيجور لم يفصح عن شيء ، وسادهم اعتقاد بأن الأمر لا يعدو أن يكون سحابة صيف قد انقشعت . ولكن تحت

الرماد اللهيب ، ففي ستار هذا الصمت الرهيب كان الكل يفكر ويخطط ويهم بالحركة بعيداً عن الإعلان والضجيج .

ثم حدث ما لم يكن يتوقعه أحد .

فقد غادر الكولونيل زابوتين الملحق العسكري السوفييتيّ في كندا أوتاوا فجأة ، في اليوم الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، دون أن يخطر وزارة الخارجية الكندية برحيله ، مخالفاً بذلك الأعراف الدبلوماسية . صعد إلى الباخرة الروسية « ألكساندر سوفوروف » التي تجاهلت التقيد بتعليمات إدارة الموانئ الكندية ، وأبحرت في جنح الظلام متوجهة إلى موسكو . وما إن بلغ زابوتين موسكو حتى وُجه إليه لوم شديد على إساءته الإعداد لما كلف به من مهام ، واتهم بأنه السبب في خيانة إيجور وقدم للمحكمة التي قضت بمعاقبته بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة .

وفي اليوم الخامس عشر من فبراير ١٩٤٦ أعلنت الحكومة الكندية أول مذكرة رسمية لها في الموضوع . أبرزت فيها الحقائق المجردة والتفاصيل الكاملة بشأن اكتشافها شبكة جاسوسية واسعة النطاق ، تعمل لصالح دولة أجنبية ، وأغفلت اسم الدولة الأجنبية عمداً ؛كي تتحاشى المواجهة السياسية مع الاتحاد السوفييتيّ ، حرصاً على علاقاتها معه . ولكن هذه المذكرة – مع أنها أغفلت اسم الدولة الأجنبية – أدت إلى غضبة عنيفة في موسكو ؛ فراحت الصحف الروسية تشن هجوماً ضارياً على الحكومة الكندية ، معلنة أن كندا تعمل على خلق وضع خطير موجه – بالدرجة الأولى –

إلى الاتحاد السوفييتي .

وفي العشرين من فبراير ١٩٤٦ حاولت الحكومة الروسية إثارة الضباب حول الموضوع ، وعمدت إلى التشكيك فى مضمونه ، بل إلى تكذيبه من أساسه ، فأصدر نائب وزير الخارجية السوفييتيّ « سولومون لوزوفيسكي » بياناً يهدف إلى تمييع القضية ، وطمس معالمها ، وإخفاء حقائقها ، وتبرئة الحكومة السوفييتية . مما نسب إليها وألصق برجالها إلصاقاً ، لا تدعمه بينة ، ولا تقوم عليه أدلة .

قال البيان : « علمت الدوائر الرسمية في الاتحاد السوفييتيّ أنه في الأونة الأخيرة من الحرب - يعني الحرب العالمية الثانية - تسلّم بعض موظفي مكتب الملحق العسكريّ السوفييتيّ في كندا بعض وثائق تحتوي على معلومات سرية من بعض أصدقائهم الكنديين . وهذه المعلومات ليست بذات قيمة للاتحاد السوفييتيّ ، فهي ذات صبغة فنية تجاوزها الاتحاد السوفييتيُّ بمدى طويل ؛ نظراً لما أحرزه من تقدم ملموس في هذا المجال ؛ فمن دواعي السخرية القول بأن هذه المعلومات تضرُّ بمصلحة الأمن القوميّ الكندي وقد استدعت الحكومة السوفييتية الملحق العسكري من كندا لمحاسبته على ما قام به مرءوسوه من تصرفات غير قانونية . »

وفي اليوم نفسه نشرت صحيفة « البراڤدا » السوفييتية الرسمية مقالاً كالت فيه الاتهامات للحكومة الكندية . اتهمتها بانتهاج سلوك معاد للاتحاد السوفييتيّ والسعي لإلحاق أضرار سياسية به . وأوضحت أن ما حدث مؤامرة دبرتها القوى الاستعمارية ، وشجعتها

الحملة المناهضة للسوفييت ، فكل ماجاء بالمذكرة الكندية لا أساس له في الواقع ، وهو محض افتراءات لا يسندها دليل ولا يدعمها برهان ، وأن على الدولة – أيه دولة – أن تتحمل تبعات سلوكها وما يجلبه من ردود أفعال ، قد تكون غير متوقَّعة ، ومن الطبيعيّ أن أيّ دليل فنيّ يقدمه الكنديون إنما هو دليل مزور .

وتصاعدت القضية ، وتسارعت إيقاعاتها بشكل مثير على الصعيدين الروسيّ والكنديّ . وظهرت في الصحف الكندية غمزات ضد الاتحاد السوفييتي ، كان من أطرفها تعليق يقول : « إن المخابرات الروسية لم ترتكب غير خطأ واحد ، هو أنها أعدت إيجور لتنفيذ أغراضها ؛ لأنها عندما اختارته قد اختارت رجلاً ، ليس لديه أي دافع سوى الرغبة في الفرار بجلده من العالم السوفييتيّ . »

و وسط هذا الجو المتوتر نشرت صحيفة « أوتاوا » الكندية خبرًا صغيراً ، على عمود واحد في مكان بارز من الصفحة الأولى ، يقول : « صرح مصدر حكوميّ رفيع المستوى بأن المواطن السوفييتيّ إيجور اسفير جوزنكو طلب إلى السلطات الكندية أن تمنحه وعائلته حق اللجوء السياسيّ ، كما طلب الحصول على الجنسية الكندية وقد فُهم أن مجلس الوزراء قد وافق على هذا الطلب . »

وكان هذا الخبر القصير شديد الخطورة . ففي اليوم السابع من مارس ١٩٤٦ شُكلت لجنة كندية للتحقيق ، وفتحت أمامها كل الأبواب ، و وضع بين يديها كل ما تجمع من حقائق ، وقامت اللجنة ببحث واف دقيق للمسألة كلها .كما أولت عناية بالغة

للكيفية التي يجند بها الروس عملاءهم ، وكانت حيرتها شديدة ؛ لأنها لم تجد جواباً لسؤال : لماذا قبل هؤلاء الناس القيام بهذا العمل ؟ ولماذا تاهت من أقدامهم الطريق الصحيحة ؟ كما جهدت اللجنة في التقصي عن حجم المعلومات التي حصل عليها الروس وأهميتها ، والآثار التي يمكن أن تترتب عليها . ولكنها لم تستطع التكهن بشيء في هذا السبيل ؛ لأن عملية التجسس قد استغرقت وقتاً طويلاً ، واستمرت عدة سنوات ، كانت كافية لأن يتسرب قدر كبير من المعلومات السرية الكندية إلى الروس .

وبعد تحقيق متأنٍّ طويل استغرق ألفين وستمئة وخمساً وتسعين ساعة ، اشترك في إجرائه تسعة وعشرون محققاً ، سئل فيه مئة وسبعة وعشرون شخصاً ؛ ظهر تقرير ضخم حول الموضوع يقع في سبعمئة وخمس وعشرين صفحة . واتضحت حقيقة شبكة التجسس السوڤييتية في كندا ، وأثار انكشافها ردود فعل عاصفة ، كانت لها أصداء قوية خطيرة في أكثر من عشر دول ، كما نتج عنه القضاء على عدد من شبكات التجسس السوڤييتيّ في كندا وأمريكا وفي بريطانيا ، وتحطيم عدد من العملاء السوڤييت ، منهم علماء الذرة : الدكتور « ألان ناي باي » ، والدكتور « كلاوس فوخس » ، والدكتور « بورنو بونتيكورفو » ، وكبير الجواسيس السوڤييت في نيويورك « هاري جولد » و رقيب في الجيش الأمريكيّ يدعى « داڤيد جرينجلاس » كان يعمل في معمل سريٍّ للأبحاث الذرية في أوك ريدك بولاية تنيس الأمريكية ، وشقيقته إينيل وزوجها « جوليوس روزنبرج » . وقد تم تنفيذ حكم الإعدام في الأخيرين في يونيه ١٩٥٣ ؛ ليكونا أول أمريكيين

يحكم عليهما بالموت في وقت السلم بتهمة الجاسوسية .

وقد أثارت عملية القبض على هؤلاء جميعا شبح كارثة حقيقية في موسكو بالمعنى الحرفيّ الدقيق لهذه الكلمة .

وكانت إذاعة تفاصيل هذه الشبكة ، والكشف عن أسرارها ، والإعلان عن خباياها وفضح الأساليب التي يصطنعها الروس في تجنيد العملاء — كان ذلك بمثابة إعصار قوي مدمّر نزل بساحة الـ « كى . جي . بي » فأربك خططه ، وهز ثقته بنفسه ، وألقى عليه عبئاً جديداً في تعديل مساره ، وتدارك أساليبه ، مما كان له أثر لا يجحد على نشاطه فترة غير قصيرة .

ولكن المحكمة الكندية كان يسودها كثير من التسامح في هذه القضية الأولى من قضايا الجاسوسية الدولية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، فمن بين عشرين متهماً قدّموا إليها برأت سبعة ، وقضت على الآخرين بعقوبة السجن مدداً متفاوتة . لقد كانت أحكامها تحذيراً أكثر منها عقاباً . وكان من بين المحكوم عليهم ستة رجال من كندا على رأسهم « فريدروز » عضو البرلمان الكنديّ ، ورئيس مجموعة « أوتاوا — تورنتو » بالحزب الشيوعيّ الكنديّ ، الذي قدم للمخابرات الروسية تقريراً شاملاً عن إحدى الجلسات السرية لمجلس النواب ، ومنهم « سام كار » سكرتير الحزب الشيوعيّ الكنديّ ، الذي اعترف بخيانته وطنه وهو يقول : « ليس جريمة أن أكون شيوعيًّا . »

أما إيجور الذي حاطته الحكومة الكندية برعايتها و بسطت عليه

وعلى أسرته رواق حمايتها ، فقد استقرت به الحال مع أسرته في مكان ما في الريف الكنديّ ، وقد تبدلت ملامحهم ، وتغيرت أشكالهم ، كما تغيرت أسماؤهم ، واستبدلوا السيد بالرفيق ولكن ما نظن أنه كان يمسي آمناً ، ويبيت مطمئناً ؛ فهو يدرك إدراكاً تامًّا أن جهاز « كي . جي . بي » مستطيع أن يبلغه في مأمنه إن أراد ، ومستطيع أن ينقله – بوسيلة مشروعة أو غير مشروعة – إلى موسكو إن رغب ؛ فكثيرة هي الحوادث التي قضى فيها بعض الروس الذين فروا نحبهم في ظروف غامضة ، وتستعصي على الحصر تلك الحوادث التي استخدمت فيها إدارة النقل والتحركات بالجهاز مهارتها ، ولعبت باقتدار دورها .

وصمة عار

خيَّم الصمت على قاعة محكمة « أولد بيلي » في لندن ، في اليوم الثالث من شهر مايو عام ١٩٦١ ، وتطلعت عيون الحاضرين إلى رئيس قضاة المحكمة اللورد « باركر » ، وتعلقت أبصارهم بشفتيه ، وأرهفت آذانهم لما ينطق به . وبعد فترة خالها الحاضرون دهراً طويلاً قطع رئيس القضاة حبل الصمت ، وبدأ صوته الهادئ الرزين يملأ جنبات القاعة . قال موجهاً حديثه إلى « جورج بليك » الموظف البريطانيِّ في إدارة المخابرات الحربية البريطانية : « لقد استمعتُ باهتمام إلى كل كلمة تفوهت بها ، وإلى كل كلمة نطق بها محاميك دفاعاً عنك ، وأصبحت على استعداد لأتقبل الرأي القائل بأنك لم ترتكب جريمتك طمعاً في المال ، ولكن رغبة في خدمة المبدإ الذي تدين به ، وهو الشيوعية . وإذا كانت حرية الرأي مكفولة للمواطنين ، ولكل إنسان الحق في أن يقتنع بما يشاء من أفكار – فقد كانت خطورة جريمتك أنك لم تترك وظيفتك ، وإنما سعيت بجدٍّ واقتدار إلى أن تحوز ثقة رؤسائك ؛ وذلك من أجل أن تلعب دوراً خسيساً ، لا يلعبه مواطن يتَّسم بسمة واحدة من سمات الشرف . »

واستطرد رئيس القضاة يقول : « إن جريمة الخيانة تتجسد فيك

كاملة ، وتلفُّك من قمة رأسك إلى أخمص قدميك . ولا نجد لك مبرراً واحداً لارتكابها ، كما لا يمكن لأحد أن يبرر جريمة الدعارة . فالخيانة ليست عملاً تجاريًا ، وليست عملاً سياسيًا ، وإنما هي في المقام الأول عمل يتصل بالأخلاق . لقد فررت من الاضطهاد السياسيِّ في هولندا بسبب ما كنت تعتنقه من آراء ، فكان أن منحتك هذه الدولة حق الالتجاء ، هذا الحق الذي تفخر بأنها توليه جميع المضطهدين في أوطانهم بسبب آرائهم السياسية ، كما منحتك هذه الدولة شرف الانتماء إليها ، وأسبغت عليك جنسيتها . ولكنك لم تَرْع لهذه الدولة التي آوتك حرمة ، فخنت ذمتها ، وعضضت يدها التي أطعمتك . لقد عجزت عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة فحفرت قبرك بيديك ، غير مأسوف عليك . »

ثم ختم رئيس القضاة حديثه بقوله : « لا شك في أنك خاوي الوفاض من الرصيد الأخلاقيِّ ؛ ولذلك ارتكبت بدون وازع من ضمير خمس جرائم اعترفت بها ، ومن الطبيعيِّ أن يكون العقاب متساوياً مع حجم الخطأ . هذه موازنة عادلة ينبغي أن تقوم عليها حياة الناس . ومن حسن طالعك أن القانون البريطانيَّ لا يعد الجاسوسية في وقت السلم خيانة عظمى فتكون عقوبتها الإعدام . ولذا فكل جريمة من جرائمك الخمس عقوبتها السجن أربعة عشر عامًا ، ولكنِّي سأعد الجريمتين الرابعة والخامسةجريمة واحدة ، ومن ثم يصبح مجموع سنوات سجنك اثنتين وأربعين سنة . هذا هو حكمي عليك . »

انحنى بليك انحناءة خفيفة أمام منصة القضاء ، ثم سار بخطوات

بطيئة متثاقلة ، كأنما يجر قدميه جرًّا ، في طريقه إلى سجن لندن ، فقد كان مدركًا أنه لن يخرج من السجن إذا قدر له أن يمضي مدة العقوبة كاملة إلا وقد انحنى ظهره ، وابيضّ شعره ، فسيكون في الحادية والثمانين من عمره .

ولكن ما إن أطل على لندن فجر اليوم الثاني والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٦٦ حتى هرب بليك من السجن . خلّصته من السجن جهة ما نظنها خافية عليك ، وفقًا لخطة مدروسة بعناية وحرص شديدين . واكتُشف أمر فراره بعد تسعين دقيقة من وقوعه ، وكانت هذه فترة كافية لأن يغادر لندن إلى أية جهة يريد « بأوراق شرعية » أعدها له أولئك الذين تعنيهم حياته ، و يحرصون على بقائه .

وقامت الدنيا ولم تقعد ، وانقلبت رأسًا على عقب في إدارة المخابرات البريطانية ، وشمر رجالها عن سواعدهم ، وتعاونوا مع رجال الشرطة « سكوتلاند يارد » وراحوا ينقبون في كل شبر من الأرض الإنجليزية بحثًا عنه ، ولكنهم لم يعثروا له على أثر ، فكأنما انشقت الأرض وابتلعته .

وجورج بليك هذا الذي أقام الدنيا ولم يقعدها في المخابرات البريطانية ، وفي إدارة الشرطة ، رجل من أصل هولنديٍّ . ولد عام ١٩٢٢في أسرة يهودية ثرية ، وكان اسمه الأصليُّ جورج ألبرت بيهار . قضى مراحل تعليمه الأولى في هولندا . وبعد وفاة والده انتقل إلى مصر ليقيم مع بعض أقربائه ، والتحق بالمدارس الإنجليزية فيها ، ثم عاد إلى هولندا ليتم دراسته العالية في روتردام .

وحينما اكتسح النازيون هولندا لم يرحل عنها مع بعض أفراد أسرته ، بل بقي يتم دراسته في رعاية أحد أعمامه . وأنهى دراسته ، وانخرط في أعمال مقاومة النازية ، وكان من بين الأعضاء البارزين في حركة المقاومة ؛ ومن ثم طارده رجال « الجستابو » النازيّ مطاردة عنيفة ففرَّ إلى إنجلترا عن طريق فرنسا وألمانيا .كان ذلك في عام ١٩٤٣ .

في ربيع هذا العام - ١٩٤٣ - ألقى « بيهار » عصا الترحال في إنجلترا وحصل على حق اللجوء ؛ لأنه فرَّ إليها مضطهداً بسبب ما يعتنقه من آراء سياسية . واستبدل باسمه اسم بليك واكتسب الجنسية الإنجليزية ، وتطوع للعمل في البحرية الملكية البريطانية . ولأنه يجيد لغات عدة ؛ ارتقى سلّم الترقي سريعًا ، فأصبح ضابطًا من الدرجة الثانية في فترة وجيزة ، وكانت كبرى أمنياته أن يتاح له العمل في إدارة المخابرات . وكانت لغاته التي يجيدها خير معين له في تحقيق أمنيته ، فعُيِّن في وظيفة إدارية هناك ، حيث تعلَّم الكتمان في هذا المكان الحساس الخطير .

وفي الثلث الأخير من عام ١٩٤٤ نُقل إلي وظيفة مترجم ، تقتصر مهمته على ترجمة الوثائق والمستندات الألمانية التي تقع في أيدي الحلفاء . ثم أرسل إلى « هامبورج » ليستجوب قادة الغواصات الألمانية الذين يتمكن الحلفاء من أسرهم .

وفي شتاء عام ١٩٤٦ تم تسريحه من عمله ؛ كي يلتحق بجامعة « كامبردج » ليدرس اللغة الروسية تظاهراً بأنه سيُرشَّح في وظيفة في وزارة الخارجية البريطانية ، بينما كانت مهمته الحقيقية عميلاً سريًّا في قسم ٦ بالمخابرات البريطانية .

ولكنه ما إن أنهى دراسته حتى نقل إلى عاصمة كوريا الجنوبية سيول ؛ ليكون عميلاً سريًا هناك تحت ستار وظيفة « نائب القنصل » التي تكفل له الحصانة الدبلوماسية ، و تيسر له تأدية عمله .

وما إن حلَّ صيف ١٩٥٠ حتى اندلعت شرارة الحرب الكورية ، ودارت رحى القتال تطحن دون هوادة . واجتاحت الجيوش الشيوعية مدينة سيول وحدثت أفعال وردودها ، هوجمت على أثرها السفارة البريطانية ، واعتقل بعض العاملين فيها ، كان من بينهم بليك ، ولم يكلل أي نشاط بالإفراج عنهم ، سواء ما اتصل بالنشاط الدبلوماسيّ أو بالصليب الأحمر ، حتى كان وقف إطلاق النار ، وتبادل الأسرى ، فتم الإفراج عن بليك . وفور وصوله إلى لندن في ربيع ١٩٥٣ عُين لكفايته واقتداره في رئاسة قسم ٦ بالمخابرات البريطانية . وكان أمر هذا التعيين غريباً عجيباً ؛ فالقانون البريطانيُّ يشترط – صراحة – أن يكون جميع ضباط هذا القسم من أصل بريطانيٍّ .

ولكن ما خفي عن إدارة المخابرات البريطانية كان أعظم وأعجب ، وما جهلته كان أدهى وأمرَّ . فقد تعرَّض بليك في فترة أسره وسجنه في « كوريا » لعملية يطلق عليها الغربيون « عملية غسيل المخ » ؛ لما يرافقها من تطهير لكل ما كان قد رسخ في مخ الإنسان من ماضيه البعيد أو القريب . في حين اصطلح الشرقيون على تسميتها « تبديل العقيدة » ؛ لأنها تؤدي بالفرد الذي يمر بمراحلها المتعددة إلى أن يقتنع – ولو لوقت محدود – بمبادئ قد تكون مغايرة أو مناقضة لكل ما كان يتشيَّع له من قبل .

تعرض بليك وزملاؤه لعملية التأثير هذه ، أو التحكم في التفكير حيث حاول الشيوعيون تدمير ما يدينون به من مبادئ ، فاستخدموا معهم أساليب متطورة ، أتقنوها إتقاناً بالغًا ؛ لحملهم على اعتناق الشيوعية ، والتفسيرات الرسمية للتعاليم الماركسية ونجح الروس في إيقاع بليك تحت تأثير الإغراء باعتناق الشيوعية ؛ وذلك بسبب فهمهم الجيد لقواعد الفسيولوجيا الأساسية التي تعلموها من تجاربهم على الحيوانات ، وعن طريق اختبار اكتشافاتهم التجريبية التي قام بها علماؤهم ، وعلى رأسهم عالم فسيولوجيا الأعصاب « إيفان بتروفتش بافلوف » . نجح الروس في التأثير على عقله وتفكيره ، وفي توجيهه أيديولوجيًا ، فأصبح مقتنعاً بالمبادئ الشيوعية، مستعدًا للعمل في سبيلها . ومن ثم وضع جهاز المخابرات الروسي خطَّته ؛ لكي يتحول بليك عميلاً سوفيتيًا متى سنحت الظروف .

إنَّ عملية « غسيل المخ » هذه أو « تبديل العقيدة » ليست مجرد عملية لاستخلاص الأسرار ، وإنما هي عملية تأثير عقل في عقل ، تهدف إلى التحكم في أداء الإنسان والسيطرة على تفكيره ، وتوجيهه إلى الغايات السياسية والدعائية المطلوبة .

تزوج بليك بعد عودته من كوريا من « جيليان » الموظفة بوزارة الخارجية البريطانية ، إثر قصة غرامية . ثم نُقل إلى برلين الغربية في بداية ربيع ١٩٥٥ ؛ ليعمل في شبكة الجاسوسية التابعة للمخابرات البريطانية . وبعد فترة وجيزة من استقراره في برلين الغربية كان عليه أن يعقد صلة مع عميل ألمانيٍّ – بناء على تعليمات تلقاها من

رئاسته - يعمل لحساب المخابرات البريطانية ، وكان هذا العميل هو هورست إيتنز . وسرعان ما توطدت بينهما الصداقة ، و توثقت عراها ، واكتشف بليك أن هذا الرجل عميل مزدوج ، فهو يتقاضى راتبه من البريطانيين ، ويضع نفسه في خدمة الروس .

وعملية التوجيه عن طريق العملاء المزدوجين عملية قديمة في الجاسوسية ، إذ يحدث أن يكتشف جهاز مخابرات ما أمر جاسوس . وبدلاً من أن يعتقله يوجهه ويستفيد من خدماته ، دون أن يشعر بذلك الجهاز المضادُّ ، ويمده بالمعلومات التي تُعد بطريقة خاصة ، توحي بخطورتها على الرغم من تزييف الكثير من جوانبها ، حتى يتمكن من اكتساب ثقة رؤسائه ، في الوقت الذي يضللهم ويعبث بهم .

وانساق بليك نتيجة ما تعرض له من قبل مع صاحبه ، وقام بعدة رحلات إلى برلين الشرقية للاتصال برؤساء هذا العميل . ولكن هذا الازدواج كان معروفًا لجانب واحد هو الجانب السوفييتيُّ ، الذي كان يمده بما يريد أن يقدمه للجانب البريطانيِّ من معلومات معدة بعناية فائقة ، ويخيل إليه أنها صحيحة دقيقة ، على حين كشفت المعلومات التي بعث بها بليك إلى الروس عن أخطر خُطط و وسائل وأهداف المخابرات البريطانية .

ظلت هذه حال بليك سنوات ثلاثًا ، حتى خشي افتضاح أمره فآثر أن يحتاط لنفسه ، وأن يتوقف عن الازدواج قليلاً ، وأن يتغير مكان عمله فطلب إلى رؤسائه البريطانيين نقله من برلين ، فأجيب إلى رغبته ، وعاد ليقيم في إنجلترا ، ثم نقل ليعمل في العاصمة اللبنانية بيروت .

وقبل أن يصل بليك وزوجته جيليان إلى بيروت كان هورست إيتنز قد وقع في قبضة المخابرات البريطانية ، وهو يمارس لعبته المزدوجة باطمئنان شديد ، ولا أحد يدري كيف تم اكتشافه ؛ فتلك أسرار لا تكشف عنها أجهزة المخابرات إلا عندما تريد ، وبالقدر الذي يحقق أهدافها . ولكن يُرجَّح أن تكون إذاعاته اللاسلكية قد اكتشفت بوساطة أجهزة التنصُّت والمراقبة بجهاز المخابرات البريطانية .

وأعلن هورست في استجوابه أنه لا يشك في بليك ، وإذا كان ثمة شك في أن أحداً قد وشى به فإن بليك آخر من يتطرق إليه الشك ؛ ذلك أنه كان خير عميل قدم للسوفييت خدمات عظيمة ، ومعلومات ثرّة ، أثناء إقامته في برلين ، ومن هنا كان العلم بازدواج بليك .

ولم يأخذ الجهاز البريطانيُّ شهادة هورست على علاتها ، وإنما عمل على التحقق من صحتها ، والتأكد مما جاء بها ، واستطاع بوسائله أن يتثبت من كل كلمة وردت فيها ، ومن ثم صدرت التعليمات سريعة إلى بليك بالعودة إلى إنجلترا ، في آخر مارس ١٩٦١ . فعاد مسرعاً ، دون أن يكون له علم بما حدث . ودون أن يدري ما يخبئه الغد له .

وما إن هبط من الطائرة في مطار« هيثرو » ، مطار لندن الدوليّ ، حتى كانت المفاجأة التي هزت أعماقه هزًّا عنيفاً ، وأصابت رأسه بدوار قويٍّ شديد . لكنه تمالك نفسه ، واستجمع قواه ؛ كي يستطيع مجابهة الأزمة التي تعترضه . لقد وجد رجال جهاز مكافحة الجاسوسية في انتظاره ، فأدرك بفراسة الجاسوس ما هو مُقدم عليه ،

وأطاع تعليماتهم في هدوء ، فلم يكن له غير الإذعان والرضوخ . وضعوا عصابة سوداء فوق عينيه ، واقتادوه إلى مقر رئاستهم دون أن ينبسوا ببنت شفة . وفي مقر الرئاسة أصابته مفاجأة أخرى فأصْمَتْه ؛ فقد عرف أن هورست قد اعتقل .

لقد اقتنع أن اللعبة قد انكشفت ، وأن اللاعبين قد انفرط عقدهم فانهارت أعصابه ؛ وسيطر عليه الجزع ، ولم يلبث أن كتب اعترافاً شاملاً ، أقرَّ فيه بما فعل ، ولكنه حاول تبرير فَعلته بأنها كانت من وحي إيمانه العميق بالمبادئ الشيوعية ، وليست طمعاً في جمع المال فهو قد فعل ما فعل خدمة لما يدين به من مبدإ ؛ وسعياً إلى تحقيق هذا المبدإ في حياة الناس ، وليس حبًّا في المال ، وجرياً وراءه كما يلهث كثير من الناس .

اعترف بليك أنه يعمل في خدمة السوڤييت منذ تسع سنوات ونصف السنة ، أي منذ أن وقع أسيراً لديهم . اعتنق فكرهم ، وجند نفسه لخدمته ، وكانت أية معلومة تصله تذهب مسرعة إلى جهاز الـ (كي . جي . بي .) فلم يضنَّ عليه بشيء ؛ لأنه يعمل في سبيل ما يؤمن به . أما كيف كانت تنقل هذه المعلومات إلى موسكو ، فعلى الرغم من أنه أفصح عنه ، وشرح طرائقه — فسيظل أمراً مكتوماً مع كثير من أسرار هذه القضية في خزائن مغلقة محكمة ، في رئاسة المخابرات البريطانية ، في ظلال تدابير أمنية شديدة دقيقة .

أشعلت هذه القضية النار في رئاسة جهاز المخابرات البريطانيٍّ كما تشتعل في الهشيم ، وزادها وقوداً استنكار الشعب لها ، وضيقه بها ، وسخطه عليها ، فما إن طلعت على الشعب صحف صباح

اليوم الخامس والعشرين من أبريل ١٩٦١ تحمل هذا النبأ الفاجع ، حتى اهتز وجدانه اهتزازاً عميقاً ، واضطربت أعماقه اضطراباً بالغاً ، فلم يكن ليصدق أن واحداً من أبنائه ينكث في عهده ، ويبيع نفسه لعدوه . وظن كثير من الشعب أن هناك التباساً ، وأن الأمر لا يعدو كونه مزحة ثقيلة منكرة . ولكن المحاكمة العلنية أفصحت عن كل شيء بجلاء ؛ فبات الشعب وعلى صدره هم ثقيل ، وفي نفسه حزن عميق ، وعلى لسانه لعنات تلاحق ذلك الأثيم . أما الحكومة فلم يشغلها السخط والضيق ، ولم يُلهها الحزن العميق ، فشكلت لجنة « رادكليف » لبحث الموضوع ، وتقصِّي أسبابه ، والتعرف على التقصير الذي أدى إليه ، لتمكن المحاسبة عليه . وهال ضباط الجهاز المحترفين أن الحلقة الضعيفة في جهازهم كانت الحلقة التي وثقوا بها غاية الثقة ، واطمأنوا إلى كفايتها تمام الاطمئنان ، وهي بليك ، الذي أحاط نفسه بهالة من الأساطير والحكايات بالغت في قدرته ، ورفعت في نظرهم أسهمه . ولكنهم كانوا ملومين على أية حال ؛ لأنهم لم يستطيعوا التفرقة بين الحقيقة والخيال .

وكان التصريح الذي استطاع الصحفيون أن ينتزعوه من رئيس اللجنة بعد أن فرغت من عملها ، هو قوله « إنني أوثر عدم الخوض في حديث ينبغي له أن يظلَّ داخليًّا في إطار أسرة المخابرات . »

وكانت هذه القضية أهم وأبرز قضايا الجاسوسية في حقبة الستينيات . و وصفها الخبراء بأنها « وصمة عار » في تاريخ المخابرات البريطانية .

الوعي المفقود

« سأصدقك القول يا سيدي المحقق ، فأنا لم أكن أسعى إلى المعلومات ، بل كانت المعلومات تسعى إليَّ زرافات و وحدانًا ، لم أبذل في سبيلها جهداً ، ولم أنفق في سبيلها مالاً . فكثير من المصريين يوفرون عليك الجهد ، ويوفِّرون عليك المال ، بما يفيضون فيه من حديث ، يرسلونه إرسالاً ، لا يفرقون بين حديث يحسن به أن يظل مكتوماً ، وحديث لا بأس في أن يُصرَّح به ويُذاع . يلتقي بعضهم ببعض ، فلا يكاد يستقر بهم المجلس حتى يتشعب بينهم الحديث ثم ينحسر رويداً رويداً ، ويتركز في مجال السياسة والاقتصاد، فينبري كل واحد منهم يُخرج ما في جعبته ، فإذا هو خبير سياسي ضليع أو محلل اقتصادي بارع . ولكل منهم – كما يزعم – مصادره التي لا يرقى إليها الشك . يتظاهر بعضهم بأنه عليم ببواطن الأمور ، لا تحجب عنه الأسرار ، ولا تُسدل دونه الأستار ، ويتباهى بعضهم بكثرة معلوماته ، وزيادة خبراته . إن الوعي الأمني لدى الكثيرين منهم مفقود أو ضعيف على خير تقدير .

« وكان كل همي – يا سيدي – أن أصيخَ السمع جيداً ؛ كي يلتقط كل ما يُصَب فيه من أحاديث ، وأن أنقل هذا الذي صُبَّ فيه دون تحليل أو غربلة إلى من يريده ، ويدفع لي ثمنه ؛ فمهمتي جمع

المعلومات . أما الفرز والتحليل فعمل الذين يستخدمون هذه المعلومات ، ويوظفونها لمصلحتهم . »

هذه المعاني جاءت على لسان رجل في الثامنة والثلاثين من عمره ، ولد ونشأ في القاهرة ، وإن كان يوناني الجنسية . من هؤلاء الذين احتضنتهم أرض مصر ، واغتذوا بخيراتها ، وارتَووا من نيلها . ولكنهم لم يرعَوا لها حرمة ولا ذمة ، ولم يحفظوا لها عهداً ولا ميثاقاً .

لقد وفرت مصر لهذا الرجل الذي يتكلم اللغات العربية والإنجليزية واليونانية – عملاً شريفاً ، فهو يعمل منسق « ديكور » في « شركة ملابس الأهرام » . ولكن أَثرته التي لا تقف عند حد ، ونرجسيته التي فاقت كل تصور ، جعلته لا يقنع بما يجد ، وإنما يمد عينيه دائما إلى ما لا يجد ؛ فالمال عنده هو الإله المعبود ، الذي يضحي في سبيله بكل غال ورخيص .

فلا وزن لقيمة ، ولا حرمة لمبدإ ، ولا حساب لصداقة وأخوة ، بل هي نفسه التي بين جنبيه ، يعشقها عشقاً بالغاً ، ويطيعها طاعة عمياء . لا يردها عن أمر ، ولا يفطمها عن مطمع .

وكانت هذه هي الثغرة التي نفذ منها إليه صيادو الجواسيس .

سافر « نيقولا جورج كويس » إلى مدينة « ميلانو » الإيطالية عضواً في الوفد المصري الرسمي ، الذي أنيط به الإشراف على إعداد الجناح المصري في المعرض الإيطالي الدولي ، وتنسيق معروضاته ، و وضع اللمسات الأخيرة قبل افتتاح المعرض .

وقد حظي الجناح المصري باهتمام الكثير من الزائرين . ونالت تقديرهم المعروضاتُ والمنتجات المصرية ، ولفتت انتباههم روعة تنسيقه وجذبتهم اللمسات الجمالية فيه . وكانت عيون الصيادين – صيادي الجواسيس – مركَّزة على كل مَنْ في الجناح المصري . ولعيونهم المدربة الخبيرة الفاحصة نظرة قلما تخيب . فما إن آذنت فترة المعرض بالانتهاء حتى دخل الجناح المصري رجل إيطالي قدم نفسه لنيقولا باسم « إميليو فرانشيسكو » ، وأثنى على ما بُذل من مجهودات في إعداد الجناح وتنسيقه ، وامتدح الذوق الفني الرائع لمن أشرفوا على ذلك العمل ، وتحدث معه حديثًا بريئًا من أية ميول أو اتجاهات . ثم رغب إليه في أن يلتقيا في « كافيتريا » المعرض ؛ ليتحدثا في بعض الأعمال الفنية .

وفي هذا اللقاء أفصح إميليو لصاحبه أنه يعمل في شركة إيطالية تقوم بأعمال « الديكور » في المنازل والمحلات ، مركزها روما ، وأن مديرها قد زار المعرض ، فشد انتباهه بقوة ما رآه في الجناح المصري من ذوق فني رائع ، بدا في تنسيق المعروضات ؛ فكلفه بتدبير لقاء مع الفنان الذي يقف وراء ذلك كله ؛ حيث إنه يود أن ينشئ فرعًا للشركة في مصر ، مقره القاهرة ، وقد يختارك مديرًا لهذا الفرع .

ثم زيَّن إميليو لنيقولا ما يدره عليه هذا العمل من أموال ، وما يهيئه له من فرص تجارية مربحة . وشكر نيقولا إميليو على هذه الثقة التي أولاها له مدير شركته ، وتمنى أن يكون عند حسن ظنه ، وتواعدا على اللقاء في اليوم التالي في تمام الساعة السابعة مساء

في محل « حلويات ألمانيا » .

وفي الموعد جاء نيقولا إلى المحل فوجد إميليو في انتظاره . وما هي إلا لحظات قليلة حتى انضم إليهما مدير الشركة ، الذي قدمه إميليو باسم « أرمان جلوب » . وتجاذب الثلاثة أطراف حديث ، ابتدأ بفن « الديكور » وآخر صيحاته ، وتطرق – في ذكاء ودهاء – إلى عمل نيقولا وخبراته الفنية ، ومؤهلاته العلمية ، وعاداته التي يحرص عليها ، وهواياته التي يستريح إليها ، وانتهى بأسرته وأقاربه ومعارفه وأصدقائه . لقد كانت جولة استطلاعية في شخصية نيقولا ؛ للتعرف عليه عن كثب ، وإدراك جوانب القوة والضعف فيها . ومن ثم لم يسفر هذا اللقاء عن اتفاق ، ولكن عن موعد بلقاء ثان وثالث .

ما إن وَضُحت أبعاد شخصية نيقولا لدى الرجلين ، وتحددت ملامحها حتى أرسل أرمان جلوب تقريراً إلى رئاسة شبكته في روما يخبرها بأنه قد عثر على ضالته التي كان ينشدها ، وأن نيقولا مهيأ تماماً للقيام بأي عمل يدر عليه المال ، ويدبر له الثراء العريض . غير أنه يتخوّف قليلاً من الأعمال التي تتسم بالخطورة ، أو تستدعي المجازفة .

وفي أول لقاء تم بين الرجال الثلاثة نيقولا ، إميليو ، أرمان ، في فندق « ريتز » بميلانو أعلن أرمان لنيقولا أن مجلس إدارة الشركة قد وافق على اختياره وكيلاً لها في القاهرة ، نظير راتب شهري ، ومصروفات نثرية ، وبعض المكافآت التي قد تكون سخية مجزية ، وأن عليه أن يشخص إلى روما لتوقيع العقد . وأحاطه علماً بأن الشركة تتحمل نفقات الرحلة والإقامة ، وأنّه سيجد غرفة محجوزة باسمه في

فندق « ديانا » في العاصمة الإيطالية ، ثم أعطاه ثلاثين ألف ليرة إيطالية لتغطية مصروفاته الشخصية .

وحينما بلغ نيقولا العاصمة الإيطالية ، واستقر به المقام في الفندق المعين - اتصل به هاتفيا أحد الأشخاص ، وأبلغه أنه مندوب الشركة وأنه يرحب بقدومه ، ويسعده أن يلتقيا غداً في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وأن يكون هذا اللقاء في المقهى القريب من الفندق ؛ حتى لا يتكبد جهداً ولا يعاني مشقة .

وجلس نيقولا في المقهى حسب الموعد ، وهو يفكر فيما سيدور بينه وبين هذا المندوب من حديث ، وما ينجم عنه من اتفاق . ويتخيل الثروة التي سيُدرُّها عليه هذا العمل الذي لم يَسْعَ إليه ، وإنما هبط عليه من السماء ، ورشحه له فنه وذوقه وخبرته . دامت سبَحاته الفكرية والخيالية هذه دقائق عشراً ، قطعها هذا الرجل الذي أهلَّ عليه ، في ثياب أنيقة ، ونظارة سوداء ، وشارب أبيض دقيق ، وحقيبة صغيرة في يده من تلك الحقائب التي يحرص على حملها رجال الأعمال . وقدم له نفسه باسم « سميث بيترز » . ودار بينهما حديث طويل ، ابتدأ - أيضاً - بامتداح ذوقه الفني الذي ظهر واضحاً في تنسيق المعروضات في الجناح المصري ، وانتهى بالحياة الشخصية لنيقولا ، وأفكاره ، وأحلامه ، وتطلعاته ، وغير ذلك من الأمور التي تلقي ضوءاً على شخصية نيقولا وأبعادها ، وتحدد ملامحها ، وتوضح قسماتها . وأغرى نيقولا مظهرُ سميث وأناقته الرفيعة ومقدرته البارعة على الإقناع . وهذه مؤهلات لازمة لهؤلاء العملاء . هي عُدتهم في ممارسة مهمتهم في اصطياد

الجواسيس ، بحيث يتعذر على أشد الناس ذكاء اكتشافهم .كما أغراه سميث أيضاً بما وعده إياه من مال وفير يدق بابه ، وثراء عريض يدنو منه ، فتحلّب لذلك ريقه ، وسال لعابه ، وبدا عليه اللُّهاث . واتفق الرجلان على اللقاء في صباح اليوم التالي في المكان ذاته ، والزمان عينه .

وفي هذا اللقاء شرع سميث يمهد الطريق ؛ لكي يخبر نيقولا بالسبب الحقيقي للاتصال به ، خاصة وقد تبين له بجلاء أن أهم باعث لنشاط نيقولا وأهم غاية يستهدفها إنما هو المال ، وأنه لا ولاء عنده لشيء غيره ، فَلْيطرق الحديد وهو ساخن كما يقال . ومن ثم عرض عليه أن يكون « مندوباً » للمخابرات الإسرائيلية في القاهرة . ومع أن سميث استخدم كلمة « مندوب » إلا أن نيقولا كان يفهم المدلول الدقيق للكلمة ، وهو « جاسوس » .

و سرعان ما كشف نيقولا عن تلهفه على هذا العرض ، وترقبه له ، وسأل عن المقابل المادي لعمله .

وهكذا كُشف النقاب أمام عين نيقولا ، فلم يكن لإميليو أو لأرمان علاقة بأسمائهما الحقيقية ولا صلة بفن « الديكور » . وإنما هما عميلان للموساد . يقومان باصطياد الجواسيس من بين المصريين أو المقيمين في مصر ، وتقديمهم إلى ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي يصطنع اسماً مستعاراً هو سميث بيترز ، ويقيم في « روما » وذلك بعد التأكد من استعدادهم للتعاون .

أوضح سميث لنيقولا أن المعلومات التي يطلبونها منه ينبغي أن

تتنوع بين معلومات عسكرية ، تتصل بمواقع المطارات الحربية ، وقواعد الدفاع الجوي ، والوحدات العسكرية الهامة ؛ ومعلومات سياسية تتصل بالناحية الداخلية ونبض الرأي العام في الشارع المصري ، ومعلومات اقتصادية تتصل بالسلع التموينية والاستهلاكية ومدى كفايتها ، ورأي الناس فيها .

وتولى تدريبه بمساعدة عميل إسرائيلي آخر يُدْعى « مزراحي » ، وإعدادَه ليكون عميلاً بالمشاهدة والإثارة ؛ فبالمشاهدة يرى ويلاحظ ويميز ويستنتج ، وبالإثارة يستدرج صاحبه ليلقي إليه بالمعلومات . وبين له أهمية الذاكرة البصرية والسمعية ، فكلما قلّت كتابته ، واعتمد علي ذاكرته في الاحتفاظ بالمعلومات ازداد نجاحه في مهمته ، وقلّ تعرضه للمخاطر . كما دربه على كيفية كتابة وإظهار التقارير بالحبر السري ، وكيفية قياس المساحات والارتفاعات ، وكيفية استثماركل ما ينشر في الصحف من موضوعات لترويج الشائعات ، و طرائق إرسال المعلومات و إخفائها . ثم حدد له العنوان الذي يتم عليه التراسل في « روما » و أعطاه الاسم الحركي « فلاش » .

ولم يفت سميث أن يبدي لصاحبه ثقتهم فيه ، وأملهم في أن يحقق ما يرجونه من ورائه ، وأنهم لن يبخلوا عليه بمال مهما كان مقداره ، و أن عليه أن يتوخى الحرص و الحذر فلا يكشف لأحد - مهما كان - عن عمله . ولم يفته - أيضاً - أن يحذره من الإخلال بالاتفاق الذي عُقد بينهما ، أو المراوغة فيه ، فذلك يعرضه لمصاعب هو في غنى عنها . ثم تمنى له التوفيق والحظ الطيب في

عمله .

وسلمه سميث ما ينبغي أن يكون في حوزته من معدات وأدوات ، وهي : حبر سري في زجاجة عليها ما يفيد أنها مستحضر طبي ، ودفتر من ورق خاص ليستخدمه في كتابة تقاريره . ثم شرح له طريقة الاتصال .

ما إن عاد نيقولا إلى القاهرة حتى أخذ يمارس مهمته في عزم لا يكل ، ونشاط لا يفتر ؛ فالمال باعثه ، والمال غايته . وهذا هو الطريق قد انفتح له على مصراعيه كما يرى ببصره الحسير .

تردّد نيقولا على المناطق التي توجد فيها الوحدات العسكرية ، وقام بتحديد أماكنها ، واستمع إلى هذه الأحاديث التي كان يلقيها بعض العسكريين وكثير من المدنيين دون حرص أو حذر . ثم تمكن – تحت إغراء المال ونفوذه ، وبموافقه « الموساد » وتحريضه – من تجنيد صديقه « جورج ستماتيو » الذي كان يعمل في محل حلويات « جروبي » فرع طلعت حرب بوسط العاصمة . واستطاع ستماتيو أن يلتقط أحاديث متنوعة كثيرة يخوض فيها رواد المحل من مختلف الشخصيات والطبقات الاجتماعية ، يخوضون فيها بعفوية وطلاقة . وهي أحاديث تحتوي على كثير من المعلومات التي تنفق أجهزة المخابرات الكثير من المال في سبيل الحصول عليها . ولكنها جاءت إلى هذين الرجلين دون جهد بذلاه ، وبغير مال أنفقاه إلا شحذ سمعهما وبصرهما شحذاً قويًّا . وكان نيقولا ينقل هذه المعلومات التي لا يمكن تَصورُ حجمها ، ولا تصور تنوعها ، في خطابات بالحبر السري إلى سميث في « روما » .

وجنى نيقولا ثمرة هذا العمل وعوداً كثيرة بالثراء ، وأموالاً خبيثة صُبَّتْ بين يديه . ولكن ما إن انقضت مدة حتى تقلصت الوعود ، ونضبت الأموال ، فلم تعد غير أربعمئة دولار في الشهر ، تودع باسم نيقولا في مصرف « دي روما » ، وغير مائتين وخمسين جنيهاً مصريا تقاضاها ستماتيو على سبيل المكافأة .

وكان اكتشاف الرجلين عسيراً ؛ فهما لا يزاولان نشاطاً يلفت النظر إليهما ، ويغري بملاحقتهما ، ولكن شدة حرصهما على الاستماع والتنصُّت أثارت – ذات يوم – رجل المخابرات المصري ، الذي نقل شكوكه إلى رؤسائه . وسرعان ما وُضعا تحت مراقبة دقيقة تجمعت خلالها أدلة وبراهين تدمغهما ؛ فألقى رجال المخابرات القبض عليهما ، وعثر معهما على وثائق سرية تقطع بخيانتهما . ولم تكن لديهما الفرصة للإنكار والمراوغة ، فكلما قدما تبريراً لعملهما أسرعت حجة المخابرات القوية إلى دحضه وتفنيده ؛ فانهارت مقاومتهما ، ولم يجدا مفرًّا من الاعتراف . الاعتراف بكل شيء .

وهوى الخائنان إلى قرار سحيق . لم يجمعا من وراء خيانتهما ما كانا يحلمان به من ثروة ، ولم يظفرا من جرائها بطائل غير السجن ، يقضي فيه نيقولا عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة ، ويقضي فيه ستماتيو خمس عشرة سنة من الأشغال الشاقة كذلك .

عيون تتطلع

أشرقت شمس يوم الأحد على مدينة « كانبيرا » صافية رائقة ، كما لم تشرق من قبل ، وأرسلت أشعتها فأشاعت في المدينة الدفء وبثت فيها الحركة والحياة ، وخرج الناس يستمتعون بيوم رائع جميل لايرنّق صفوه كدر ، ولا تشوبه مصانعة أو مخادعة ، إنما هو يوم باسم رائق كشمسه التي سطعت ، تجلو مفاتن الطبيعة للعيون ، وتبرز محاسنها للغادين والرائحين . ولكن هذا اليوم المشرق الصافي الجميل كان يوماً حالكاً عبوساً ، ألقى ظلاله السوداء المنكرة على منظمة الاتحاد السوفييتي للتجسس ، بل لا نكاد نعدو الحق إذا قلنا إنه كان أشد الأيام في تاريخها سوءاً ونُكراً .

في يوم الأحد هذا – الثالث من أبريل ١٩٥٤ – جلس ثلاثة رجال في غرفة فسيحة الأرجاء ، تقع في الطابق الثاني من منزل مشيّد على طراز القرن التاسع عشر ، تحيط به الأشجار العالية حتى لتكاد تحجبه عن عيون الناظرين . كان هؤلاء الرجال يتناولون طعام الغداء ، أما أحدهم فقد كان في نهاية العقد الرابع من عمره طويل القامة ، متين البنيان ، وكان الثاني في نهاية العقد الثالث من عمره طويل القامة أيضاً ، رشيقاً ذا تقاطيع حادة ، تنمُّ عن نشاط

صاحبها وتدل على صرامته ، له عينان برّاقتان ، تفيضان بالحيوية ، وتلمعان بالذكاء .

وفي مواجهة هذين الرجلين اللذين كانا من ضباط المخابرات الأسترالية – كان يجلس الرجل الثالث « ڤلاديمير ميخائيلوڤتش بتروف » الذي كان يعمل سكرتيراً ثالثاً في السفارة السوڤييتية ، بالعاصمة الأسترالية « كانبيرا » ، والذي كان قد قام بتسليم نفسه للسلطات الأسترالية طالباً منحه وزوجته « أفدوكيا » حق اللجوء السياسي .

يبلغ « بتروف » هذا من العمر أربعين عاماً ، وهو روسي المولد والنشأة والعقيدة ؛ فقد ولد في عائلة شديدة الاقتناع بالشيوعية ، شديدة التعصب لها ، على الرغم من ثرائها حسب المقاييس الروسية للغنى والثروة ، ولذلك تشرَّب مبادئ الشيوعية وأفكارها منذ نعومة أظفاره ، فنشأ – أيضاً – شديد الاقتناع بها ، شديد التعصب لها ، ثم اكتسب خبرة طويلة ، وباعاً واسعاً في أعمال الشرطة السياسية والجاسوسية ، الأمر الذي أهّله ليكون المندوب الرئيسي للمخابرات السوڤييتية في أستراليا ، ويدير – تحت حماية الحصانة الدبلوماسية – شبكة التجسس السوڤييتي بها .

وقد كادت تكتمل في « بتروف » كل الصفات المثالية لرجل المخابرات ، فهو خارق الذكاء ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، لا تُربكه المواقف مهما كان حرجها ، شديد الدهاء والمكر ، ذو مقدرة بارعة على المراوغة ، يتمتع بذاكرة لاقطة حافظة تختزن ببراعة صور

الأشياء والأشخاص ، فلا تغيب عنها مهما بعد الزمن . يتميز بالكتمان الشديد الذي زادته سنوات العمل السري قوة وشدة ، له مقدرة فائقة على اكتشاف آراء محدثه وميوله دون أن يبدي هو رأياً أو يصدر عنه ما يفصح عن هُويَّته . وهو هادئ الأعصاب ، ضابط لمشاعره حتى يمكن القول بأنه متبلّد الشعور ، لا يعرف الإحساسُ بالرحمة طريقاً إلى قلبه ، كما كان على درجة رفيعة من الحسّ الأمني ، وخبرة مثيرة في الصمود لدى أي استجواب ، وباع طويل في مقاومة التحقيقات ، واقتدار جيد على غربلة ما يحصل عليه من معلومات ، وتقدير أهمية كل منها وخطورته .

وكانت زوجه « أفدوكيا » – التي تبلغ من العمر ثلاثين عاماً – روسية الجنسية ، ماركسية الدم ، لينينية الالتزام ، فارعة الطول ، رشيقة القوام ، تخطو كالغزال ، وتقفز كعصفور صغير ، ذات أهداب طويلة وعيون واسعة ، وخدين ممتلئين ، تفيض أنوثة ، وتسيل رقة . طلعتها تأخذ البصر ، وتسحر النفس ، وتُسبي العقل ، وتثير في الرجال أحاسيس شتى .

وكانت سيدة ذكية ، لها قدرة ودأب على العمل ، تؤديه في صبر ودقة وإتقان ؛ فهي تجمع في السفارة بين عملين : المحاسبة وكتابة الشفرة لشبكات التجسس الروسية في أستراليا .

قبل أن يضع « بتروف » نفسه تحت تصرف جهاز المخابرات الأسترالية ، كان قد أعد للأمر عدته ، فاصطحب معه عدداً كبيراً من الوثائق والتقارير المتعلقة بأعمال الجاسوسية السوفييتية ، وتعليمات الرئاسة في موسكو ، وكشوفاً بأسماء العملاء والمندوبين لشبكات

التجسس السوفييتي في أستراليا . وكَوَّن هذا كلُّه – مضموماً إلى اعترافاته – مرجعاً هاماً عن الجاسوسية السوفييتية ونشاطها في أستراليا .

وكان « بتروف » قد فقد الاتصال بزوجته ، فلم يكن يعرف أين هي ، ولم تكن هي تعرف ما سينزل بها من عقاب بعد أن وقعت في قبضة الروس . ولكن الصدفة المخطَّطة تلعب دورها ، وتؤدي عملها ، فإذا اتصال هاتفي يتم بين الزوجين ، بعد أن أفلتت – أفدوكيا – من براثن الروس في مطار « داروين » في شمال أستراليا ، أو إن شئت الدقة في التعبير بعد أن خُلِّصت من براثنهم ، خلَّصها رجال المخابرات الأسترالية ، وإن كنا لا ندري كيف تم هذا التخليص ، ولكن الذي لا شك فيه أنه لم يكن وليد الحظ والصدفة ، بل كان نتيجة وعي بصير ، وتخطيط دقيق .

وما إن التقى الزوجان حتى قال « بتروف » دون خجل أو حياء ، والابتسامة العريضة تملأ وجهه :

« إن الله قد جعل العيون في مقدمة رءوسنا ، ولم يجعلها في مؤخرتها ؛ حتى ننظر ونتطلع إلى الأمام ، وليس إلى الخلف . إن الماضي لم يعد يعنيني في شيء ، إنما أنا أفكر في المستقبل الذي ينتظرني . إن حياتي هي القادمة وليست الذاهبة . إن عقارب الساعة لن تعود أبداً إلى الوراء . لو عرفتم ما كنا سنواجهه عند عودتنا إلى موسكو لجمدت الدموع في عيونكم سنوات طويلة . ماذا تريدون مني؟ إنني على استعداد لأن أفعل كل شيء .. أي شيء . »

أما زوجته فقد قالت والتحدي يرتسم واضحاً على قسمات وجهها ، والغيظ يكاد يقفز من صدرها : « لن يستطيعوا أن يلصقوا بزوجي شيئاً . إنه لن يكون كبش فداء . لن أسمح لهم أبداً أن يفعلوا ذلك . سأتكلم وسأذكر كل الأسماء مهما كان الأمر ، ولن يعنيني أحد . »

وتكلم الزوجان .

وما نظننا في حاجة إلى ذكاء كي ندرك أنهما تكلما بصراحة مطلقة ، وشرحا كل التفاصيل المتشعبة تشعباً بالغاً ، وأسهبا في تمزيق نشاط شبكة التجسس الروسي في أستراليا وتعريته ، بل إن « بتروف » لم يقف عند حد الإفصاح عن طبيعة عمله في السفارة، وإنما كشف أساليب منظمة التجسس السوفييتي ، وطريقة عملها وطبيعة تنظيماتها . ولقد كاد استجوابه وطريقة إجاباته تصيبان المحققين الأستراليين بالدوار ، لما كان يتمتع به من ذاكرة قوية ، وذكاء وقّاد ، وفكر دقيق منظم .

وكانت اعترافات « بتروف » ضربة قاصمة لمنظمة التجسس السوفييتي ، أدت إلى إرباك خُططها ، وعرقلة نشاطها ، وتحطيم عدد كبير من عملائها في أستراليا وبعض دولٍ أخرى . كما روّعت هذه الاعترافات الأجهزة الأسترالية ، فاتخذت إجراءات أمن شديدة ، وأبعدت كل شخص حامت حوله شبهة ، وبثت عيونها في كل مكان ، وخاصة في الأحزاب التي تؤمن بالمبادئ الشيوعية ، وتدين بالولاء للاتحاد السوفييتي ، ومن ثم بات عسيراً جدًّا تجنيد العملاء في أستراليا – في ذلك الحين – أو محاولة بناء شبكة جديدة

للتجسس .

ولكن الروس - على الرغم من الهزة العنيفة التي أصابتهم ، و القلق المدمر الذي اجتاحهم - حاولوا تغطية الموقف باتّهام « بتروف » أنّه قد اختلس من السفارة الروسية أموالاً كانت في حوزته، وأنه مجرم سارق يجب أن يُعاد إليهم ، و لا يستحق حق اللجوء السياسي . وأذاعوا أنها مؤامرة مضادة للاتحاد السوفييتي ينبغي لأستراليا أن تتخلص منها ، وتتبرأ من تبعاتها . ولكي يتجنبوا الفضيحة التي سوف تتمخض عنها التحقيقات سارعوا بإغلاق سفارتهم ، وقطع علاقاتهم مع أستراليا ، وأمْرِ موظفيهم بالعودة إلى بلادهم . ومع ذلك لم يجد أحد كبار المسئولين الروس مفرًا من التعليق بمرارة فظيعة على هذا الموقف بقوله :

« إننا لا نجد في وقتنا هذا وجهاً تشمئز منه النفس ، وتُلوى عنه الأبصار ، كهذا الوجه الذي ظهر به «« ڤلاديميير ميخائيلوڤيتش بتروف »» وإن أرق ما يوصف به في كلمة واحدة أنه إنسان «منحط» أساء إلى بلاده إساءة بالغة ، و لا أعرف كيف هان عليه أن يهبط إلى هذا الدرك بهذه السهولة . وإذا كان الإمبرياليون - يقصد الغرب - يعُجبون به وتنشرح صدورهم له ، فليهنئوا به . أما هنا فوق الأرض الروسية فلا مكان لمثل هذا الإنسان . »

ومضت سنوات خمس حتى استطاعت روسيا أن تفيق من هول الصدمة التي لم تكن تحسب لها حساباً ، وأن تعيد علاقاتها الدبلوماسية مع أستراليا .

وكان أول دبلوماسي روسي أرسل إلى « كانبيرا » عاصمة أستراليا واحداً من أكثر ضباط الـ « كي . جي . بي » كفاءة ، وأعظمهم اقتداراً هو « إيڤان فيدورڤتش سكريبوف » ، وكانت التبعة الملقاة على كاهله شديدة الحساسية والخطورة ، ذلك أن عليه أن يعيد تنظيم شبكة الجاسوسية الروسية في أستراليا ، في وقت كانت أستراليا قد وعت الدرس جيداً ، وأفادت من لجوء « بتروف » واعترافاته إفادة فائقة ، وتعرفت على الأبعاد الواسعة ، والآماد الخطيرة التي وصل إليها التَّغَلْغُل الروسي في داخل بلادهم ، واقتنصت أفراد الشبكة الروسية عن آخرهم .كما وعت أساليب الروس وطرائقهم ، ولم يعد خافياً عليها تستُّرهم وراء الحصانة الدبلوماسية ، ومن ثم فقد دسَّت على سكريبوف هذا سيدة تعمل في جهاز مقاومة التجسس المضاد في أستراليا ، واستطاعت هذه السيدة أن تحوز رضاه ، وتنال ثقته ، فضمها إلى شبكته التي يبذل جهده في تكوينها . وما هي إلا فترة قليلة حتى ارتفع الستار عن محاولته ، وضبط متلبِّساً في عام ١٩٦٣ ، فأحدث اكتشاف أمره شرخاً عميقاً في العلاقات بين البلدين ، وانتهى المشهد بطرده من أستراليا لما كان يقوم به من عمل غير مشروع في ظلال الحصانة الدبلوماسية . وكان رد فعل السوڤييت لتغطية موقفهم - وكما يفعلون دائماً - هو اختيار « وليام موريسون » السكرتير الأول في السفارة الأسترالية في موسكو و طرده ، معلنين أنه شخص غير مرغوب فيه ، موجهين إليه الاتهام بجمع معلومات سرية والادعاء ببيع ملابس أجنبية بشكل غير قانوني لمواطنين سوڤييت .

أكبر الظن – عزيزي القارئ – وقد بلغت هذا المبلغ من قراءتك أوراق قضية بتروف وما أثارته من صخب وضجيج ، وما أنتجته من تقطُّع وتمَزّق في العلاقات – أنّك تتساءل في لهفة : ولكن لماذا يُقدم بتروف على كل هذا ؟ وما الدوافع التي تكمن وراء فَعلته؟ وما الأهداف التي تشده بخيوطها فلا يستطيع عنها تحوُّلا ، ولا منها فكاكًا ؟ ولكي نُطامن من لهفتك ، ونهدِّئَ من روعك ، ونحتفظ – في الوقت ذاته – بتشوُّقك ، نعود إلى الوراء قليلاً ..

إلى السنوات الأولى من العقد الخامس من هذا القرن (١٩٤١–١٩٤٢) حينما افتتحت روسيا سفارة لها في كانبيرا بعد اعتراف أستراليا بها ، وكانت الحملة – حينئذ – ضارية على فاشية « موسوليني » ونازية هتلر مما جعل المناخ ملائمًا ، والظروف مهيأة ، للنشاط التجسسي السوفييتي ، الذي تكوّنت شبكته ، ومارست أعمالها بقيادة « سيمون مكاروف » ومساعده « فيودور توزوف » الذي كان يتستر وراء عمله مندوبًا لوكالة « تاس » الصحفية الروسية. وكان أعضاء هذه الشبكة يؤدون أعمالاً ذات قيمة جيدة ، ويقومون بنشاط جَمّ ، يخدم الأغراض الروسية خدمة جليلة .

ولكن في أواخر العقد الرابع بدأ تدفُّق المعلومات – خاصة ما يتصل منها بالشئون الأسترالية اتصالاً مباشرًا – يتضاءل تضاؤلاً كبيرًا وما يصل منها إلى المكاتب المتخصصة في إدارة الجاسوسية في موسكو ، التي يطلق عليها اختصارًا « جي . آر . يو » يفقد طابع الأهمية ؛ لما يتصف به من العمومية وسوء التنظيم ، بحيث لا يرسم أمام أولئك الذين يخططون سياسة الاتحاد السوفييتي صورة واضحة لما

عليه الحال في أستراليا ، حتى يتاح لهم اتخاذ القرار المناسب في وقته وبقدره . وكانت موجة من الاتهامات والاستدعاءات لهؤلاء الموظفين الروس غير الموفقين في أعمالهم ، وغير القادرين على القيام بمهامّهم ، وغير الجديرين بأماكنهم ، حتى إن الرجل الأول من بينهم « ڤالنتين سادوڤنيكوف » تجاهل التعليمات ، وتناسى ما يحسن برجل مثله من حرص وحذر ، فأمضى ليلة كاملة في بيت مواطن أسترالي . فكان أن استُدعي إلى موسكو في التاسع عشر من شهر يناير ١٩٤٩ ليلقى عقابه ، و ليحل محله رجل آخر ، يدُعى « إيڤان باكهوموف » . ولكنه لم يكن خيرا من سلفه ، بل كان أسوأ خلف له ؛ فلم تكن معلوماته دقيقة ، ولم تكن تقاريره ذات جدوى ، فأعيد إلى موسكو و حلّ محله صاحب هذه القضية « فلاديمير ميخائيلوڤتش بتروف » .

ولم تكن الأجهزة المختصة في جهاز المخابرات الروسي راضية عن بتروف في بدء عمله ، فقد كانت تتلقى ما يرد إليها من معلومات ، وتقوم بتحليلها ، فتدرك أنه لا غَناء فيها ، ولا طائل من ورائها ، حتى قالت : إنه يعبث بالوقت ، ويضيع النقود . وأوصت بأن ينشط في العمل ، ويتابع تجنيد العملاء ، حتى يتمكن من تزويد الجهاز بمعلومات وافية دقيقة عما يدور داخل الأرض الأسترالية ، مما يَدْعم الأمن الاستراتيجي للاتحاد السوڤييتي ، ويخدم أهدافه السياسية في الأمد البعيد .

ونشط بتروف وأعوانه ، وتبدلت حالة الركود التي كانت عليها الشبكة ، ولكن .. مات « ستالين » .

في اليوم الخامس من شهر مارس ١٩٥٣ مَضى هذا الزعيم الذي حكم روسيا أطول فترة في تاريخها الحديث ، فقد امتدت قيادته للاتحاد السوفييتي ما يقرب من ربع قرن أو يزيد قليلاً (١٩٢٤ - ١٩٥٣) ، كان فيها أسطورة الشعب ، ومحور حديثه ، ولكن ما إن قضى نحبه حتى خلفه تلميذه « جورجي مالينكوف » ، وما إنْ تولى السلطة « نيكيتا خروشوف » حتى تبدلت الصورة غير الصورة ، وتعرض « ستالين » لحملات نقد لاذعة عنيفة ، هزت الوجدان الروسي هزا عنيفاً ، وغدا كل مسئول حريصاً على أن يبرأ من ارتباطه بهذا الزعيم ومن كيله المدح له في حياته . وكان من أكثر المسئولين تعرضاً للهجوم القاسي « لافرينتي باڤلوڤتش بريا » الذي كان وزيراً للداخلية في عهده ، وكان أحد الذين يمارسون السلطة الفعلية في روسيا ، ويشاركون في صنع القرار . وكانت نهاية عنفه وتسلطه الإعدامَ في نهاية شهر ديسمبر ١٩٥٣ ، تنفيذاً لحكم أصدره زملاؤه أعضاء المكتب السياسي . وأصبح بعد ذلك من أشد التُّهَم إثارة للرعب والفزع أن يُرمى أحد بأنه كان على صلة « ببريا » وثيقة كانت أو غير وثيقة !

وكان أن أعلن أن بتروف من أتباع بريا والمتآمرين معه ، وإن كانت أسباب هذا الاتهام وحيثياته لا تزال غامضة ، لم يُكشف عنها النقاب بعد . وأدرك بتروف ما ينتظره إن عاد إلى موسكو تنفيذاً للأمر بذلك ، و وقع في حيرة مذهلة مهلكة ؛ فقد كان معنى عودته إلى موسكو أن يقف في فجر أحد الأيام أمام جماعة إطلاق النار ليُردوه قتيلاً ، أو الزَّجّ به في غياهب السجون سنوات لا يعلم مداها

غير الله ، أو إلقاءه في معسكرات اعتقال ، لا يدري هل يخرج منها حيًّا أو ميتاً ، أو نفيه إلى أرض « سيبريا » الدائمة الجليد حتى يقضي نحبه من شدة البرد .

واستغرقه التفكير العميق ، وهذه الصور تتراءى في خياله ، وتتراقص أمام بصره ، ولا يدرك أيا منها سيكون مآله .

وبعد طول معاناة مضنية ، وتفكير عميق ، وحيرة معذبة انبثقت في ذهنه فكرة ، ظلت تنمو في رَيْث وأناة ، حتى استحصدت ، فتحولت إلى قرار ما لبث أن أصبح واقعاً مُعاشاً ؛ ذلك هو قرار اللجوء السياسي إلى أستراليا ، حرصاً على حياته القادمة .

وغدا بذلك جاسوساً لدولة طالما تجسس عليها ، وأضحى خصم الأمس صديق اليوم !

وهكذا تكتمل الصورة .

عين للوطن ... وعليه أيضاً !

العاشقة

« يصعب على المرء كل الصعوبة ، ويعسر عليه أشد العسر ، أن يسترجع وقائع وأحداث أيام خلت ، ما يُعاب منها أكثر مما يُحمد ، وما يُذَمُّ منها أكثر مما يُمدح ، وما يُنكر منها أكثر مما يُعرف ، وما يسوء منها أكثر مما يسر . فذاكرة الإنسان عجيبة غريبة ، تُنقش على صفحاتها وقائع الأيام وأحداثها . ولكنها تستعيد منها ما يلذها ، وتأبى أن تستعيد ما يؤرِّقها ويُضنيها من الخبرات الأليمة التي يضيق منها الصدر ، ولا ينطلق بها اللسان . ولكني سأقسر نفسي قسراً ، وأرغم ذاكرتي إرغاماً ، على أن تحكي لكم تلك الأحداث ، مهما كانت مرارتها في الفم ، ومهما كانت غصَّتها في الحلق . وسأكون صادقة الصدق كله فيما أرويه ، مهما كان يسبِّب لي من سخط على نفسي ، وازدراء لذاتي . فما كنت أظن أنني سأضطر إلى أن أقف هذا الموقف ، الذي طالما احتقرت مَنْ وقفه ، ولا أن أتلبَّس بهذه الجريمة النكراء ، التي طالما قسوت في اللوم على من تلبس بها . ولم أكن أتصور أن يهاجر عقلي إلى جهة غير معلومة مثلما هاجرت عقولهم ، ولا أن ألقي به في عُرض الطريق مثلما ألقوا به .

« صحيح أنه ليس عقلاً على درجة عالية من الوعي ، ولا في منزلة رفيعة من النضج ، فلو كان كذلك لاستطاع أن يقود ويوجه

ويميز بين الخير والشر . ولكنه عقل وهبني الله إياه على كل حال وكرمني به على الحيوان ، فلم أنصفه في أن أستخدمه استخداماً طيباً . وتركت لعاطفة الحب - تلك العاطفة السامية التي من شأنها أن ترتفع بأصحابها عن الدنايا ، وتسمو بهم عن الخطايا - تركتُ لها أن تذهب عقلي ، وتطمس بصري وبصيرتي ، فلا أدرك مما حولي شيئاً إلا أنني أحب « هاري » حبًّا جمًّا ، ولو طلب مني الهواء الذي أتنفسه ما ترددت في أن أسدَّ أنفي من أجله . ولا تتصوروا أنني كنت فتاة مراهقة طائشة ، لقد كنت في الثامنة والثلاثين من عمري ، وتذوقت تجارب الحب من قبل . ولكن حبي لهاري فريدريك هوتون كان شيئاً آخر ، شيئاً مختلفاً عن كل ما تذوقته من قبل . ولا تزال عروقي تنبض به حتى الآن . وكل ما أرجوه أن نلتقي ثانية ونبدأ حياة جديدة .

« إنني لا أبرئ نفسي بذلك من جريمة بشعة اقترفتها ، ولا أحاول أن أخفف من شناعتها ، ولا أن أبحث عن المبررات التي دفعتني إليها . ولكني أصدقكم القول في أني ألفيت نفسي ذات يوم متورطة فيها . لقد تسللت إلى نفسي ، وتسربت في كياني مع دقات قلبي ، ونبضات عروقي ، وكان ضعف المحبين سبيلاً إلى تورطي .

« كم أدرك - بعد أن تكشفت الأمور ، واتضحت الحقائق - مدى الخطأ الذي وقعت فيه ، ومدى الحماقة التي كنت فيها . فأنا لم أكن أعرف حقيقة ذلك الرجل « أليكس جونسون » إلا حينما أعلن في قرار الاتهام أن اسمه « جوردون لونسدال » . ولم يدر

بخلدي قط أنه روسي الجنسية . لقد كنت تائهة بين كلمات الحب وحروف الغرام ، التي لم تخلف لي غير عذاب الضمير ، وإرهاق الفكر ، وحسرة الندم حين لا يجدي الندم . »

جاءت هذه الكلمات المبللة بالدموع التي تفيض حسرة ، وتقطر ندماً - على لسان الآنسة « إيثيل إليزابيث جي » الإنجليزية الأصل والمولد والنشأة ، التي كانت عضواً في شبكة الجاسوسية السوفييتية في بريطانيا ، بقيادة الجاسوس الروسي البارع جوردون لونسدال ، الذي كان ينتحل شخصية رجل كنديٍّ يعمل في تأجير الآلات الموسيقية الكبيرة ، اسمه « كونان كورميموفيتش ميلودي » والذي كان اسمه الحركيُّ « أليكس جونسون » ، وكان قائداً للشبكة ، هذه الشبكة التي كانت من أدق الشبكات فيما تقدم من معلومات والتي وفرت على السوفييت مجهوداً كبيراً فيما يتصل بالأبحاث المتعلقة بفنون وأسلحة أعماق البحار ؛ فاستحقت بذلك أن تكون موضع تقدير الإدارة العامة للمخابرات الروسية (كي . جي . بي) .

ثم تمضي إيثيل التي كانوا يدللونها باسم « بونتي » - في الحديث عن الطريقة التي تعرفت بها على هاري ، وكيف تمكن حبه من قلبها ، فساقها معصوبة العينين إلى حيث وقفت هذا الموقف الذي تزدري فيه نفسها أشد ازدراء ، و تحتقرها أبلغ احتقار .

تقول وهي تسترجع الصور الماضية ، وكأنها تنتزعها انتزاعاً شديداً :

« كان هاري من هذا النوع النادر من البشر ؛ فهو يتمتع بصفات

إنسانية باهرة : قدرته على العطاء تفوق كثيراً رغبته في الأخذ ، وحنانه ينبع من قلب فياض ، كأنما خُلق ليسعد قلوب الآخرين . وكان يعمل في المكتب المجاور لمكتبي في هيئة المنشآت تحت سطح الماء ، فرع تجهيزات الدفاع ضد الغواصات ، قسم التسجيل في « بورتلاند » . ثم نقل سنة ١٩٥٨ إلى وحدة الإصلاح والصيانة المساعدة في الميناء . ولم أعرف حينئذ السبب الكامن وراء هذا النقل وإن كنت عرفت الآن أن رجال الأمن كانوا وراءه ، بعد اختفاء بعض الوثائق والمستندات .

« ومع ذلك فقد كان ساهم الفكر ، شارد اللب ، يبدو مثقلاً بالهموم ، كأنما قد أعيته مطالب الحياة ، وآذتْه شواغلها . ولم يكن خافياً أنه كان على خلاف دائم مع زوجته « بيتي » ، التي كانت ذات مزاج ناري حاد ، تميل إلى التطرف في كل شيء .

« وكان يقضي الساعات الطويلة يحتسي الخمر ، يعب منها عبًّا . لا يكاد ينطق ، فهو دائماً يلوذ بالصمت – الصمت المحير الرهيب .

« لا أستطيع أن أصور تصويراً دقيقاً ، ولا أن أحقق تحقيقاً أميناً ، البواعث والدوافع التي دفعتني إليه ، ولا العوامل التي شدتني نحوه . كل ما أستطيع تصوره وتحقيقه أنني أحسست بحاجتي الماسة إليه ، وأنني لا أستطيع الاستغناء عن وجوده إلى جانبي ، و وجودي إلى جانبه .

« لقد كانت حياتي فارغة خاوية تحتاج إلى جوهر يملأ كيانها

ويوقظها من سباتها ، ويردُّ عليها حيويتها ونشاطها . كنت مهيضة الجناحِ ، مكسورة الخاطر ، مقهورة العاطفة ، في أشد الحاجة إلى من يُربِّتُ على خدي ، ويعيد إليَّ بحنانه توازني . كنت في حاجة إلى من يحنو عليَّ ويسمعني ، ويثق بي ويُسْمِعني .

« وبدأت أشعر أن كلًّا منا ينجذب إلى الآخر انجذاباً قويًّا ، لا يستطيع له مقاومة ، ولا عليه امتناعاً . تقول العيون ذلك حين تلتقي والأيدي حين تتلامس ، والقلوب حين ترفُّ .

« وتوطدت – مع الأيام – علاقاتنا ، وتوثقت عراها ، فكانت شيئاً فوق الحب ، وفوق الصداقة . تذوقت فيها المعنى الحقيقي للحب ، بأحلامه وآلامه ، بسعادته وشقائه ، ولم يفكر أحدنا في الابتعاد عن صاحبه ، بل كلما مرت الأيام ازددنا قرباً ، وازددنا التصاقاً ، كأنما نحتمي بالحب من حوادث الدهر . كنا نذهب للنزهة بسيارته معاً ، أو نمضي إلى منطقة الصخور في « بورتلاند بيل ». ثم تعودنا – بعد حين – أن نذهب إلى بار « ألم تري » في « لاتيمون هيرينج » معظم الأحيان ، حيث كان هاري هناك مختلف الصورة والسلوك عما كنت آلفه منه ؛ فقد كان الوجه البارز بين أصدقائه ، المسرف في الإنفاق إلى حد السفه . يبذر المال يمنة ويسرة بما لا يتسق مع موظف مدني صغير ، لا تدرُّ عليه وظيفته هذا المال الكبير . ولم يخطر على بالي قط أن أسأله من أين يحصل على هذا المال الذي يتلفه إتلافاً ، ويبذره تبذيراً ، حتى ليخيل إلى من يراه أنه لا يعرف للمال قيمة . ولكني عرفت الآن – بعد فوات الأوان – اليد التي تعطي ، واليد التي تأخذ ، واليد الوسيطة بين هذه وتلك ،

فاكتملت لدي المعرفة بأضلاع المثلث . لكن ما جدوى هذه المعرفة ؟

«كان أشد ما يقلقني في هاري صمته الدائم . وكم من مرة ألححت عليه أن يفضي إليّ بمتاعبه ، وأن يتحدث إليّ عن همومه ومشكلاته ، فقد أستطيع معاونته ، وقد يكون مجرد الإفضاء سبيلاً إلى التخفف من أحمالها .

« ولكنه – دائماً – يلوذ بالصمت . وذات ليلة من ليالي الشتاء الباردة كان هاري ساهم الفكر ، شارد اللب – كعادته – زائغ العينين ، تحدق عيناه إلى سقف الغرفة ، ويهوّم خياله مع حلقات الدخان المتصاعد من لفافة التبغ التي بين أصابعه . أقلقتني حاله ، وأمضّتني حيرته ، فقلت له في ود وحنان :

« ‹‹ هاري ، حبيبي ، ماذا بك ؟ هل الأمر أمر نقود ؟ ››

« قال في عصبية وحدّة : ‹‹ لا . ››

« ‹‹ إذا لم يكن الأمر كذلك ، فماذا يقلقك ؟ ››

« قال بصوت مخنوق : ‹‹ لا شيء . ››

« ‹‹ تشعر بالبرد ؟ ››

« قال في صوت خافت : ‹‹ لا . ››

« ‹‹ محموم ؟ ››

« ‹‹ لا . ››

« ‹‹ متعب ؟ ››

« قال وقد بدأ يتململ ضائقاً : ‹‹ لا . ››

« قلت في شيء من الإلحاح : ‹‹ ماذا بك إذاً ؟ ››

« ‹‹ لا شيء . ››

« ‹‹ فهمت . أنت غير سعيد مع بيتي . ››

« ضحك في عصبية ، وقال : ‹‹ سعيد ! قديماً كنت أبحث عن السعادة ، ثم توقفت عن البحث . حلَّ محله بحث آخر يشقيني ويعذبني . ››

« ‹‹ عمَّ تبحث ؟ ››

« قال في نبرة مريرة ضعيفة : ‹‹ عن نفسي . ››

« ‹‹ إنني لا أفهم شيئاً . ››

« قال ، وهو يلتقط أنفاسه : ‹‹ ولن تفهمي . ››

« ‹‹ هناك ما أجهله . ››

« قال بعد تردد : ‹‹ وماذا تجهلين ؟ ››

« ‹‹ أجهل ما بداخلك . ››

« قال في لهجة سريعة : ‹‹ إذاً فأنت لا تجهلين شيئاً ، فإن ما بداخلي هو ما بخارجي . ››

« ‹‹ تكره زوجتك ؟ ››

« قال في صوت ضائق ممتلئ بالمرارة : « لا أكرهها ولا أحبها . »

« « وهي ؟ »

« قال ، وقد بدأ يتبرم بأسئلتي : « لا أعرف ، ولا يعنيني أن أعرف . »

« « ماذا في حياتك ؟ »

« قال ، وهو يزدرد غيظه : « لا شيء . »

« قلت في همس غاضب : « كيف ؟ »

« وابتسم ابتسامة زائفة ، وطوقني بذراعيه ، وضمني إلى صدره ، ثم قبلني وهو يهمس في أذني : « كم أحبك ، يا صغيرتي ! وأنتِ تحبينني حقًّا ، أ ليس كذلك ؟ »

« رددت باقتضاب : « احترس من لفافتي . »

« خرجنا بعد ذلك إلى الطريق ، وسرنا متلاصقين ، فأحاطني بذراعه اليسرى ، وأسندت رأسي فوق صدره ، وسمعته يقول : « أ تشعرين بالبرد ؟ »

« « أجل ، خذني تحت معطفك ، وضمني إليك . »

« وحينما فعل ابتسم قائلاً : « لست من الذين يعتذرون عما بدر منهم بسرعة ، ولكني أرى أنه من واجبي أن أعتذر إليك . إني آسف يا عزيزتي . »

« وضغط على يدي هامساً : «« أحبك . »» »

وتمضي بونتي في اعترافها ، وتعرية نفسها ، فتقول :

« دعوت هاري ذات يوم مشمس إلى تناول الشاي في مكان قريب من منزلي ، وهناك سألته بصراحة : «« هاري ، هل تحبني حقًّا ؟ »»

« «« طبعًا ، أحبك . أ لا تكفّين عن هذا السؤال ؟ »»

« ثم نظر إليَّ نظرة حنان خالص ، وقال في همس ومناجاة : «« ارجعي إلى إحساسك . »»

« «« أحيانًا يقول إنك تحبني ، وأحيانًا يقول إنك تخدعني . »»

« سألني في مرح : «« والآن ماذا يقول ؟ »»

« «« يقول إنك تحبني . »»

« قال في هدوء : «« هذه هي الحقيقة . »»

« وفي حياء وتردُّد سألته : «« هل أنت على استعداد لأن تتزوجني ؟ »»

« و بلا تردد أو تلعثم أجاب : «« قطعًا ، هذا أملي . ولكن بعد حين . »»

« «« لماذا ؟ »»

« أجاب في بساطة : «« إجراءات طلاقي من بيتي لم تنته بعد ، كما أنني لا أملك المال الكافي الآن . »»

« « ما دام الحب يربط بين قلبينا فكل شيء يمكن تدبيره . »

« قال في اختصار : « هذا كلام الحب . »

« « وهل بعد الحب شيء ؟ »

« قال بسرعة كأنما أعد الجواب على كل سؤال متوقع : « أشياء كثيرة . الحب وحده لا يكفي . »

« ونظرت إليه نظرة فيها شيء من لوم ، وبعض من عتب ، وقلت : « الذي يحب لا يفكر على هذا النحو . »

« قال في صوت جامد : « ولكن الذي يتزوج لا بد له من التفكير على هذا النحو . »

« وفي الليل جلسنا نتعشى في أحد المطاعم وحين بدأت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجية ، نظرت إلى هاري لأدعوه للرقص ، فإذا هو واجم صامت ، يدخن بشراهة بالغة . نظر نحوي ، ثم قال في كثير من الاهتمام : « بونتي ، دعينا من الرقص الآن ؛ فهناك ما هو أهم ، وأريد أن أبوح لك به . »

« في لهفة لاهثة قلت : « ماذا بك ؟ إنك تبدو اليوم تعساً جدًا . »

« قال في ارتباك وتلعثم : « لا . فقط إنني أحبك ، ولا أريد أن أغشك . »

« قلت وقد اشتدت لهفتي : « تغشني ؟ كيف ؟ ماذا حدث ؟ »

« وفي صوت خفيض رد هاري : « قبل أن نرتبط بأي ارتباط ، أريد أن أروي لك قصة حياتي كاملة . »

« وسكت لحظة خلتها دهراً طويلاً ، ثم قال ، وهو ينظر نظرات هائمة : « ماذا تريدين أن تعرفي عني ؟ »

« «كل شيء . »

« قال بلسان أثقلته الخمر : « من أين تودين أن أبدأ ؟ »

« وفي لهفة صادقة قلت : « كما تشاء . »

« وحملقت فيه دهشة ، بيد أن دهشتي لم تطل ؛ فقد تدفقت الكلمات من فمه ، وانطلق يروي لي قصصاً مثيرة عن حياته ، وحوادث كثيرة تافهة كذلك . وعرفت أنه حين كان يعمل في مكتب الملحق البحري البريطاني في « بولندا » قد اكتسب أموالاً كثيرة ؛ نتيجة الاتجار في السوق السوداء ، التي كانت قائمة على قدم وساق في « وارسو » عاصمة « بولندا » . واستطاع أن يدخر من هذه التجارة أربعة آلاف جنيه إسترليني ، ولكنه أعيد إلى الوطن ؛ بسبب هذه التجارة المحرمة ؛ وبسبب إدمانه الشراب . وأنفق مدخراته ، وأصبح ضائق الصدر ، لا يعرف كيف يعيش في ذات المستوى الذي كان يعيش فيه ، ومن ثم فقد أقرضته مئتي جنيه إسترليني على أن يرد لي كل شهر عشرة جنيهات .

« وكان من عادتنا أن نقضي عطلة نهاية الأسبوع في « لندن » و « بورتموث » . وذات مرة ذهبنا إلى « لندن » فقال هاري :

« « إنها فرصة ، يا بونتي ، أن تشربي كأساً مع صديق لي ، سيروقك الالتقاء به . إنه (أليكس جونسون) الملحق البحري الأمريكي في لندن . »

« والتقينا ، وصحبنا أليكس في سيارته للنزهة . ثم دعانا إلى تناول عشاء فاخر في أحد المطاعم الكبيرة . لقد كان رجلاً وسيماً جذاباً ، تعلو وجهه ابتسامة هادئة ترتاح إليها عيون الناظر إليه . له قدرة هائلة على الاستدراج الذكي والملاحظة الواعية . يرتاب في كل من حوله ، ويتفرس في كل وجه يلقاه ، وفي كل ظل يصادفه. لكنه للحقيقة لعب دوره بإتقان ومهارة فيما يتصل بي ، ولعله كان كذلك مع كل العملاء . »

وتغمض بونتي عينيها ، وتضع على وجهها كفيها ، كأنما تطرد الصور الأليمة التي تتراقص أمامها ، وتمحو عار الجريمة الشنعاء الذي يلاحقها . ثم تجيب عن سؤال : كيف أصبحت عضواً في هذه الشبكة التي تتجسس لحساب الروس ، والتي يديرها «جوردون لونسدال » الجاسوس السوفييتي ، الذي قدمه لها هاري على أنه أليكس جونسون الملحق البحري بالسفارة الأمريكية ؛ فتقول :

« قام هاري بعدة رحلات إلى لندن في عام ١٩٦٠ ، وكنت أراه قلقاً مفرطاً في الشراب بعدها . وكنت أشعر بالحيرة لشروده الدائم ، وتخنقني الظنون ، وتحيط بي الشكوك . تشاجرنا ذات مرة بعد عودته من لندن ، وقلت له : « هاري ، أ تراك أحببت امرأة سواي ؟ »

« وسألني متعجباً : ‹‹ ماذا دهاك ؟ هل جننت ؟ ››

« وأجبت في حزم : ‹‹ لا أعرف . و لكني متأكدة من أن امرأة أخرى في حياتك . ››

« وخُيل إليَّ أنه قد سُرَّ بذلك ؛ فقد وجد الفرصة ليتكلم ، قال : ‹‹ ليس الأمر متعلقاً بامرأة أخرى ، ولكني أحس بالقلق . ››

« ‹‹ فيم تفكر ؟ ››

« ‹‹ أفكر فيك . ››

« ‹‹ فيَّ أنا ؟ ››

« قال بسرعة : ‹‹ وما العجب في ذلك ؟ ››

« ‹‹ ولكني بجانبك . ››

« وكأنما ساعدته على التذكر ، فقال : ‹‹ وهل هذا يكفي ؟ أودك قطعة مني . ››

« وساد الصمت بيننا لحظات ، قطعته بقولي : ‹‹ هاري ، هل يشغلك شيء عني ؟ ››

« أجاب وصوته يفصح عن ضجره وضيقه : ‹‹ تشغلني أشياء . ››

« ‹‹ هل أكون متطفلة إذا سألتك عن هذه الأشياء ؟ ››

« ‹‹ ... ››

« وعدت أسأله في إلحاح : ‹‹ ماذا بك ؟ ››

« تلاحقت أنفاسه ، وهو يقول : ‹‹ رأسي يكاد ينفجر ، صدري ضيق حَرِج . أكاد أتمزق . دعيني أرجوك . ››

« ‹‹ هل أنا السبب ؟ ››

« وتنهد تنهداً عميقاً ، ثم قال : ‹‹ أنت حياتي وروحي وفكري . ولكنني في مأزق صعب . ››

« سألته في انزعاج : ‹‹ لماذا ؟ لماذا ؟ ››

« تنفس في عمق ، كمن ينوي أن يغطس في بحر عميق ، وقال : ‹‹ إنه أليكس جونسون ! إنه أليكس جونسون ، يا بونتي ! ››

« ولم أستطع أن أكتم دهشتي ، فقلت : ‹‹ ماذا يريد منك ؟ ››

« قال هاري في كلمات متقطعة ، تنطلق من فمه بصعوبة بالغة : ‹‹ إنه ... إنه يقول ... يقول ... إنه ... ››

« قلت وكأنني أصرخ : ‹‹ ماذا يقول ؟ ››

« زفر زفرة حرّى ، ولم ينبس ببنت شفة . وعدت أسأله : ‹‹ ماذا يقول أليكس ؟ ››

« قال ، وكأنه ينتزع كلماته انتزاعًا عنيفاً من صخر شديد : ‹‹ إنه يستطيع ... يستطيع ... يمكنه ... يمكنه ... أن يدخلني السجن . ››

« قلت في صوت ضعيف غير مصدقة ما سمعت : ‹‹ السجن ! السجن ! لماذا ؟ ››

« وسكت هاري طويلاً ، وأطرق في حزن ، ثم رفع رأسه ، وقال

في صوت مخنوق : «إن أليكس يعرف كل شيء عن صفقات التهريب التي قمت بها حينما كنت في «بولندا» . وقد أشعرني بذلك ، وقال بأنني في موقف حرج ، وأنني إذا لم أتعاون معه فيما يريد فسيبلغ الأمر للشرطة . »

« هزتني المفاجأة هزا عنيفاً ، وغلبتني الدهشة ، وهمست : « تعاونه ؟ تعاونه في ماذا ؟ »

« قال في صوت كسير حزين : « أعاونه فيما يطلبه . »

« قلت أدفعه للمزيد من الكلام وللإفصاح عن الموضوع : « ماذا يطلب ؟ »

« « ... »

« لاحقته بسؤالي : « ماذا يطلب ؟ »

« وزفر مرة أخرى ، وتنهد . ثم قال في صوت متحشرج : « يطلب بعض معلومات خاصة بأسرار الدفاع عن الغواصات . »

« رفعت عيني ، وزممت شفتي في استغراب مشوب بالدهشة والحيرة وقلت : « لماذا ؟ »

« قال وإحدى يديه تضغط الأخرى في حركة عصبية : « إنه يقول إن الأمريكيين يشكّون في أن الإنجليز يخفون عنهم بعض أشياء . »

« ملأت الدهشة أسارير وجهي ، وقلت : « أية أشياء ؟ »

« وفي صوت خافت ضعيف قال : « تجارب ... بعض تجارب

أجريت تحت سطح الماء . »

« نظرت إلى هاري ولا تزال الدهشة تملأ وجهي : « هل يمكن أن تخفي « بريطانيا » في نطاق الناتو - حلف شمال الأطلنطي - مثل هذه التجارب عن حليفتها الاستراتيجية ؟ »

« قال في يأس وقنوط : « هكذا يقول أليكس . »

« قلت ، وأنا أسلّط عليه عينيَّ : « هل حدد كل ما يريد ؟ »

« قال هاري في لهجة حزينة ، وهو يطأطئ رأسه : « لقد طلب مني بعض كتيبات تتعلق بطرق اكتشاف الغواصات تحت سطح الماء . يقول إنها موجودة في مكتب التسجيل في مركز تجهيزات مكافحة الغواصات . »

« وحاولت أن أفهمه أنني لم أعد أعمل في مكتب التسجيل ، ولكنه رفض أن يفهم ، وقال : « إن مشكلاتك لا تعنينا . »

« « وماذا نستطيع أن نفعل ؟ لقد حيرتني . »

« وفي صوت ضعيف لاهث قال : « تأكدي أنني أشد منك حيرة . »

« « وكيف أستطيع أن أساعدك ؟ »

« لم يجب ، وانحدرت الدموع غزيرة من عينيه ، وعدت أقول : « وما الحل ؟ »

« طأطأ رأسه ، وكأنه ينعي آماله ، ويشيع أحلامه ، وقال :

« « لا حل . سأدخل السجن . »

« صرخت كأنما لدغتني أفعى ، وقلت : « لا ، لن يحدث هذا. أؤكد لك ... لن يحدث . »

« قال ، ونظراته تائهة ضائعة ، وكأنه يتحدث إلى نفسه : « بل سيحدث . هل لديك حل آخر ؟ »

« قلت ، وقلبي يكاد يختنق ، وصدري يكاد ينشقُّ : « دعني أفكر في الأمر . »

« ورحت أقلّب الأمر على وجوهه المختلفة ، وفي كل وجه أجد صوت قلبي يهتف بالتمسك بهاري ؛ فلم أكن أتصور أن للحياة مذاقًا بدونه ، وكنت على أتم استعداد لأن أبذل في سبيله ما أستطيع .كان صوت انفعالي حادًّا عنيفًا يطغى على صوت عقلي ويخرسه تمامًا . إنه لمن العسير عليّ أن أصف مشاعري المضطربة ، وأن أصور خواطري المتداخلة في ذلك الحين . وأخيرًا قلت لهاري : « لقد خطرت لي فكرة الآن . »

« سألني في يأس وقنوط : « ما هي ؟ »

« « هاري ، إذا كانت هذه الكتيبات ستفيدك حتمًا فإني على أهبة الاستعداد لأن أحضرها لك . »

« ولم أكن أرسل القول على عواهنه ، فقد كان الأمر عليّ هينًا يسيرًا ؛ فهذه الكتيبات التي تحتوي معلومات عن أجهزة الـ (A Z D I C) التي تتيح للسفن الحربية أن تكشف الغواصات التي

تعمل تحت سطح الماء – كانت في مكتبي أعمل فيها كل نهار . كما كانت الملفات والكتيبات التي تتعلق بالتجارب والأبحاث الخاصة بمكافحة الغواصات في عهدتي الشخصية .

« وطفرت الدموع من عيني هاري وقال والتأثر بادٍ على وجهه وفي نبرات صوته : « حسناً ، يا حبيبتي . إن ذلك ينقذ جلدي . »

« « لا تقلق . سأفعل كل ما تطلب . نعم ، سأفعل كل ما أستطيع من أجل مساعدتك . »

« ونظر إليّ نظرة هائمة ، وهو بين مصدق ومكذب ، ثم قال وصوته يرتعش بالفرحة : « إنكِ ستَفين بوعدك ؟ أليس كذلك ؟ »

« وأكدت له أني لن أضنّ عليه بأي نوع من العون ، ثم قلت : « يجب أن تثق بي ، يا حبيبي ، فمن أجلك أفعل كل شيء . هل فهمت ؟ سأعمل أي شيء ، يا هاري . »

« وقام يحتضن رأسي ، ويقبلني ، ويهمس في أذني بصوت تخنقه العبرات : « أجل ، ليس لي غيرك ، يا حبيبتي . إني مدين لك بحياتي . »

« ثم كانت البداية ، فقد التقينا ثلاثتنا : أنا وهاري وأليكس ، أقصد لونسدال في اليوم العاشر من شهر ديسمبر ١٩٦٠ . كان مكان اللقاء باراً صغيراً قرب « فستيڤال » في لندن . وبعد أن احتسينا كئوسنا قال هاري : « أليكس ، إن بونتي ستعاوننا . »

« ابتسم لي أليكس ابتسامة عريضة ونظر إليّ كأنما يحتضنني

بعينيه ، ثم قال : «هل تستطيعين التقاط صور للكتيبات و النشرات في المكتب ؟»

« «إنني لا أجيد التصوير ، وليست لي فيه خبرة كافية .»

« «إن المسألة في غاية اليسر والسهولة .»

« ثم شرح بإسهاب ما ينبغي عليّ فعلُه ، وسلمني بياناً بثماني عشرة نشرة يريدها ، ثم قال في صوته العميق الممتلئ بالثقة : «هذا كل ما نريد . بعض أوراق نصورها في دقائق معدودة ، ثم نعيدها إليك . وليس في الأمر ما يتطلب حذقاً أو مهارة .»

« ثم وضع أليكس خُطة محكمة ، كنت أحضر – بمقتضاها – الكتيبات لهاري بعد ظهر يوم الجمعة ، فيقوم بتصويرها ، ثم أعيدها إلى مواضعها صباح يوم الاثنين ، دون أن يشعر بذلك أحد من الزملاء ، ودون أن يظهر عليّ ما يريب .

« ومضيت في درب الخيانة بخطوات بطيئة في بادئ الأمر ، غير أنها تسارعت تسارعاً مذهلاً في آخره . كانت في البداية بغير قصد سوى معاونة هاري فيما يقوم به من عمل ، لا أدري حقيقته . وكل همي أن أنقذه من المأزق الخطير الذي يكاد يودعه السجن . ثم تطورت فغدت عمداً ، لا أشعر معه بخطورة ما أفعل ، بل أصبح أمراً مألوفاً لديّ لا غبار عليه . كأنما أفقدته العادة والتكرار كل بشاعة وشناعة .

« ثم كانت النهاية . وبين البداية والنهاية تفاصيل كثيرة متشعبة ، غاية التشعب لما قمت به من أعمال ، وما زودت به هاري من

نشرات وكتيبات . أشياء كثيرة لا داعي للخوض فيها ، والحديث عنها ؛ فقد يصيبكم الغثيان والدوار ، فأنا أشفق على أسماعكم مما فعلت ، وأوثر نفسي بتذوق الألم والعذاب وتأنيب الضمير ، ولكنني صادقة – كل الصدق – فيما أرويه لكم . لم أخرم من الحقيقة حرفًا ، ولم أنحرف بها قيد أنملة .

« لقد كان اليوم يوم جمعة ، وكان تاريخه السادس من شهر يناير ١٩٦١ . وكالعادة اصطحبت معي كتيبات سبعة ، ذات أغلفة خضراء ، تحمل كلها عبارة « سري للغاية » . و وضعتها في ظرف كبير يحمل الأحرف (O . H . M . S.) (في خدمة صاحبة الجلالة) ، ومضيت – والظرف تحت إبطي – أهبط الدرج بخطوات رزينة واثقة ، ولم يَبْدُ أن أحداً يلحظ شيئاً . وما إن خرجت من مبنى هيئة المنشآت تحت سطح الماء في « بورتلاند » حتى أخذت في التلفت بحثاً عن سيارة هاري الزرقاء . وما كاد يلمحني حتى أدار محرك السيارة ، وفتح بابها ، ودلفت إليها ، وانطلقنا إلى المنزل ، حيث قام بوضع الكتيبات السبعة في سلة مصنوعة من القش . يحاول بذلك التمويه والإخفاء ، وتجنُّب إثارة الريب والشكوك .

« وما إن أشرقت شمس يوم السبت السابع من شهر يناير حتى ركبنا قطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين المتجه إلى لندن ، وما إن هبطنا في محط « ووترلو » حتى ذهبت إلى دورة مياه السيدات واشترى هاري صحيفة « الديلي تلجراف » ، وراح يقلب صفحاتها ، ويلقي نظرة سريعة على عناوينها . ثم ركبنا الحافلة رقم ٦٨ حمراء اللون ، ذات الطابقين ، التي تُعد من معالم « لندن » ،

والتي تسير ببطء ، متجهين إلى شارع « وولورث » .

« تجولنا في السوق ، ورحنا نعاين السلع والمعروضات بطريقة بليدة ، وقطعنا شارع « أرست » نشاهد ما فيه من بضائع . وتوقفنا قليلًا عند واحد من الباعة المتجولين دون أن نشتري شيئًا ، ثم عدنا مرة أخرى إلى شارع « وولورث » ؛ لنستقل حافلة أخرى تكرُّ بنا راجعة إلى محط « ووترلو » ، وعبرنا الطريق إلى « الأولد ڤيك » - دار مسرح شكسپير - وكنت خلال ذلك كله أحمل السلة المصنوعة من القش ، كأنني ربة بيت ذاهبة لشراء حاجياتها .

« وكان أليكس يقف أمام المسرح ، يقرأ الإعلانات عن المسرحية التي تعرض الليلة ، وكانت مسرحية عنوانها « حلم ليلة صيف » . تبادلنا معه النظرات ، وكأننا لا نعرفه ولا يعرفنا . و سار خلفنا خطوات قليلة ، ثم تصافحنا مصافحة فجائية ، وقال في تهذيب : « هل أحمل عنك السلة . »

« ومد يده فتناولها . وفجأة حدث ما لم يتوقعه أحد .

« أحاط بنا بعض الرجال ، الذين لا أدري حتى الآن : أ هبطوا علينا من السماء أم انشقت الأرض عنهم ؟ كل ما أدريه أن أحدهم قال في لهجة رسمية جافة : « لا حركة من فضلكم . أنتم جميعًا مقبوض عليكم باسم القانون . »

« وما كاد الرجل يفرغ من جملته هذه حتى اقتادنا الرجال إلى سيارات كانت تقف إلى جوارهم ، و وضعوا كل واحد منا في سيارة في المقعد الخلفي بين اثنين من الرجال . وبعد نحو عشرين

دقيقة كان كل منا في غرفة عارية ، بدون نوافذ ، في رئاسة جهاز « إم . آي . فايف » المسئول عن الأمن القومي البريطاني الداخلي ، والمسئول عن أعمال الجاسوسية المضادة في بريطانيا .

« عندئذ – وعندئذ فقط – أفقت ، وأدركت هول ما أنا فيه ، و وعيت أبعاد المصيبة التي تورطت فيها ، أو إن شئت الدقة في التعبير ورطت نفسي فيها ، فلم يرغمني أحد على شيء مما ارتكبتُ ، وإنما سعيت إليه طائعة مختارة راضية . وإذا كان هناك من ألقي عليه وزر ما فعلت ، فإنما هو قلبي الذي بين جنبي ، ذلك القلب الذي جلبت خفقاته عليّ الصّغار والهوان ، وخلّفت لي المشاعر التي انفعل بها الذلّ والضياع .

« إن ألف ميتة متتالية لن تمحو عار ما فعلت ، ولن تعيد إليّ كبريائي التي تحطمت ، ولن ترد عليّ كرامتي التي ديست . إنني لا أبرر ما فعلت ، ولا أتنصل من تبعة ما اقترفت . ولكني صادقة كل الصدق فيما رويت . لقد كان الجوع العاطفي ينخر في كياني ، وكان الظمأ إلى الحنان يكاد يقتلني ، فما إن وجدت من يشبع جوعي ، ويروي ظمئي ، حتى أسلمت له قيادي ، فكان هذا مآلي .

« هذا المآل الذي أمسيت فيه رهينة قضبان السجن مدة خمسة عشر عاماً ، لعلها كل ما تبقّى لي من العمر . وكذلك هاري الذي أحببته وتورطت من أجله . أما لونسدال الذي تسلل إلينا في حذر وأحكم قبضته علينا ، فعليه أن يدفع من عمره خمسة وعشرين عاماً خلف القضبان . وكذلك تساقط بقية أفراد الشبكة الذين خرجوا على القانون ، وخانوا وطنهم . تساقطوا كما يتساقط الفراش

في النار ! حقا ليس للإنسان إلا ما سعى ، فالخيانة ليست أقداراً يصعب تفاديها . »

فتاة الاستعراض

لا أقول : إن الشمس قد ألقت رداءها على وجهها فإذا هو متألق مشرق ، ولا أقول : إن القمر قد ألقى عليه غلالته الرقيقة الرشيقة فإذا هو عذب رقيق ، وإنما ائتلف لها ذلك كله ائتلافاً بديعاً ، فإذا هي ذات وجه طفولي رائق ترفرف عليه البسمات كما ترفرف الفراشات فوق شجيرة . وقد استقام لها هذا الوجه الطفولي الرائع فوق قامة ممشوقة ريانة ، لا تهدأ حركتها ولا تضطرب . كأنما قد خُلقت لتكون فنانة استعراض ، لا تصلح إلا له ، ولا يصلح إلا لها . فما تكاد تبدأ في عرض فنها الذي أتقنته حتى ينتشر من حولها ضياء باهراً ، وجمالاً ساحراً ، وفتوناً يختطف القلوب ، ويستهوي النفوس ، ويعبث بالألباب .

لقد طافت المدن الأسترالية الرئيسية كلها تعرض فن « الجونجلير » – المشي على السلك المعلق – فلقيت ترحيباً أينما حلت ، وتعلقت بها الأبصار حيثما ذهبت . وكانت حديث كل لسان بفنها الساحر الرائع ؛ بما اتسق فيه من قوة وعذوبة تدفع النفوس إلى الحلم ، والعقول إلى التفكير ، والقلوب إلى الغناء .

تلك هي فتاة الاستعراض « ريتا إيليوت » التي قدمت – كما تقول – من « أولايد » إلى « ملبورن » تبحث عن فرصة عمل ، حيث

يتوافر العمل ويكثر ، فأقامت في أحد المنازل التي يؤمها الفنانون . وسجلت اسمها لدى وكيل أعمال ، سرعان ما أعجب بموهبتها الفنية ، وحركتها الاستعراضية ، فوقَّع معها عقداً للعمل ، وطوَّف بها في المدن الأسترالية ، فذاع صيتها ، وتألق نجمها ، واكتسبت ثقة الجماهير التي صفقت لها ، وخطب المعجبون ودها ؛ فانتقت من بينهم من يروقها ، من كبار موظفي الدولة ، ومن الأفراد الذين لهم قيمة اجتماعية في البلاد ، أو أعمال لها صلة بما تعزم عليه وما تنتويه .

لم تكن ريتا إيليوت هذه إلا الفتاة الروسية « إسفير جريجوريڤنا يورينا » المولودة في موسكو عام ١٩٢٣ ، لأب يعمل فناناً بسيرك موسكو ، وأم تعمل لاعبة « أكروبات » به ، وهي التي وقع اختيار منظمة التجسس الروسية عليها ؛ لتعيد بناء شبكة التجسس في أستراليا بعد أن مزقها « بتروف » بارتداده ولجوئه السياسي ومعه زوجته « أفدوكيا » — تعيد بناء الشبكة بأسلوب غير معروف وبطريقة غير مألوفة .

ذلك أن الروس لم يكونوا على استعداد لأن يدَعوا أستراليا دون شبكة تجسس قوية ، وفيها محطة « ووميرا » لأبحاث الصواريخ الموجهة بمدى (١٥٠٠) ميل ، وأرض اختبار التجارب الذرية في « إيموفيلد » ومنشآت الصواريخ في « سالسبوري » ، ومناجم اليورانيوم العظيمة في « روم جنجل » . فضلاً عن قدر هائل من ثروة اليورانيوم حيث يحتوي الجزء الشمالي من أستراليا على عشرين في المئة من جملة الاحتياطي العالمي .

ومن ثم كان عليهم أن يُعدّوا لبناء شبكتهم فيتقنوا الإعداد ، وأن يختاروا من يقوم بهذا البناء فيحسنوا الاختيار ، وأن يدربوه على مهمته أرقى تدريب وأدقّه ، وأن يجعلوا له غطاء سميكاً لا ينكشف عنه .

وكانت إسفير من أكثر عضوات الحزب الشيوعي السوفييتي ولاء للحزب ، وإخلاصاً لمبادئه ، والتزاماً بمنهجه ؛ فأرسلت في عام ١٩٤٣ إلى دراسة خاصة ، اجتازتها بامتياز ؛ فألحقت بمدرسة إعداد العملاء والجواسيس ، ثم أدخلت مدرسة التجسس « جاتزينا » عام ١٩٤٥ ، وهي مدرسة تختص بإعداد الجواسيس الذين يقع عليهم الاختيار للعمل في بلاد يتحدث أهلها اللغة الإنجليزية .

وفور التحاقها بهذه المدرسة بدأ برنامج التدريب الشاق الذي أعد لها ، فتغير اسمها إلى « ريتا إيليوت » ، واستبدلت بجنسيتها الروسية الجنسية الأسترالية ، وأجمعت آراء الخبراء على أن أستر غطاء لها هو العمل في مجال الفن الاستعراضي نظراً لما تتمتع به من موهبة فنية رائعة .

وكان أن دُرِّبت على الفنون الاستعراضية خير تدريب ، وأتقنت ألعاب « الأكروبات » خير إتقان ، واستطاعت خلال عشر سنوات قضتها في المدرسة أن تتكيف في حياتها طبقاً لما تقتضيه الحياة في المجتمع الأسترالي ، وأن تسلك سلوك من ولدت فيه . ولم تلبث طويلا حتى غدت فتاة أسترالية صحيحة ، في معيشتها وملبسها وحركاتها وطريقة حديثها ولهجتها ، فقال عنها التقرير العام :

« .. ذكية ، رقيقة ، يوثق بها ، يعتمد عليها . تمتلك الجرأة الكافية للقيام بأعمال التجسس ، والأعصاب الهادئة التي تمكنها من الحكم على الأمور بِتَرَوٍّ ، وتتوافر لها كل المواهب والصفات التي تجعلها تبدو وكأنما ولدت عميلة في الخدمة السرية . وذلك بغير شك سيجعلها ذات فائدة كبيرة في المستقبل . »

و لخص تقرير ختامي وُضع بإيجاز ملامح شخصيتها بقوله :
« لديها – وعلى نحو وفير – كل ميزة ينبغي توافرها في عميل من عملاء الميدان . »

وذات يوم .. استدعيت ريتا لِتَلْقي شخصية كبيرة في منظمة التجسس السوفييتي ، إحدى إدارات الـ « كي . جي . بي » ، فقال لها الرجل الذي استقبلها :

« ريتا ، لقد تخيرك الحزب بما لديه من الخبرة وبعد النظر – تخيرك لمهمة دقيقة خاصة . لقد فحصنا ملف حياتك فحصاً دقيقاً ، فازددنا اقتناعاً بأنك خير من يصلح لهذه المهمة . ولا شك أنك تقدرين هذا التشريف الذي أولاه الحزب لك ، وأنك ستبذلين كل ما في وسعك ؛ لتكونن نموذجاً متكاملا كفتاة روسية جادة مجتهدة، خليقة بأن يكون لها مستقبل جيد . ومن ثم أود ألا تخيب آمال الحزب فيك . وكفاك شرفاً هذا الاختيار . »

وسكت لحظة ، ثم قال بلهجة افتعل فيها الخطورة :

« إن ثمة مخاطر وتحديات كبيرة تواجه بلادنا ذات العمق البعيد في الحضارة والتاريخ . وهذه المخاطر الجسيمة والتحديات الكبيرة

تتطلب منا حشد كل القوى ومختلف الطاقات على جبهة المواجهة في معارك الحاضر والمستقبل . وأنت تعلمين أن الغرب هو العدو الأكبر الذي يقف عقبة في طريقنا ، فلا بد أن نعرف كل شيء عن قواته ؛ كي نضمن عدم مفاجأتنا باحتمالات ضارية في المستقبل .

« ولا شك في أنك تدركين أن أفضل طريقة لاستتباب الأمن في بلادنا أن نحول بين العدو ومجازفته بمهاجمتنا . والوسيلة إلى ذلك هي التعرف على إمكاناته وخططه ونواياه مقدماً . هذه هي المهمة التي ستنهضين بها . وستكون جهودك مركزة في أستراليا ، وستتخذين مدينة « ملبورن » قاعدة لعملياتك ، وسوف تتلقين منا فيما بعد التعليمات اللازمة . »

وصافحها مودعًا ، وهو يقول :

« يجب أن تتأكدي أن لعملك هذا قيمة عظيمة ، وأهمية بالغة ، وأن نجاحك يتوقف على اهتمامك بالحصول على المعلومات، وأنه كلما زاد اهتمامك بواجبك استطاعت بلادنا تحقيق أمنها ورخائها . كما أن مهمتك حافلة بالصعوبات ، محفوفة بالمكاره ، وأن جزاءك الوحيد هو أنك تقومين بخدمة بلادك ، وأن جهاز المخابرات السوفيتي يعلق عليك آمالاً كبيرة ، وأن رئيس الوزراء معنيٌّ – شخصيًا – بما ستحققينه من نتائج . »

ردت ريتا : « إنني سعيدة بهذا التشريف في التكليف ، الذي يتيح خدمة الشعب السوفييتي . وإنّني حريصة على أن أكون جديرة بذلك . »

وفي الصباح الباكر من اليوم الأخير من شهر أكتوبر ١٩٥٥ وصلت ريتا الأرض الأسترالية ، مزودة بأوراق و وثائق مزورة ، يتعذر اكتشاف تزويرها ، وتثبت أنها - ريتا - أسترالية خالصة . تضرب جذورها بعمق في الأرض الأسترالية .

ألقت ريتا عصاها بادئ الأمر في « إدلايد » حيث قضت هناك ثمانية أيام ، وكان كل همها أن تمارس حياة طبيعية فوق أرض أسترالية حقيقية ، لا في تجربة نُصبت لها هناك في مدرسة « جاتزينا » على مسافة مئات من الكيلومترات ، جنوب شرقي « كويبشيف » . ثم كانت خطوتها التالية « ملبورن » حيث تمضي فيها بضعة أسابيع لا لتمارس عملاً يتصل بمهمتها ؛ وإنما لتعتاد الحياة الأسترالية الطبيعية ؛ ولتقنع الجميع بصدق أستراليتها -كما تقول بطاقتها - وبأنها تبحث عن عمل يتواءم معها ، ويشبع موهبتها . ولما شعرت بالأمن والأمان بعثت ببطاقة بريدية إلى عنوان في العاصمة النمساوية « ڤيينا » .

كانت الواجهة التي عُرضت من خلالها ريتا رائعة ، وكان غطاؤها - كما يقول علم الجاسوسية - كثيفاً ، يحجب عنها كل العيون ، ويغري بالإعجاب بها ، والثقة فيها ، وسرعان ما تكونت لديها صداقات وصلات اجتماعية متنوعة . واستثمرت ريتا صداقاتها وصلاتها في القيام بعملها ، وتنفيذ مهمتها . واستخدمت أسلوباً جديداً غير مألوف في استخلاص المعلومات من ضحاياها .. هؤلاء الذين كانت شفاههم مطبقة محكمة الإطباق في الظروف العادية . لكنها مع حيلة ريتا الواسعة ، وإغرائها الطاغي أضحت منفتحة أوسع

انفتاح . وهذه حقيقة مقررة ، ففي لحظات الضعف عند الرجل ، وخضوعه لسيطرة الإغواء ، تتفتّح خزائنه على الأموال المكتنزة ، كما تتفَتح شفتاه على الأسرار المكتمة ؛ فيمضي في طريق الخيانة دون أن يدري .

كانت ريتا تتقرب من الرجل الذي يقع عليه اختيارها ، وتتودد إليه ، وتشاركه الطعام والشراب في النوادي والأماكن العامة ، وتغريه وتمهد له الطريق ، فإذا هو يقبل دعوتها ، لاهثًا متلهفاً راضياً شاكرًا ؛ ليذهب معها إلى شقتها الصغيرة الجميلة الأنيقة ؛ ليتجاذبا أطراف الحديث ، ويتناولا كأساً من شراب .

وقبل أن توقع الفريسة في حبائل غوايتها ، تحضر زجاجة الشراب وكأسين ، وتستأذن في تبديل ثيابها ، ويفرغ الرجل الضحية كأسينٍ له ولها ، ويترك بصمات أصابعه فوقهما . ثم تعود تخطر في تثَن ودلال ، وقد ارتدت ثياباً تكشف أكثر مما تستر ، وتجلس إلى جانبه ، وتقدم له كأساً وقد امتزج بها مخدر ، يضعف إرادته ، ويرخي قبضته ، أو يزيد من كليهما بتعبير دقيق . وتدور الكئوس وقد التصقت به التصاقاً شديداً .. ثم تدعه مستلقياً على ظهره ، وتروح تنومه تنويماً مغناطيسيًّا ، وهي تقول له برفق مرات متتالية :

« استرح .. ببطء .. بعمق . »

وماهي إلا لحظة حتى يكون في غيبوبة كاملة . وهنا تسأله ريتا :

« قل لي يا .. ماذا عن .. ؟ »

وتوحي إليه تحت تأثير العقاقير والتنويم المغناطيسي أنه يقدم تقريراً

لرؤسائه ، فتنحَلُّ عقِدة لسانه ، ويجيب – في صراحة و وضوح – عن كل سؤال توجهه إليه ، ويحيطها علماً بكل ما تود الإحاطة به. وتسجل هي كل ما يتفوَّه به ، ثم تحمله على نسيان كل ما نطق به ، وتوهمه في أثناء إيقاظه وقبل إعادته تماماً إلى حالة الوعي الطبيعي– توهمه أنهما كانا في جلسة هادئة ، يتناجيان ويتطارحان الغرام ، ويحتسيان الشراب .. وعندما يصحو تسأله :

« هل تعرف ماذا حدث لك الآن يا .. ؟ »

فيهز رأسه قائلا : « أين كأسي ؟ »

كان كأس الخمر آخر ما يتذكر . وكان هذا ما تريد . وهكذا كان ضحاياها أو فرائسها تحت تأثير الجنس والتنويم المغناطيسي . لا يدرون أنهم خيوط في نسيج شبكة قوية للجاسوسية السوفييتية . استطاعت ريتا من خلال سحر جاذبيتها ، وتهالُك الرجال على صداقتها – أن تعمل خمس سنوات بنجاح وكفاية واقتدار ، وبمهارة وبراعة أكسبتها رضا رؤسائها ، وإكبار الجنرال « سيزوف » رئيس المخابرات العامة السوفييتية في تلك الآونة .

ولكن العين الساهرة في أستراليا بدأت ترتاب في ريتا . شدَّ انتباه رجال مكافحة الجاسوسية المضادة الصداقات التي تعقدها ريتا مع شخصيات لها صلة – من قريب أو بعيد – بالأبحاث الذرية ، ومع شخصيات من العاملين في الدولة تحت أيديهم من الأسرار ما تتحرَّق أية دولة للحصول عليه . وتملَّكهم خوف شديد وقلق بالغ من هذه الصداقات ، فاتخذوا قرارهم وهو مراقبة ريتا .

وفي الوقت ذاته نشطوا في التحري عن هذه الشخصيات الأسترالية ، وأجروا تحقيقات معهم حول علاقاتهم بالفنانة الاستعراضية الأسترالية . وأكدوا جميعهم – دون أن يلتقوا – أن علاقاتهم بها علاقة اجتماعية خالصة ، وأن حديثها معهم لم يتطرق قط إلى أمور سياسية أو أبحاث علمية . وكان هذا وسام نجاح رائع على صدر ريتا إيليوت . إن هؤلاء الرجال لم يدرك واحد منهم حقيقتها ، ولم يشك واحد منهم لحظة في مظهرها ، وإنما التقوا بها في جو من الثقة المزيفة ، وتحت ستار من الصداقة الكاذبة دون أن يدروا .

ولما لم يكن لدى رجال المخابرات سبب واحد يحملهم على الشك في هؤلاء الأشخاص ؛ فقد ركزوا أبصارهم على ريتا ، وراحوا يرصدون حركاتها ، ويسجلون همساتها ، ويحصون أنفاسها ، وتلتقط آلاتهم صور من يدخل مسكنها أو يخرج منه . لقد قطنوا في منزل صغير مواجه تماماً لمنزلها .

وفي هذه اللحظات الحرجة الدقيقة تظهر دقة رجال المخابرات ، وحرصهم على سلامة عملائهم . فقد تلقى رجل المخابرات السوفييتية المنوط به تأمين سلامة الجواسيس العاملين في أستراليا – تلقى تحذيراً من مصادره أن ريتا تحت العيون الأسترالية ؛ فأخطر بذلك رئاسته في موسكو ، كما أخطر ريتا لتأخذ حذرها .

وأمرت ريتا أن تكف عن كل نشاط سري ، وأن تمضي في نشاطها الفني ، وأن تعقد صلات مع الرجال كأن شيئاً لم يكن . ولكن عليها أن تتخلص من أي دليل يدينها ، وأن تمتنع عن

الاتصالات الهاتفية ، وأن تختزن ما تلاحظه في ذاكرتها دون أن تدون أية كلمة مهما كانت . ومع كل ذلك فعليها بالحذر البالغ والحرص الشديد . كما كُلِّف عميلان من المتعاونين مع السوفييت باقتفاء أثرها ؛ لمراقبة تطورات الموقف ، ومواجهة الطوارئ .

وذات يوم ولجت ريتا مسكنها ، فأدركت بعين الخبير أن مسكنها قد استقبل زائراً ذا أصابع مدربة ، فحصت أمتعتها ، وعبثت بأثاثها ، ولم تترك أثراً ، فكل شيء في مكانه ، غير بعض تغيرات طفيفة لم تخْفَ على عين ريتا المدربة الخبيرة .

ومرة أخرى اكتشفت بعض مكبرات الصوت الدقيقة مزروعة في أماكن مختلفة من مسكنها : خلف المقاعد ، وفي داخل الثريات ، وفي الأركان . فلم تلمسها ، وكأنها لم تكتشفها ، ومضت في سلوكها العادي .

ومرة ثالثة وجدت ريتا آلة صغيرة في حجم قرص « الأسبرين » مثبتة تحت ياقة معطفها ، وتظاهرت بأنها لم تلحظها ، ثم وجدت آلة من نفس النوع في حقيبة يدها . وكلما انقضت الأيام كانت تجد مزيداً من هذه الآلة – التي تسجل وتنقل الأحاديث لاسلكيًّا – مثبتاً بطرق مختلفة على أمتعتها الشخصية .

لقد حار رجال المخابرات الأسترالية في أمرها . إنهم يشكون فيها شكًّا قويًّا ، ويرتابون فيها ارتياباً بالغًا ، ويُحكمون مراقبتها إحكاماً شديداً . ولكنهم لايجدون بين أيديهم مايدينها .

وكان لرجال القسم الثالث في رئاسة الخدمة السرية السوفييتية

اتجاه آخر ، فقد رأوا أنه لا جدوى من بقائها في أستراليا ؛ فقد أصبح وجودها هناك محفوفاً بالمخاطر ، وقد يفتضح أمرها في أية لحظة . فقرروا نقلها إلى مكان آخر ، ويبدو أنهم اعتبروها قد احترقت ؛ فالجاسوس يصبح غير ذي موضوع للجهاز الذي يقاومه يوم يكشف أمره ، ويصبح كذلك للجهاز الذي يوجّهه يوم يُقبض عليه .

وحيث إنه لا مجال للمصادفة في حرب الدهاء هذه ، فقد تلقت الفنانة الاستعراضية الأسترالية ريتا إيليوت في يناير ١٩٦١ عروضاً حقيقية ؛ للقيام بجولة فنية في الهند و باكستان وتايلاند وهونج كونج ، تعرض فنونها الاستعراضية . ونشرت الصحف الأسترالية في مكان بارز ، وتحت عناوين مثيرة ، هذا الخبر : « ستقوم الفنانة الاستعراضية الأسترالية ريتا إيليوت بجولة فنية ، تحيي فيها العديد من الحفلات ، بعدد من عواصم الشرق الأقصى . »

وفي وداع حافل مثير من جماهيرها ، وتحت سمع وبصر المخابرات الأسترالية ، رحلت ريتا إيليوت عندما أوشكت الشمس على المغيب ، في اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٦١ إلى « بومباي » ، حيث قدمت بعض عروضها الفنية ، ثم إلى « باكستان » . وكانت هذه محط النهاية ، فقد اختفت ريتا عن الأنظار . اختفت كما يختفي الشبح ، وذهبت كما يذهب الحلم . و واجه رجال المخابرات الأستراليّون الموقف بذهول شديد وغضب أشد . وأفاد آخر خبر مؤكد عنها أنها امتطت طائرة اسكندنافية متجهة إلى روما .

طريق الضياع

لم يعرف النوم إلى عينيه طريقاً ، فهو دائم التّململ والتقلب ، كأنما ينام على فراش من الشوك المتجدد ، أو من الجمر المتوقد. فبات يقتات السهد ، ويعذبه الأرق ، ويكويه الندم . وراح يسرِّح البصر بعيون زائغة في هذا الشعاع المتراقص أمامه ، المنبعث من مصباح واهن لا ينطفئ ، في هذا السجن الانفرادي الذي لبث فيه ، يترقب تنفيذ حكم الإعدام الذي قُضي به عليه .

تزاحمت عليه الخواطر الكئيبة ، وتقاذفته أمواج المكاره ، حتى ضاقت به نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فلم يبق له منها إلا هذا الموضع الضيق الذي يُرجع البصر فيه فينقلب إليه خاسئاً وهو حسير .

وبرقت في رأسه المثقل بالهموم فكرة ، ولمعت في ذهنه الكليل خاطرة ، أن يكتب حكايته التي قادته إلى ما هو فيه ، لعل غيره من الشباب يقرؤها فيكون له في ذلك عظة .

ونحن نوردها كما أثبتها في يومياته ، دون تزويق أو تنميق أو تعديل إلا ما تقضي به الضرورة – ضرورة الأمن أو ضرورة التعبير :

اسمي الذي عُرفت به : محمد سامي عبد العليم نافع ، مصري الجنسية ، قاهري المولد والنشأة . شكلي عادي ليس فيه ما يجذب أو ينفِّر . ذكائي ليس مفرطًا ، وثقافتي متواضعة . لا أحفل بأمور السياسة ، ولا أقيم وزنًا لكثير من القيم التي يعتز بها الناس . كل ما يعنيني في الحياة هو المادة ، أحصل عليها من أي طريق ، وأتلفها في أي سبيل ، فلا طموح عندي يربطني بالحياة ، ولا هدف يشدني إلى السعي نحوه .

توالت أيام حياتي يجر بعضها بعضاً حتى بلغت ما أنا اليوم فيه، ففي يوم ١٨من أبريل ١٩٥٦ كنت ضائق الصدر ، ممزق النفس ، لاعمل لي ، ولا مال عندي . يسيطر عليّ همٌّ مُقْعِد مقيم ؛ فقد اعتذرت معظم الشركات التي تقدمت إليها بطلب للحصول على عمل اعتذاراً مهذباً ، بأنها احتفظت باسمي لحين الحاجة إلى خبرتي . فقررت المغامرة ، وسافرت إلى المملكة الليبية علّني أجد فيها ما أتوق إليه .

٢٣ من أبريل ١٩٥٦

جلست على مقهى بأحد أرصفة طرابلس ، يلفني الضياع ، وتأكلني الحسرة والمرارة ، وتبدو على وجهي الكآبة . ولكن القدر ساق إليّ فرصة طيبة : فقد تعرفت على شاب لبناني اسمه « سليم » ودار بيننا الحديث ، وعرفت منه أنه يعمل في مؤسسة تجارية إيطالية كبيرة ، وأنّه يعزُّ عليه أن يتركني في هذا الضيق والكرب ؛ ومن ثم فسيسعى عند القائمين على أمر هذه المؤسسة ؛كي يوفر لي عملاً في الميناء الإيطالي « جنوا » بأجر سخي . ثم سألني عن عملي

وخبرتي وحياتي ، و وعدني خيراً ، فاستبشرت .

٢٧ من أبريل ١٩٥٦

غادرت مطار طرابلس الدولي برفقة سليم اللبناني على متن طائرة تتبع شركة « أليتاليا » متجهين إلى روما ، وهناك نزلنا في أحد الفنادق ، وطلب مني سليم أن أكون متهيئاً في صباح اليوم التالي للالتقاء بالشخص الذي سيساعدني في الحصول على العمل. وأعطاني عشرة آلاف ليرة إيطالية لتغطية نفقات إقامتي في الفندق حتى يتيسر لي العمل .

٢٨ من أبريل ١٩٥٦

جاء إلى الفندق شخص يتكلم اللغة العربية بطلاقة ، وقدم لي نفسه باسم « عصام » وأفهمني أنه صديق سليم ، وأنه سعى إليّ ؛ ليدبر لي عملا مناسباً في مؤسسة تجارية كبيرة . وبين لي أن هذا العمل – إذا تم إلحاقي به – فسوف يدرُّ عليّ مالاً وفيراً ، وقد أتقاضى بعض الحوافز والمكافآت على مجهودات خاصة . وأضاف أنّه يخيَّل إليه أني سأحظى بالقبول في هذه المؤسسة . وكان الرجل شهماً نبيلا مهذباً ، فأعطاني عشرة آلاف ليرة إيطالية – أيضاً – لتغطية مصروفاتي .

١٤ يونيه ١٩٥٦

التقيت عصاماً في الأيام الماضية مرات عديدة ، وتبادلنا أحاديث مختلفة ، وتبين لي بجلاء أن كل ما تم من لحظة التقائي بسليم في

طرابلس وحتى الآن ما هو إلا أحد الأساليب الماكرة ، التي يتبعها صيادو الجواسيس للإيقاع بفرائسهم في حبائلهم التي ينصبونها بحذق ومهارة . لم يكن سليم غير أحد عملاء المخابرات الإسرائيلية المكلفين باصطياد العرب في الخارج ، و تقديمهم إلى ضباط « الموساد » . و لم يكن عصام إلا ضابط « الموساد » المكلف بالتجنيد . ولم تكن المؤسسة التجارية الكبرى سوى مؤسسة « الموساد » . ولم يكن عندي وازع يعصمني من الخضوع لهم ، ولا دافع يحول بيني وبين الاستجابة لرغبتهم ، بل تلاقت مصلحتي ومصلحتهم : فأنا يعوزني المال وأسعى إليه ، وهم يطلبون المعلومات ويدفعون الثمن ؛ فوافقت .

٢٩ من يونيه ١٩٥٦

تحددت مهمتي بوضوح ، وهي تتلخص في الحصول على رسوم تفصيلية لمطار دمشق ومنشآته ، ومخازن الطائرات وأنواعها ، وأعداد الطيارين وأسمائهم ، وبعض المعلومات السياسية والاقتصادية عن سوريا ومصر .

٧ من يوليه ١٩٥٦

قام عصام بتدريبي على الطرق التي يمكنني الحصول بها على المعلومات ، دون أن أثير شكا أو ريبة . كما دربني على كيفية كتابة التقارير بالأحبار السرية ، وكيفية إظهارها ، وعلى الوسائل التي أخفي بها الوثائق والمستندات والأفلام . وحدد لي عنواناً أكتب إليهم فيه (٢٠ شارع جراز بولي – روما) .كما حدد عنواني في

دمشق ، وهو « فندق قصر النيل » ، وأكد عليَّ أن أعنى بتكوين صداقات وعلاقات اجتماعية مع المصريين والسوريين . وبذلك غدوت جاهزاً للعمل .

١١ من أكتوبر ١٩٥٦

سافرت إلى دمشق ، واستقر بي المقام في فندق قصر النيل ، وشرعت في ممارسة نشاطي ، وبعثت بحصيلتي إلى « روما » . ولكن هذه الحصيلة لم تكن في المستوى المطلوب عندهم ، فألحَّ عليَّ عصام في أن أبذل مجهوداً أكبر ، وفي أن أحصل على تفصيلات أكثر وأدق . وفعلت ما أراد .

٨ من مارس ١٩٥٧

كثر ما يطلبه عصام من معلومات ، وتجاوبت معه ؛ فكثرت النقود في جيبي ، و وجدت منها بين يدي ما لم أكن أحلم به . اختلطت عليَّ الأمور اختلاطاً شنيعاً . وبتُّ لا أفارق الكأس ، ولا أترك صحبة السوء ، ولا هَمَّ لي إلا الحصول على المال و بعثرته .

٢٧ من نوفمبر ١٩٥٧

أعانتني الظروف ، فساقت إلى فندق قصر النيل الذي أقيم فيه الميكانيكي الفني « مرتضى مصطفى التهامي » وبعض زملائه من القوات الجوية المصرية ، فقدمت نفسي إليهم في ظلال ساتر مزيف ، وهو أنني ضابط بحري سابق . وبذلت مجهوداً كبيراً لاكتساب مودتهم وثقتهم ، دون أن أثير في نفوسهم شكا أو ريبة فيما أهدف إليه ، وهو الحصول على معلومات من خلال أحاديثهم .

٢٥ من يناير ١٩٥٨

توثقت علاقاتي بمرتضى وزملائه ، وتوطدت صلتي بهم ، وازدادت ثقتهم بي ، وكنت أدعوهم إلى بعض الليالي الماجنة ، وأقدم لهم أحياناً - بعض الهدايا - وأيسّر لهم بعض الأمور. واستطعت من خلال تبادل الأحاديث معهم الحصول على قدر كبير من المعلومات العسكرية ذات القيمة الخطيرة ؛ فهم لم يكونوا يحرصون على كتمان شيء ، بل لعل بعضهم كان يتباهى بمعرفته الكثير ، وبعضهم كانت تنحلُّ عقدة لسانه بعد قليل من الخمر . لقد كان لكل كلمة من كلماتهم وزنها ، ولكل همسة من همساتهم قيمتها ولكنهم لا يدرون أو لا يشعرون .

١٢ من فبراير ١٩٥٨

كثيرة هي الأسئلة التي يزدحم بها صدري ويطلب عصام عليها الجواب . ومرتضى وزملاؤه لا أجد منهم عنتاً في الحصول على الجواب ؛ فهم - لفرط ثقتهم بي ، أو لعدم حرصهم وحذرهم - يجيبون في يسر وبساطة ، ويجهلون أو لا يدركون خطر ما يتفوهون به.

٤ من مارس ١٩٥٨

لا أذيع سرا إذا قلت : إنني بذلت مجهوداً قويا ؛ لكي أوطد صداقتي بمرتضى ، الذي كان سعيداً بصحبتي ، مبتهجاً بصداقتي ، والذي كان يسلك مع زملائه مسلك المتعلمين وإن كان بلا ثقافة ، وحاولت بشتى الطرق غير الشريفة توريطه - بناء على تعليمات

عصام – تمهيداً لتجنيده للعمل معي ، مستغلا سوء حالته المادية ، ورغبته في تحسينها . وسرعان ما تطورت علاقتنا إلى علاقة سرية هدفها التعاون في مجال التجسس .

٢٦ من مارس ١٩٥٨

لقد فررت من الضياع الذي كنت أعانيه ، إلى الخيانة التي التصقت بجلدي ، وجرت مجرى الدماء في عروقي . ولم يكن أمامي غيرها أكمل في طريقها حياتي ، فقد كنت متشبثاً بالحياة ولذائذها ، فلم أفكر في التراجع عن طريقي – هذا الطريق الذي أجده الآن كريهاً ، لا تستطيع بحار الدنيا ولا محيطاتها ولا أنهارها أن تغسل عاره ، أو تمحوه عني .

١٢ من أبريل ١٩٥٨

انتهى عمل (مرتضى) في سوريا ، والتقيته اليوم ، و وضحت له مهمته ، وأعطيته العنوان الذي يراسلني عليه ، وهو : صندوق بريد رقم « ٢٢٣٣ » دمشق .

أول يوليه ١٩٥٨

وصلت إلى القاهرة قادماً من دمشق ، وقابلت مرتضى وطلبت منه إعداد المعلومات التي طلبها عصام عن القوات الجوية بمطار أنشاص الحربي ، و وعد مرتضى بإعدادها في فترة أقصاها أسبوع .

١١ من يوليه ١٩٥٨

رجعت إلى دمشق ، أحمل المعلومات التي أعدها مرتضى ، ولم

أشعر بأهميتها ، ولا بمدى خطورتها أو ضررها على بلدي الذي نشأت فيه ، واغتذيت من خيراته . ولا أخفي أنه كانت تخالجني في بعض الأحيان لحظات ندم ، ولكني كنت أذودها عن نفسي سريعاً ؛ فعلام الندم ؟ وهي حياة واحدة أعيشها ، وعليَّ أن أستمتع بكل لحظة من لحظاتها ، بغض النظر عما أؤديه « للموساد » من خدمات وما أنقله إليها من معلومات ، ما دامت تدفع الثمن .

أول سبتمبر ١٩٥٨

وصلت إلى مرتضى أول رسالة من « الموساد » تطلب معلومات أكثر تفصيلا ودقة عن مطار أنشاص الحربي ، وعن بعض المطارات الحربية الأخرى . تزايدت المراسلات بينهما ، وتعددت الأسئلة ، وتدفقت الأجوبة ، وتسربت الأسرار المصرية .

٩ من يوليه ١٩٥٩

استدعاني عصام للالتقاء به في روما ، حيث أخبرني أن طريقة الاتصال بيننا ستتغير ، وأنها ستصبح عن طريق الاتصال اللاسلكي ، ثم قام بتدريبي على كيفيته وتردداته وأوقاته في الأحوال العادية وفي حالات الطوارئ ، كما علمني طريقة التشفير والحل . وكلفني بالانتقال من دمشق إلى القاهرة ؛ لأقوم بجمع معلومات شاملة وافية عن مطار ألماظة الحربي ، وأعداد الطيارين الموجودين به وأسمائهم ، والتدريبات المختلفة التي تتم فيه . ورفع راتبي إلى مئة وخمسين دولاراً ، وكافأني بستمئة دولار أخرى .

١٨ من يوليه ١٩٥٩

بلغت القاهرة ، ومعي كل أدوات التراسل الجديد ومعداته ، واستأنفت نشاطي مستخدماً حواسي كلها في يقظة وحذر. وانتهزت كل فرصة سنحت لي ؛ رغبة في هذه الدولارات التي ترميها إليَّ « الموساد » .

٢ من فبراير ١٩٦٠

لم ألحظ قط أن هناك من يقفو أثري ، ويترصد خطواتي ، ويحصي حركاتي ، ويسجل لفتاتي ، حتى ولو كانت اللفتة لإشعال لفافة تبغ . ولم يحذرني رجال « الموساد » مما يتربص بي ؛ فقد خفيت عليهم حركة المخابرات المصرية . وما إن تجمعت لدى المخابرات المصرية كل خيوط الخيانة وحقائقها ، واستقامت عندهم أدلتها الدامغة ، وبراهينها الساطعة – حتى ألقَوا القبض عليَّ ، وعلى شريكي مرتضى .

وكانت الخاتمة التي صنعناها بأيدينا ، تلك الخاتمة التي أودعت شريكي مرتضى خلف القضبان ، يقضي خمسة وعشرين عاماً ، وأودعتني هذا السجن الانفرادي لا أذوق للنوم طعماً في انتظار تنفيذ حكم الموت شنقاً .

لم أخلِّف ورائي غير العار ، عار الخيانة . وصدق المثل القائل : « المرء حيث يضع نفسه . »

الضربة القاضية

رغبتْ إليه – ورغبتها أمر – في أن يقضيا عطلة نهاية الأسبوع في مصيف هادئ ، يطلق عليه مصيف « زاكوبان » ، في جبال « تاترا » ، وسبقها إلى هناك حيث وجد أن خليلته « كريستينا » قد حجزت حجرتين لهما في فندق يحضنه الجبل ، فيبدو من بعيد وكأنه لوحة رسمتها ريشة فنان بارع ، يعشق الطبيعة ويمحضها حبه كله .

دخل غرفته ، فراعه جمالها ، وراقه تنسيقها ، وأخذ يعد العدة لتناول العشاء في الغرفة ، ريثما تهلُّ عليه صاحبته بقامتها الفارعة ، وطلعتها الرائعة ، وراح يمنّي نفسه بعطلة يحلو فيها السمر ، وتعذُب فيها المفاجأة ، وتخلو ليالي العاشقين من الحُسّاد . وجلس ينتظر ما يتمناه .

ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فقد كانت تنتظره مفاجأة لم يتوقعها قط ، ولم تخطر على باله بحال ، بل لم يكن يتصورها حتى في خياله . فعندما أعلنت الساعة تمام السابعة سمع طرقة خفيفة على الباب ، فكاد قلبه يقفز من صدره ، وأسرع يفتح لصاحبته الباب . ولكن لم تكن كريستينا ، وفوجئ « بيتر شميدت »

برجلين ، لم يسبق له أن رأى أحداً منهما ، قد اندفعا إلى داخل الغرفة بطريقة أثارت دهشته واستغرابه ، وبعناية فائقة أغلق أحدهما الباب ، ومضت دقائق طويلة ثقيلة ، لا يدرك فيها شميدت من الأمر شيئًا ، وعلت وجهه أمارات استفهام ، وعلامات حيرة ، ومحاولات استقراء . ثم حنى أحدهما رأسه في حركة جافة ، وقدم نفسه إلى شميدت على الطريقة الألمانية ، ذاكراً اسم أسرته قبل اسمه ، ثم قال: « أنت هر شميدت فيما أظن . »

حدّق شميدت النظر في الرجل ، ثم أجابه باللغة الألمانية : « هذا هو اسمي حقا . ولكني لا أذكر أنني أعرفك . »

هز الرجل رأسه موافقاً ، ثم قال : « في وسعي أن أشرح لك الأمر . »

وفي انفعال خائف ، قال شميدت : « حسناً ، ماذا تريدان ؟ »

صمت الرجل لحظة ، خالها شميدت دهراً ، ثم قال في رقة وأدب : « سيدي ، إنني آسف من أجلك ، وقد جئنا نخبرك بأن السيدة التي تنتظرها لن تستطيع الحضور . »

و وضع الرجل الآخر حقيبة صغيرة على المنضدة ، وأخرج منها جهاز تسجيل ، ثم قال باهتمام متكلف : « ولكنها تود منك أن تستمع إلى هذه الرسالة . »

وأدار الرجل الجهاز ، فإذا أصوات تنبعث منه هي الأحاديث والهمسات التي كانت تجري بينه وبين كريستينا في الأمسيات والليالي ، التي قضياها معاً في ألمانيا وفي بولندا . وبينما كان الجهاز

لا يزال يعمل ، أخرج الرجل من الحقيبة مجموعة من الصور سلمها « لشميدت » ، وهو يقول : « وهذه بعض تذكارات أخرى بعثت بها إليك . »

ونظر شميدت في الصور ، فإذا هي صوره في أوضاع مختلفة مع صاحبته كريستينا . بعضها قد التُقط في أماكن عامة ، وبعضها قد التُقط من ثقب في غرفة النوم . وكانت هذه الصور تكشف عن نوعية العلاقة التي تربط بينه وبين كريستينا كشفاً بيناً ، وتوضح مداها توضيحاً لا لبس فيه .

ومرّت لحظات من الصمت الثقيل الذي غطّى الغرفة ، قطعها أحد الرجلين بصوت جاف آمر : « اسمع ، سأوجز كلامي معك ، فلا شكّ أنك تعلم الآن لماذا نحن هنا ؟ »

وبسرعة أعلن الزائران الغريبان إليه أن هذه الشرائط والصور ستعرض على زوجته ومعارفه وأصدقائه ؛ مما يسبب له فضيحة صارخة وخيمة العواقب ، إذا لم يوافق على ما يطلبانه ، وينفذ ما يأمرانه به .

وقف شميدت وسط الغرفة واجماً ساكتًا ، ترتعد فرائصه ، ويتصبب العرق من جبينه . ألجمت فاه الصدمة ، فلم يستطع أن ينبس ببنت شفة ، يتردّد بصره بين الجهاز والصور لا يكاد يستقر على شيء . وفجأة جلس على المقعد ، وراح يمزق الصور بحركة عصبية ويسحقها بقدميه .

قال له أحدهما متهكّماً : « أعتقد أنه لم يكن يليق بك أن تفعل هذا . وعلى كل فلدينا غيرها ، ومدّ يده في الحقيبة فأخرج مظروفاً

به مجموعتان من الصور ، ولم يكن ذلك غائباً عن شميدت ، فهو يدرك أن عندهم مجموعات أخرى ، وأن لديهم الصورة السلبية ، وأن تمزيق الصور لن يغير من الأمر شيئاً ، ولكنها حركة لا إرادية ، علّها تنفس عن صدره المكروب ، الذي راح يرتفع وينخفض ، بينما الأفكار القاتمة والخواطر السوداء تزحم رأسه . هل وقع في شرك نصب له ؟ وهل كانت كريستينا ضالعة فيه ؟ ويا تُرى هل تسعى لتخليصه من هذا المأزق لو علمت به ؟ وهل يمكنه أن يغري هذين الرجلين بالمال ويشتري سكوتهما ؟ هل .. وهل .. ؟

وبعد جهد جهيد تمالك نفسه المقهورة ، ورفع رأسه المثقلة ، ثم قال : « هل أعتبر هذا تهديداً ؟ »

أجاب أحدهم بهدوء وبرود : « لا ، يا عزيزي ، إنه حقيقة . »

صعَّد شميدت بصره في الرجل ، ونزله ، ثم قال : « ماذا تطلبان ؟ ما الثمن الذي تفرضانه ؟ يجب أن تحددا ما تطلبان . »

نظر أحدهما إلى وجهه نظرة طويلة فاحصة ، ثم قال بلهجة حادة ، وهو مقطب الجبين :

« استمع إليَّ ، يا شميدت . قد نفكر في معاونتك ، ولكن عليك أن تؤدي لنا بعض الخدمات . لا تنس أنك مواطن بارز في بلادك ، تتبوأ مكانة عالية في مجال الصناعة ، وذلك يتيح لك أن تسدي العون لجهاز المخابرات البولندي ، ومن غير إحراج سيستفيد كلانا من صاحبه ، وقد اخترناك لتنفيذ مهمة دقيقة ، ونأمل أن تنجح فيها . إن مهمتك يا سيدي تتنوع ما بين الحصول على نماذج مما تطلبة

الحكومة من تصميمات إلكترونية ، تبعث بها إلى شركتك وغيرها من الشركات التي تنافسها ، وما بين معاونتنا في تسلل العملاء البولنديين إلى مختلف المصانع الألمانية ، فعلاقتك وثيقة بأعضاء مجالس إدارتها ، وما بين موافاتنا بتقارير دقيقة عن الشخصيات الألمانية ذات المكانة في ميدان الصناعة . »

ثم أردف الرجل بعد فترة صمت قائلاً : « يجب أن تعرف أننا قد اخترناك للقيام بمهمة حيوية . وهذا تشريف عظيم لك نتوقع منك أن تحرص عليه ، وتنفذ المهمة بدقة وإخلاص . هل اتفقنا ؟ »

وقع القول عليه وقوع الصاعقة ؛ فلم يُحرْ جوابًا ، ولم ينطق بحرف ، وإنما هو الصمت الذاهل ، والوجوم الساكن ، والرجفة حتى النخاع ، والبصر المعلق بالرجلين لا يَريم . حتى ضاق به الرجلان فقال أحدهما في عنف وحدة: « أ ما عندك شيء تقوله ؟ »

فتح شميدت فمه ليتكلم ، ولكن لسانه لم يستطع حراكًا ، فأخذت أحدَ الرجلين رقة له ، فثبّت عينيه في عيني شميدت ، ثم قال :

« اسمع ، يا شميدت . إننا نطلب منك القيام بهذه المهمة ، ولا شك عندنا في أنك تقدر موقفك ، وتعرف مصلحتك ، وتجيبنا إلى ما طلبنا ، فليس من مصلحتك أن تشاهد زوجتك وأصدقاؤك ولا أن يسمعوا هذه الشرائط ، وتلك الصور ، فأنت تعلم مدى تشددهم وتحفظهم في مثل هذه الأمور ، التي قد نراها نحن شئونًا خاصة ، ولكنهم لا يرونها كذلك كما تعلم . »

لاذ شميدت بالصمت ثواني معدودات ، ثم صرخ في غضب قوي : « هذا ابتزاز قذر . »

رد الرجل بهدوء : « أعلم ذلك ، ولكن قبل أن تلقي علينا دروساً في الأخلاق فكِّر في خطيئتك . »

ولم يتكلم شميدت ، بل عاد إلى صمته المطبق الذاهل ، فزمجر الرجل في وجهه قائلا : « ليس من المجدي أن نضيع وقتنا . هل فهمت ماذا أعني ؟ »

وظل شميدت في صمته ذاك المطبق الذاهل ، فوضع الرجل الآخر يده على كتفه ، متصنعاً الرفق والشفقة ، وقال : « من الخير لك أن تستخدم عقلك ، وتقبل ما عرضناه عليك . »

مرت ثوانٍ أخرى وشميدت لا يزال مغرقًا في صمته ذاك ، فصاح فيه الرجل الأول قائلا : « هل تظن أن عليَّ أن أعيد عليك ما قلتُه عشر مرات ؟ »

ولكن شميدت لا يزال غارقًا في صمته ذاك المطبق الذاهل ، ثم أخيراً رفع رأسه ، وقال في صوت متهدج يقرب من البكاء : « لا بد أن تسمحا لي بوقت كافٍ للتفكير في الأمر . »

قال الرجل في لهجة السيد الآمر : « حسناً ، سنعطيك فرصة حتى مساء بعد الغد . »

ونصحاه أن يوافيهما في فندق « بريستول » ويتقابلا في ردهة الفندق ، في تمام الساعة السابعة مساء . وانطلقا مصطحبين معهما

جهاز التسجيل والصور دون أن يضيفا كلمة ، أو يلقيا إلى الوراء نظرة .

وقضى شميدت ليلة ليلاء ، لم يغمض له فيها جفن ، ولم يذق للنوم طعماً ، وإنما ظل ساهراً يتقلب في فراش من الجمر ، فجلس يدخن في نهم وشراهة . يمسح جبينه بيده تارة كأنما ليمحو من ذاكرته ما مر به من أحداث ، ويضع يديه على عينيه تارة أخرى كأنما لا يود أن يبصر ما شهدته جدران الغرفة ، ويفركهما بيديه تارة كأنما ليستيقظ من هذا الحلم المزعج ، ويفيق من هذا الكابوس الثقيل . ولكن الحقيقة كانت قد أنشبت مخالبها في عقله فما يستطيع منها فكاكاً ، ولا عنها تحولاً ، فأفاق واتخذ قراره .

ومضى إلى فندق « بريستول » في موعده ، فاصطحبه الرجلان في سيارة ضخمة تليق بمكانته إلى جهة نائية من ضواحي « وارسو » العاصمة ، حيث حُددت له تفاصيل مهمته ، و وقع على اتفاقية توضح العلاقة بينه وبين جهاز المخابرات البولنديٍّ وما يقدمه من أعمال ، وما يتقاضاه من أجر ؛ لكي تكون سيفاً مصلتاً على رقبته . وبهذا التوقيع أصبح من بين أفراد شبكة التجسس البولندية في ألمانيا الغربية ، وأصبح معروفاً فيها بالاسم الحركي « برونو » .

واحتفى به الرجلان ، فتناولوا عشاءً فاخراً في أحد المطاعم الكبيرة ، وشربوا الفودكا البولندية ، نخب الصداقة والتعاون بينهم .

عاد بيتر شميدت إلى ألمانيا وهو موزع النفس ، مشتت الخاطر ، مطبق الفم . طفق يقلب في نفسه صفحات كتاب أيامهً الماضية :

لقد ولد ونشأ في ألمانيا الغربية ، وهو يبلغ الآن من العمر خمساً وأربعين سنة ، وكان منذ صغره يحلم بأن يكون شيئاً مهما في الحياةٍ، فأمنياته ومطامحه لم تكن محصورة . تزوج بفتاة سليلة أسرة بالغة الثراء ، طيبة القلب ، تثق فيه ثقة مطلقة ، وتحبه كما يحبها حبا جما . أعانته بمالها الواسع فكوّن شركة للمعدات الإلكترونية يعمل مديراً لها ، وأصبح من رجال الصناعة المعدودين ، وقطن مع زوجته في بيت أنيق في أحد الأحياء الراقية ببرلين الغربية ، وأنجب أطفالاً ثلاثة . وتربطه علاقات طيبة وثيقة مع رجال الأعمال ومع الضباط الأمريكيين ، ومع كبار السياسيين والقادة الألمانيين ، وكثيراً ما يشترك معهم في رحلات للصيد في « باڤاريا » .

ومضى شميدت يحلل شخصيته ، ويستبطن ذاته ، ويتعرف نقاط قوته ، ونقاط ضعفه ، فرأى أنه يتميز بلباقة الحديث ، وحلو الدعابة ، ولذع النكتة ، ويتمتع بسعة الثقافة ، وغزارة الاطلاع ، والذوق الفنّي الرفيع ، وشدة المراس ، وقوة الشكيمة ، والتعصب للرأي ، فمتى كوّن رأياً في موضوع أو مشروع أو شخص فاليأس كل اليأس أن يستطيع أحد تحويله عن رأيه ، أو تغيير فكرته . لكن نقطة الضعف البارزة فيه هي أخلاقياته . لقد كان شديد الولع بالنساء ، شديد التهالك عليهن ، لا يستطيع مقاومتهن ، فقد كانت غريزته أقوى من إرادته ، وكان يسعى إلى مصادقة الفتيات المراهقات وكان نادراً ما يقضي وقته وحيداً إذا اقتضت بعض أعماله أن يكون بعيدا عن بيته وزوجته .

ولم تكن زوجته الواثقة فيه تعلم عن ذلك شيئاً ، وكان كل ما

يخشاه شميدت أن تعرف زوجتة عن ذلك شيئًا ؛ فمغزى معرفتها أن يخسر بيته وأطفاله ومعاونتها له .

و ذات مساء شاءت له الأقدار أن يذهب إلى الميناء الألمانيّ « هامبورج » ؛ لينجز بعض شئونه التجارية ، وهناك التقى بصديق فرنسيٍّ عرفه بأحد أعضاء البعثة التجارية البولندية ، الذي كان يشتري بضائع من بينها معدات إلكترونية . وسرعان ما تطورت بينهما العلاقة ، واشتركا في أعمال كثيرة . ولم يمض طويل وقت حتى اكتشف الرجل البولنديُّ بعينه الفاحصة المدربة – فقد كان ضابط مخابرات– اكتشف نقطة الضعف في صاحبه شميدت ، فاتفق مع رؤسائه على استغلال هذه النقطة ، وأمرها لا يحتاج إلى كثير عناء ، ومن ثم أخذت المخابرات البولندية تنسج خيوط لعبتها حول شميدت وتعمل على إحكام قبضتها عليه ، و وضعت خطتها .

وذات مساء غادر القطار السريع المعروف بإكسبريس الشرق محطة « وارسو » الرئيسية ، يشق طريقه إلى باريس . وفي إحدى مقصوراته كانت تجلس عميلة المخابرات البولندية كريستينا وهي نوع من العملاء يطلق عليه في اصطلاح المخابرات « الحاضنات » يبقين منتظرات مسافة زمنية ، قد تمتد شهوراً أو سنوات بلا عمل في انتظار اللحظة المواتية ، فإذا ما سنحت قمن بعملهن خير قيام .

وفي محطة « ميونيخ » الألمانية توقف القطار ، وهبطت كريستينا حيث تلقفها أحد عملاء المخابرات البولندية ، وغابا وسط الزحام ، حيث ذهبت لتقيم في أحد فنادق الدرجة الأولى ، في انتظار أن تقوم بدورها ، خليلة لشميدت . وكانت لديها تعليمات مشددة أن

تتصرف معه تصرف سيدة محترمة ، لا تقبل منه هدايا ، بل تتملقه وتشعره أنه غزا قلبها ، وحقق انتصاراً باهراً بالسيطرة عليها .

وكان صاحبنا هناك ، حيث توقف ليمضي ليلة ، فارتاد إحدى دور الخيالة ، ولكنه ما إن همَّ بمغادرتها حتى كان الجو قد تغيَّر ، فالسماء قد تلبدت بالغيوم والمطر أخذ ينهمر غزيراً ، فتوقف تحت إحدى المظلات مع كثير من الرواد ، حتى شاهد سيارة أجرة تهم بعبور الطريق ، فأسرع نحوها ، و وثب في داخلها ، وطلب إلى السائق أن يواصل المسير .

« إلى أين ، يا سيدي ؟ »

« سوف أرشدك . »

وأخذ شميدت يشير ذات اليمين وذات الشمال حتى بلغ مكاناً هادئاً في المدينة ، وقد أخذ المطر ينحسر قليلاً ، ولمح ضوءاً في أحد المطاعم ، فأشار إلى السائق أن يتوقف : « هذا هو المكان الذي أقصده . »

ودلف شميدت إلى المطعم ، وبعد أن خلع معطفه جلس إلى إحدى الموائد يتناول طعام العشاء ، حتى إذا فرغ منه سعى إلى البار يحتسي بعض المشروبات ، وجال ببصره يتسكع بين الموجودين ، ويتطلع إلى النساء خاصة في أثناء دخول الرواد وخروجهم بعيون زائغة .

وفجأة أطلت من الباب المؤدي إلى الطريق العام كريستينا ، وكان شميدت يهم برفع قدحه إلى شفتيه ، فجمدت حركته ، لا هو يهبط

بقدحه إلى المنضدة ، ولا هو بمستطيع أن يواصل رفعه إلى شفتيه . لقد كانت الفتنة مجسدة ، وكانت الغواية في أبهى زينتها ، ترتدي ثوب سهرة طويلاً ، يحدد ثنايا جسمها الرشيق ، ويشهد بحسن ذوق من انتقاه ، وتضوّع شذا عطرها فملأ جو المطعم . وشقت طريقها في دلال بين الموائد ، وشخصت إليها الأبصار تتبعها في حركتها بإعجاب وانبهار .

عيون تود أن تلتهم هذا الجمال الأخاذ ، الذي تجمعت فيه كل محاسن النساء في قارات الأرض ، وائتلفت ائتلافًا بديعًا ، فكانت لوحة فنية صاغتها يد فنان قدير لا نراه .

تعمدت كريستينا أن تجلس إلى البار قريباً من شميدت وأخرسته جلستها ثواني معدودات ، ثم رقص قلبه بين جنبيه فرحًا ، و هو يهتف : « يا للصدفة السعيدة ! »

طلبت كريستينا قدحاً من شراب « المارتيني » ، وهيأ شميدت فرصة تتيح له أن يتحدث إليها ، فأخرج صندوق سجائره وأشعل لنفسه واحدة ، ثم قدمه إليها لتأخذ واحدة ، فقالت إنها تحاول الإقلاع عن التدخين ، ولكنها تقبلها منه ، وحينئذ اقترب منها ، وأشعلها لها ، وذكر اسمه ، وسألها هامساً : «كيف أخاطبك ؟ سيدة أم آنسة ؟ »

ابتسمت في وجهه ، فأحس كأن قلبه يقفز من بين ضلوعه ، وقالت بدلال يسحق الصخر : « أنا ، الآنسة كريستينا . »

وفي رقة بالغة قال : « آنسة كريستينا ، يسعدني إذا لم يكن لديك

مانع أن أقدم لك كأساً من الشراب على سبيل المجاملة ؛ لكي أشرف بمعرفتك . »

وفي رقة ودلال قالت : « هذا لطف منك . »

وطلب شميدت قدحين من الشراب ، وبعض الثلج والماء ، ثم التفت إليها مبتسماً وقال : « حقا . إنها ليلة ممطرة . »

تضاحكت وهي تقول : « نعم ، وهي ملائمة للشرب . »

ضحك شميدت ضحكته التي تبدأ بابتسامة عريضة ، وتنتهي بقهقهة عالية ، وقال وهو ينظر إليها نظرة ذات مغزى : « ولكن لا تَنسَيْ أن أمطار الشتاء هي التي تأتي بأزهار الربيع . »

ابتسمت في حياء ودلال وقالت : « يا لك من شقي ! »

واتخذ شميدت ذلك سبيلاً يمهد الحديث معها ، فقال وهو يحاول أن يبدو خفيف الدم : « كم سنك ؟ »

أضاء وجهها بابتسامة مرحبة مشجعة وقالت : « لم أتجاوز الخامسة والعشرين . »

قال ملاطفاً : « محظوظة . حياتك كلها ما زالت أمامك . أما أنا فالجزء الأكبر منها أضحى ورائي ؛ أ ليس كذلك ؟ »

ضحكتّ ملء فمها ، وقالت : « هو كذلك . »

وعاد يقول وهو ينظر إليها في حنان كبير : « هل تسمحين لي أن أسألك سؤالا مباشراً ؟ »

« إنني أسمعك . »

ابتسم ابتسامة مهذبة ودوداً ، وقال : « أنا لا أذكر أنني رأيتك هنا من قبل . »

فأومأت برأسها موافقة ، وقالت وسحب الدخان تنطلق من فمها ، وتتكاثف في الجو : « نعم ، أنا بولندية ، جئت في زيارة قصيرة . »

« إن القوم هنا – في ميونيخ – يمتازون بشدة اهتمامهم بإكرام الضيف ، والاحتفاء به ، وستلمسين ذلك بنفسك . »

وسرعان ما تشعب الحديث بينهما وتنوع وامتد ، حتى عزفت الموسيقى ، وتصاعد صوتها بهدوء ، وكانت كريستينا تواجه شميدت بعينين واسعتين متألقتين ، ينطلق منهما ذكاء حاد ، وهو ينظر إليها نظرات نهمة ظامئة ، فأفرغ كأسه في جوفه ، ثم اقترب منها وهمس في عذوبة : « هل عندك مانع ؟ »

« فيم ؟ »

« أن تسعديني بالرقص معك . »

لم تجب ، إنما هزت رأسها هزة خفيفة ، وعلى حلبة الرقص الصغيرة ، في أثناء رقصات « التانجو » الهادئة الحالمة ، في ظلال الأضواء الحمراء الخافتة ، التصق بها التصاق العاشق المتيم الولهان. ثم عادا إلى مكانهما ، وكان الليل قد اقترب من منتصفه ، فألقت نظرة على الساعة في معصمها ، وسألته في ذكاء : « في أية ساعة تنام ؟ »

ضحك شميدت وردَّ في ذكاء أكثر : « قرب مطلع الفجر . »

ضحكت ضحكة مجلجلة ، وقالت : « أما أنا فأظن أن الوقت قد حان للرحيل . »

ومد يده مصافحاً ، وظل ممسكًا بأطراف أصابعها ، وهو يقول : « لقد أمضينا وقتاً ممتعًا ، كما استمتعت بحديثك معي . »

قالت بإنجليزيتها الأنيقة : « أشعر أنني استرحت إليك . حديثك راقني ، ولقد كنت معي كريماً . »

وشد على أصابعها ، وضغط على يدها ، وهز رأسه مبتسماً ، وقال : « في معظم الأحيان أتناول طعامي في هذا المكان ، ويسعدني أن أراك . »

وأجابت شاكرة : « هذا مما يسعدني أيضاً ، وسأحاول أن ألتقيك في هذا المطعم . »

وهذا ما كانت تسعى إليه ، وتقصده من هذا اللقاء الذي حدث وكأنما هو تلاق لا تعمد فيه ، ولا قصد إليه .

ومنذ هذه الليلة تبدلت حياة شميدت تبدلاً كبيراً ، فإذا هو ضعيف أشد ما يكون الضعف أمام إغراء كريستينا وغوايتها ، وإذا هي تلعب لعبتها المرسومة بإتقان . تداعب أوتار قلبه ، وتعزف عليها ألحان الحب والشوق والهيام ، وتثير بين جوانحه عاطفة لاعجة عميقة . وتتطور الأمور فإذا هما لا يكادان يفترقان . يلتقيان في فنادق ريفية ، أو في شقة منعزلة استأجرها لها شميدت في « دسلدروف » .

لقد وقعت الذبابة في خيط العنكب ، وغدت في حصار خيوطه غير المرئية أسيرة لا تحاول خلاصاً ، ولا ترجو فكاكاً .

وكما شهدت مدينة « دسلدروف » – باريس الألمانية – أحفل أيامه باللذة والمتاع ، كذلك شهدت أشد أيامه لوعة وأسى ؛ فقد فاجأته كريستينا ذات مساء بينما هما يتعاطيان كئوس الحب ، ويتطارحان أشواق الغرام في شقته ، تلك الصغيرة الأنيقة – فاجأته بأنها لا بد لها من السفر إلى بولندا ؛ فقد طال غيابها عن أسرتها ، ولكنها لن تنسي تلك الأيام الحلوة التي قضتها معه ، وأنها تنتظره ليستعيدا تلك الأيام ، ولن تفقد الأمل أبداً في هذا اللقاء .

ورأى شميدت الدموع تترقرق في عينيها ، وتوشك أن تفيض فأعلن إليها – في عزم وتصميم – أنه سيسعى إليها في أي مكان ، ولن يطول بينهما أمد الفراق ، وتعانقا ، وراحا في قبلة طويلة .

وذرف الرجل الكهل دموعاً غزيرة على فراقها ، وحينما قال لها: « وداعاً ! »

قالت : « لا تقل وداعاً ، ولكن قل إلى اللقاء ؛ فكلمة الوداع كلمة حزينة لا يطيق سمعي وقْعها . »

وقامت تتهادى في دلال ، وكعبُ حذائها يعزف على الأرض اللحن النسائي المميِّز . ثم أخذ اللحن يخفت رويداً رويداً حتى اختفى . ومع الخيوط الأولى من الفجر كانت طائرتها تحلق على ارتفاع شاهق في الطريق إلى « وارسو » .

و لم يطق الرجل الكهل صبراً . وسرعان ما استقل الطائرة من

« فرانكفورت » إلى « وارسو » لإنهاء بعض أعماله – كما قال – وكانت كريستينا في استقباله بالأحضان والقبلات ، وكان أحلى لقاء بين عاشقين . وكانت قد أعدت له برنامجاً حافلاً : صحبته إلى المزارات السياحية ، وترددا على بعض المسارح ، وانتشيا بمشاهدة الفنون الشعبية البولندية ، وأعطته الكثير .

ثم كانت رغبتها في قضاء عطلة نهاية الأسبوع في مصيف « زاكوبان » ، وكانت الزيارة المشئومة .

عاد شميدت إلى « بون » من رحلته منهك القوى ، مكدود الخاطر ، يجثم على صدره هم يقيمه ويقعده ، يرفرف قلبه بين جنبيه كالذبيح ، لا شوقاً وهياماً ولكن خوفاً وعذاباً ، تنزُّ جراحه فيلعقها في صمت . لم يستطع اللقاء الودود الذي لقيته به أسرته أن يهدئ من روعه ، ولا أن يمنحه الأمان في سربه .

بذل قُصاراه في أن يبدو مرحاً كعادته ، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. كان يبدو واجماً ساهماً عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، لا يكاد يشارك في حديث ، ولا يخوض في نقاش أو جدال . ولاحظت زوجته ما طرأ عليه ، وحاولت جهدها أن تعرف السبب ، وألحت عليه في أن يفضي إليها بما أصابه لعلها تستطيع أن تعاونه في الخروج مما ألم به ، ولكنها لم تجد عنده جواباً .

وظل منطوياً على نفسه ، يطوي صدره على سرِّه ، يخشى افتضاحه إن اقترب أحد من قلبه فاستمع إلى دقاته ، أو صافح أحداً فلمس يده ، وأحس نبض الدم في عروقه . خُيل إليه أن كل جارحة

فيه تنطق بما يعانيه ، وتهم أن تكشف سره الذي يُخفيه .

واستبد به الأرق ، ولزمه السهد ، فقد كان يخشى النوم حتى لا تأتيه الأحلام بما يضنيه ، ويخشى اليقظة لما يتفجر في رأسه من أفكار وخواطر . بات يشعر بالخزي والعار ، ويرى شارة الخطر كلما دق جرس الهاتف ، أو سمع طرقًا على الباب . وتعاوَرَتْه الهواجس ، وتناوبته الوساوس ، وفقد القدرة على التركيز في أي شيء . فالخزي والعار يأخذان عليه كل طريق ، ويسدان عليه كل سبيل ، ويتراءيان في كل ما تقع عليه عيناه ، أو تلتقطه أذناه .

كيف سقط في هذه الهوة ؟ كيف أورده ضعفه الخلقي موارد التهلكة ؟ كيف يواجه الاتهام المشين بخيانة وطنه ؟ كيف يواجه زوجه وأبناءه وقد افتقدوا فيه القدوة والأسوة ؟ كيف يواجه أصدقاءه ومعارفه ؟

لقد أظلمت الدنيا في عينيه ، وأضحت حياته كابوسًا دائمًا ، وطَنَّ صوت في أذنه يصرخ من أعماقه : « ليتني أموت . » أصبح الموت أمنيته وملاذه ومخلصه مما هو فيه .

وعندها توقف عقله ، وانهارت إرادته ، وبدا طيفًا شاردًا مذهولاً لا يروقه أن يرى أحدًا ، ولا يتكلم مع أحد . تسيطر عليه وتضغط على أعصابه أمنية الموت ، وتدعوه إليها فتسرف في الدعاء ، وتلح عليه فتمعن في الإلحاح ، فباتت مجسدة أمام ناظريه ، لا يبصر غيرها ، ولا يخطر على ذهنه سواها .

وقبل أن يقدم على تنفيذ شيء من بنود الخيانة التي وقَّع في

بولندا صكها قرر أمراً . أغلق باب غرفة مكتبه ، و وقف يتطلع إلى السماء ، كأنما يلتمس منها عفواً وتأييداً ، ثم هتف في قنوط وهو يتحسس رقبته :

« رباه ! ماذا أنتظر ؟ فليكن الأمر بيدي لا بيد عمرو . »

ودسَّ يده في درج مكتبه ، وأخرجها قابضة على مسدس قصير عيار ٣٨ . وبسرعة وضع فوهة المسدس ملاصقة لرأسه ، وضغط على الزناد ، فانطلقت رصاصة واحدة ، اخترقت رأسه ، تاركة ثقباً يدل عليها ؛ ثم صرخ صرخة واحدة ، وقُضي الأمر .

تلمس الطبيب الذي استُدعي على عجل لإسعافه نبضه ، وتحسس قلبه ، رفع جفنيه ، ولمس عينيه ، ثم أعلن :

« لقد أصيب إصابة خطيرة . »

وصمت لحظة ، ثم أردف : « الواقع أنه قد مات . »

لقد أنهى موتُه قصة تعاون تجسسي قبل أن تبدأ ، وأسدلت بموته الأستار على مسرحية خيانة لم تكتمل فصولها ، ولن تكتمل . وأخلف موتُه ظنون جهاز المخابرات البولنديّ ، وأفسد تدبيره .

قضى شميدت نحبه ، وهو في نظر أصدقائه ومعارفه الرجل الناجح في عمله ، المثالي في أسرته ، وإن كانوا يضيقون بانتحاره ، ولا يدركون سرَّه . أما زوجته فقد جَثَتْ إلى جواره ، تندبه وتبكيه ، وتربت بيدها فوق جبينه .

الحقيقة التائهة

قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وقبل أن تفجر أمريكا القنبلة الذرية التجريبية في صحراء « ألاموجوردو » « بنيو مكسيسكو » ، وقبل أن تسقط قاذفة أمريكية القنبلة الذرية الأولى على مدينة « هيروشيما » اليابانية في الساعة الثامنة والربع من صباح اليوم السادس من شهر أغسطس عام ١٩٤٥ ، ثم القنبلة الثانية بعدها بثلاثة أيام على مدينة « نجازاكي » وما أعقب ذلك من استسلام اليابان دون قيد ولا شرط في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس ؛ قبل ذلك كله حدث لقاء بين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية « ترومان » والزعيم السوفييتي « ستالين » في مدينة « بوتسدام » الألمانية ، حيث كان يُعقد مؤتمر رؤساء دول الحلفاء في قصر« شلوس سيسيليا نهوف » . وكان جوٌ الود والصداقة يسود هذا المؤتمر ، مما حدا ترومان أن يصارح ستالين بأن لدى الأمريكيين – في الوقت الحاضر – قنبلة ، لها قوة تدميرية هائلة ، وأن أمريكا سوف تُلقي هذه القنبلة على اليابان ؛ لتُنهي الحرب بعد أن استسلمت ألمانيا وإيطاليا .ثم ذكر مدفوعاً بروح الإخلاص – إخلاص الحليف لحليفه – بعض التفاصيل التي تتعلق بهذا السِّر الرهيب ، وهو القنبلة الذرية .

وترقب ترومان بأعصاب متوترة رد الفعل على وجه حليفه في الحرب ، ولكن ثعلب الكرملين العجوز اكتفى بالإصغاء إليه في صمت ، ثم هز رأسه أخيرًا ، ونطق : « يسعدني سماع ذلك . »

لم يَبْدُ على وجه الرجل أن هذا الخبر قد أثاره ، ولم تبد عليه أية رغبة لمعرفة شيء عن هذا السلاح الرهيب ، فلم يلق على صاحبه سؤالاً يتعلق به ، ولم يطلب معلومة غير ما أعلنه ترومان .

وتحيَّر ترومان ومساعدوه في تفسير هذا الموقف المتحفظ الذي وقفه الزعيم السوفييتي ستالين ؛ فقد يكون لديه من الأسرار العسكرية ما يخشى إزاحة الستار عنه لو استفاض الحديث وتشعب .

ولكن الحقيقة التي وضحت بعد ذلك بحين ، والتي كانت خافية غائبة عن ذهن الرئيس الأمريكيّ ترومان ومساعديه — أن ستالين لم يكن في حاجة إلى معرفة شيء عن هذه القنبلة ؛ لسبب واحد بسيط هو أنه كان يعرف عنها ما يريد . ولعل ما كان يعرفه جهاز مخابراته الرهيب أكثر مما كان يعرفه ترومان ومستشاروه . والفضل في ذلك يرجع إلى رجال ثلاثة .. ثلاثة من العلماء المبرزين في مجال الذرة ، و المسهمين فيه إسهاماً بيناً ، اعتقدوا — دون أن يعرف كل منهم معتقد صاحبه — أن سلام البشرية ، ورخاء العالم واطمئنانه منوط بتوقف الحرب ، وعدم اندلاعها مرة أخرى ، وأن هذا السلاح الرهيب لو استأثرت به دولة واحدة لتسلطت على العالم كله، وعاثت في الأرض فساداً ؛ فمن الخير للبشرية أن تعرف أسراره الدولُ التي تقدر على إنتاجه ؛ حتى يكون هناك توازن بين القوى يحول دون اندلاع شرارة الحرب مرة

أخرى . ومن ثم قرر كل منهم – على انفراد – أن يبوح بما لديه وما يحصل عليه من أسرار لمن يقدر على تحمل أعبائها ، والنهوض بتكاليفها .

وظل هؤلاء العلماء الثلاثة يقومون بواجبهم العلمي خير قيام ، ويسهمون في بحوث الذرة بكل ما في وسعهم من جهد ، وفي الوقت ذاته يبوحون بأسرار هذه البحوث للاتحاد السوفييتي بنفس راضية ، وضمير مستريح . لا تحوم حولهم شبهة ، ولا تعلق بهم ريبة ، وإنما يلقون كل تقدير واحترام ، حتى كان ارتداد الجاسوس السوفييتي .. « إيجور جوزنكو » و مغادرته مبنى السفارة الروسية في « أوتاوا » عاصمة « كندا » يحمل من الوثائق والمستندات ما أربك خُطط جهاز المخابرات السوفييتية ، وما كشفت التحقيقات التي أجريت معه عن تسرب المعلومات المتعلقة بالقنبلة الذرية إلى الاتحاد السوفييتي عن طريق بعض العلماء البريطانيين .

وقامت قائمة أجهزة المخابرات الغربية ولم تقعد .

فمَنْ هؤلاء العلماء الثلاثة الذين أباحوا حمى هذه الأسرار للاتحاد السوفييتي فاقتحمها ، ويسروا له أبحاثها ، وعجلوا له بامتلاكها وإنتاجها ؟

يحسن بنا أن نتعرف عليهم قبل أن تستغرقنا تفاصيل حكاياتهم : أما أولهم فهو الدكتور « ألان ناي ماي » العالم الإنجليزي الأصل والمولد والجنسية . وقد عُرف بالجد والاجتهاد منذ صغره . حصل على درجة الدكتوراة في العلوم الطبيعية وسنُّه لم

تتجاوز الخامسة والعشرين ، ودُعي في شهر يناير من عام ١٩٤٣ للعمل مع الأمريكيين في « مونتريال » فكان أقدم عضو في الفريق البريطاني العامل في مجال البحوث الذرية مع الأمريكيين . وكان الدكتور ماي صغير الجسم ، دقيق التكوين ، يغلب عليه الخجل ، عزَبًا بارد الطبع ، قليل الكلام ، نادر الضحك ، لا هواية له ، وإن كان يلعب الشّطرنج أحيانًا ، والورق كثيرًا ، ولكنه كان إذا عزم على أمر قلما يعدل عنه .

وأما الثاني فهو الدكتور « فوخس » ألماني الأصل والمولد ، التجأ إلى إنجلترا هربًا من اضطهاد النازي له عام ١٩٣٣ ، وحصل على درجة الدكتوراة في العلوم الطبيعية ، وعمره إذ ذاك ستة وعشرون عامًا من جامعة « بريستول » ، وطلب اعتباره مواطنًا إنجليزيًّا ، وأجيب إلى رغبته ؛ لمكانته العلمية ؛ وليتسنى بقاؤه عاملاً في حقل البحث الذريِّ . شارك في عمل القنبلة الذرية ، وظل عزَبًا ، متفرغًا لعمله ودراسته لا يخالط الناس ولا يشجعهم على مخالطته . وكان يعنيه دائمًا أن تتحدد الأمور أمامه في وضوح وجلاء ، فهي إما سوداء وإما بيضاء ، ولاسبيل إلى المزج بين اللونين ؛ فذلك هو الخطأ البيِّن. كما تعنيه دراساته التي تركزت في مجالين : الطبيعة والشيوعية .

وأما الثالث فهو الدكتور « بونتيكورفو » إيطاليٌّ المولد ، من أبوين يهوديين ، وبعد أن أتم تعليمه وحصل على درجة الدكتوراة من جامعة روما في العلوم الطبيعية ، سافر إلى باريس و عمل في مؤسسة « الراديوم » ، وتزوج من « ماريان فاندرا » السويدية الجنسية .

ثم حصل على الجنسية الإنجليزية في عام ١٩٤٨ بعد أن كان قد هرب إلى « نيويورك » في عام ١٩٤١ – وَدَعَتْه الحكومة البريطانية لينضم إلى فريق البحوث الذرية « الإنجليزيّ – الأمريكيّ » الذي يعمل في « مونتريال » بكندا . وكان محبوباً من عارفيه والعاملين معه يخلق حوله جوًّا من المرح اللطيف . لا يجيد التحدث في أمور السياسة ومشكلاتها ، لكنه ذو براعة فائقة في عمله ، كما برع في قيادة السيارات ، وأحب لعبة التنس .

هؤلاء العلماء الثلاثة الذين أدت إلى الكشف عنهم التحقيقات التي جرت مع الجاسوس السوفييتي المرتد « إيجور جوزنكو » ، تتقارب أعمارهم : فقد ولد الأول والثاني في عام واحد هو ١٩١١ ، بينما ولد الثالث بعدهما بعامين ، ويتفق اعتقادهم في أن سلام العالم ورخاءه في عدم استحواذ دولة واحدة على أسرار القنبلة الذرية ، وإن كانت تتفاوت درجات هذا الاعتقاد فيما بينهم .

ألقي القبض على أولهم وهو الدكتور ماي في الرابع من شهر مارس عام ١٩٤٦ . ولما بلغت أنباء القبض عليه محطة البحوث الذرية في « لوس ألاموس » تعالت صيحات الدهشة والاستغراب من عارفيه؛ فلم يكن أحد منهم يتوقع أن يكون هذا العالم الطيب الوديع جاسوساً خطيراً ، يفشي أسراراً خطيرة لأعداء بلاده ، ولم يكن أحد منهم يتصور أن ما يتسم به الرجل من خجل يخفي وراءه هذا المكر والخبث والدهاء .

وقف الدكتور ماي أمام محكمة « أولد بيلي » في لندن في أول مايو ١٩٤٦ ، يعترف اعترافاً تاما بأنه قدم معلومات ذرية إلى

السوفييت . ولكنه ينكر أن يكون بذلك قد ارتكب ذنباً ، أو اقترف جريمة ، وحاول أن يبرر فَعلته دون أن يشعر بذنب ، أو يحس بلوم أو تأنيب ضمير . والذين شاهدوه في أثناء المحاكمة قد راعتهم هذه السخرية المريرة التي كانت تنطلق من بين شفتيه ؛ تعليقاً على ما طُرح عليه من أسئلة .

ولقد كانت ملاحظات « جيتس أوليفر » رئيس القضاة جديرة بالتقدير ، فقد جاء فيها :

« يا دكتور ألان ناي ماي ، لقد استمعت بشيء غير قليل من المفاجأة إلى الأمور التي ذكرها محاميك ، والتي كان طبيعياً وضروريًا أن يبسطها أمامي . لقد حاول جاهداً أن يصورك رجلاً شريفاً ، أدّى ما اقتنع بأنه صواب . ولستُ من هذا الرأي في شيء ، فإن ما فعلته أمرخطير ، فلم تكن في سلوكك هذا شريفاً ، بل كنت غير ذلك .

«كيف يصح لرجل في مثل علمك ومركزك أن يأذن للرذيلة باقتحام نفسه ، وتخريب ذمته ، ودفعه لارتكاب أمر تعهد كتابة ألا يأتيه مهما كان الثمن ؟ لقد حملتك الدولة أمانتها ، ونقدتك أجرك سنوات ؛ لكي تصون هذه الأمانة ، ولكنك خنت الأمانة ، وسلّمت عينات من اليورانيوم إلى السوفييت ، ومعلومات سرية لا تقدر بثمن ؛ مما جعلهم يأملون في تحقيق ما كانوا يتصورونه بعيداً .

« إنني لا أخوض في تفصيلات ما فعلت ؛ لأن ذلك يمس الأمن القومي . ولكن لو افترضنا أنك لم تقترف جريمتك طمعاً في المال ،

فإن جريمتك هذه لا تبعد عن جريمة الخيانة العظمى إلا بمسافة واهية ضعيفة ، وترتبط بها بخيوط قوية شديدة . ولا أملك إلا أن أحكم عليك بالعقاب القانوني – وهو ليس صارماً في رأيي – ولكن هذا ما أملكه . لقد حكمت عليك بما يوجبه القانون وهو سجنك مدة عشر سنوات . »

لم يهتز الدكتور ماي ، ولم يختلج له جفن ، ولم ينطق بحرف ، وإنما تقبل الحكم هادئًا ، وأودع سجن « ويكفيلد » ليقضي عقوبته ، ثم استرد حريته في الثلاثين من ديسمبر عام ١٩٥٣ ، وقد أنهى سبع سنوات وثمانية شهور من العقوبة .

ولم يتوقف الروس عن أبحاثهم الذرية بعد القبض على الدكتور ماي ، وتدفقت أنباء بأن هناك من يمدُّ الروس بمعلومات ذرية ، ولكنها كانت ظنونًا لا ترقى إلى اليقين . ثمَّ حلَّ صيف عام ١٩٤٩ وإذا الروس يفجرون قنبلتهم الذرية ، وهنا ينشط الأمريكيون في تحرياتهم نشاطًا قويًا ؛ فقد كانوا على يقين من أن الروس لا يتأتّى لهم الوصول إلى هذه النتائج بغير معونة خارجية . وبعد جهد جهيد حصروا اشتباههم في ستة أشخاص أحدهم الدكتور كلاوس فوخس ، ثم اجتهدوا في تحرياتهم فانحصرت الشبهة فيه وحده ، ولكنها شبهة تحتاج إلى دليل .

ومن ثم قام « وليام جيمس سكاردون » كبير ضباط الأمن في بريطانيا بمحاولة الحصول على اعتراف الدكتور فوخس بتعاونه مع السوفييت ؛ فسعى إلى لقائه ، وشرح له في أدب أن هناك شكًا في تسرب معلومات ذرية إلى السوفييت ، وأنه يود سماع رأيه في هذا

الموضوع .

نظر الدكتور فوخس إلى عيني سكاردون نظرات حادة ، كأنه ينبهه بأنه ليس من حقه أن ينطق أمامه بهذا الكلام ، ثم هز كتفيه ساخرًا ، وتساءل في ثقة وهدوء : « أ هذا سؤال ؟ »

« نعم ، وأريد عنه جوابًا . »

« سؤال جيد ، والحق أنني لا أعرف عنه جوابًا . »

وتحيَّر سكاردون ، ثم قال : « إن الموضوع خطير ، وجوابك هذا فيه غموض شديد . »

وفي برود وهدوء ، وبصوت منخفض ، رد فوخس : « ربما . »

« إنما سألت سؤالًا جادًا ، وأريد عنه إجابة جادة . »

ابتسم فوخس ابتسامة صغيرة هادئة ، وقال : « لا أظن أن ذلك حدث . »

وفي هدوء سأله سكاردون : « أين كنت يوم الثلاثاء الماضي ؟ »

وكان الجواب العجيب الذي ظفر به : « في مكان ما ! »

« أ لم تكن متصلاً بأحد من السوفييت أو أي مندوب لهم وقت أن كنت في نيويورك ؟ أ لم تسلمهم معلومات تتصل بعملك ؟ »

وكان جواب فوخس السريع ، وهو يهز كتفيه استخفافًا بما سمع : « حسنًا ، إن هذا سؤال في غاية الأهمية ، وإنني أعتقد أن أفضل إجابة على هذا السؤال هي الصمت المطلق . » ثم صاح

منفعلًا : « أنت تتهمني ؟ هذه إهانة لا أطيقها ، ولا أقبل بعد هذا العمر كله أن تُوجه لي تهمة الخيانة . »

وفي لهجة مهذبة ، ولكنها حاسمة ، قال سكاردون : « أنا لم أتهمك بشيء ، ولكن سكوتك معناه ... »

وبغيظ مكتوم قال فوخس : « هذا سؤال لا قيمة له ، ومن الخير للإنسان أن يبتلعه . »

وطفق سكاردون يحاور فوخس ويسأله كثيرًا من الأسئلة ، محاولاً استدراجه . ولكن دون جدوى ، فما ظفر منه إلا بكلمات غامضة ملتوية ، وبتهكم لاذع مرير ؛ فأوضح له سكاردون أن هذه الإجابات المتلفعة بالغموض ، والمتشحة بالإبهام ، تلقي ظلالاً من الشك حوله ، وتثير الريبة فيه ، ومن الخير له – إذا كان الاتهام خاطئاً – أن يوضح موقفه . ولكن فوخس أصر على أن استجوابه في هذا الشأن فيه حطٌّ لمكانته ، وتقليل لشأنه .

وتكررت محاولات سكاردون ، ولكن لم تكن واحدة منها خيراً من سابقتها . حتى جاء يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر يناير ١٩٥٠ ، فاتصل فوخس من تلقاء نفسه بصاحبه سكاردون ، وأنبأه أنه يود التحدث إليه في أمور هامة . وما إن التقيا حتى راح فوخس يدلي باعترافات لا يكاد العقل أن يتصورها ، وإذا تصورها فإنه لا يستطيع تصديقها .

لم ينتظر سؤالًا ، بل انطلق يتحدث في إسهاب ، وإن كان قد ابتدأ بطيئًا متردداً ، ثم زال عنه البطء ، وتحرر من التردد ، فأخذ

يتكلم بانطلاق ،كأنما يزيح كابوساً جاثماً على صدره منذ أمد بعيد. اعترف بأنه منذ منتصف عام ١٩٤٢ وهو يقدم للروس معلومات ذرية لا تقدر بمال ، وبأنهم لم يسعوا إليه ، وإنما سعى هو إليهم ، واتصل بعملائهم . ولكنهم بعد ذلك طالبوه بمزيد من التفصيلات . وقال : « إن الروس كانوا نهمين لهذه المعلومات ، لا يكاد ظمؤهم ينطفئ . »

وكتب فوخس بخط يده تقريراً كاملاً عن كل مادار بينه وبين العملاء الروس ، خلال المقابلات الثلاثين التي تمت بينه وبينهم ، وبيّن ما سلمه لهم من وثائق ومعلومات في كل لقاء . وقد ذكرها مرتبة ترتيباً زمنيًّا ، محدداً التاريخ والمكان .كما أقر بأنه في بادئ الأمر كان يبوح لهم بالأسرار والمعلومات التي يباشرها بنفسه ، ثم تجاوزها إلى كل ما يعرفه ويحصل عليه ، ثم تخطى ذلك إلى الإجابة عن أسئلة كانوا يوجهونها إليه . ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى كانوا على دراية كاملة بكل مشروعات الولايات المتحدة الأمريكية في ميدان الذرة .

وأوضح أن الوسطاء الذين كانوا يتصلون به ، ويتسلمون منه الوثائق كان بعضهم من الروس ، والآخرون من جنسيات متعددة ، وأن لقاءاته بهم كانت تتم في لحظات قليلة ، وأنه كثيراً ما أعطى المعلومات مطويّة داخل ورق صحف قديمة إلى « هاري جولد » كبير الجواسيس السوفييت في « نيويورك » والذي كان يحملها بدوره إلى « بوكوفليف » نائب القنصل السوفييتي في « نيويورك » .

تكلم الدكتور فوخس طويلاً ، وكانت عنده إجابة عن كل سؤال

ورد على كل استفسار . لقد كان ينفض عن صدره همًّا يخنقه ، ويزيح عن كاهله عبئاً يثقله .

وفي الساعة الثالثة والدقيقة العشرين من بعد ظهر اليوم الثاني من شهر فبراير عام ١٩٥٠ أعتقل الدكتور فوخس ، ثم مثل أمام محكمة أولد بيلي .

وفي اليوم الأول من شهر مارس من العام نفسه ، وهي المحكمة ذاتها التي شهدت قاعتها منذ أربع سنوات محاكمة الدكتور ماي ، جلس رئيس القضاة اللورد جودارد في مكانه تحت سيف العدل ، وساد القاعة صمت رهيب ، قطعه صوت رئيس القضاة :

« دكتور كلاوس فوخس ، إن ما جاء في اعترافاتك من تفصيل يثبت بجلاء أنك دأبت على البوح بأسرار ومعلومات لدولة أجنبية بضع سنوات ، وكان ذلك سبباً في ضياع جهودنا ، وتبديد أموالنا . كما أنك لم تكتف في البوح بما أنتجته من أبحاث ، وإنما خُنت الذين تظاهرت بصداقاتهم فكشفوا لك عما أنتجوه .

« لقد وفرت لك الدولة عيشة هنية راضية في سبيل أن تعمل لها ومن أجلها ، ولكنك قابلت ذلك بالجحود والنكران . »

ونظر رئيس القضاة نظرة صارمة إلى فوخس ، تنم عن التقزز والاستياء ، ثم استطرد يقول :

« لقد وقعت إقراراً بالولاء لهذا الوطن الذي أكرمك ، ولكنك خُنت العهد قبل أن يجف مداده ، وطرحت الميثاق قبل أن تتلو بنوده، وانطلقت تبيع أسراره وأسرار المتعاونين معه . إن هذا انتهاك صارخ

لكل القيم والمبادئ ، بل هو هدم لها وتحطيم . وهذا ما كان ينبغي أن يصدر من شخص مثلك .

« لقد بيَّن محاميك أنك لم تعط الروس الأسرار الحقيقية للقنبلة الذرية ذاتها ، وكل ما في الأمر أنك وفرت على بعض العلماء الأجانب المشتغلين في مجال الطاقة الذرية بعض الوقت . ولكن هذا ليس صحيحاً ؛ فقد خنت الأمانة التي ائتمنك عليها الوطن ، كما خنت أصدقاءك الذين وثقوا فيك . ودون أن نخوض في تفصيلات ما قمت به لأسباب غير مجهولة فإن أي فرد يتاح له الاطلاع على اعترافك يمكنه أن يستنبط الحكم الذي تستحقه . وإن أقصى عقوبة قررها البرلمان لمثل خيانتك هي السجن مدة أربعة عشر عاماً ، وهذا هو ما حكمت به عليك . »

نظر فوخس إلى القاضي نظرة من رضي بالحكم ، ولن يستأنفه ، أو يناقض فيه ، وأودع سجن « ستافورد » ليمضي مدة العقوبة ، كما أسقطت عنه الجنسية البريطانية .

لقد كان القبض على الدكتور ماي مفاجأة ، وكان اعتراف الدكتور فوخس مفاجأة كبيرة .

ولكن المفاجأة الأكبر كانت اختفاء الدكتور بونتيكورفو وعائلته .

لقد دهش المعارف والأصدقاء عندما اعتقل الرجلان ماي وفوخس . لكنهم راحوا يتذكرون أموراً صغيرة كثيرة غريبة كانت تصدر عنهما ، ومن الممكن أن يكونا خائنين . لكن أن يكون هذا الرجل الدكتور بونتيكورفو خائناً ، فهذا أمر فوق الاستحالة ؛ فهو

رجل فوق مستوى الشبهات ، لم يصدر عنه يوماً ما يثير شبهة ، أو يدعو إلى ريبة . فلما تيقنوا من خيانته فغروا أفواههم من الدهشة ، وعقدت المفاجأة ألسنتهم ، وراحوا في صمت حزين .

كان بونتيكورفو لا يزال مطلق السراح ، يمارس نشاطه العلميَّ والتجسس على السواء . لا يتعرض له أحد بسوء ، ولا تحوم حوله الريَب ، لكن من يحرصون عليه شعروا بالخطر المحدق به ؛ فقد يكون مصيره مصير سابقيه في وقت قريب أو بعيد ، فاتخذوا للأمر عدته .

سافر بونتيكوزرفو وعائلته في اليوم الخامس والعشرين من شهر يوليه عام ١٩٥١ إلى روما لقضاء عطلته الصيفية ، و قد ترك منزله في « إينجبرون » كما هو بأثاثه ، وترك فيه ثيابهم الثقيلة . ولم يُعر العاملون في « هارويل » الأمر اهتماماً حين لم يصل إليهم في اليوم السابع من سبتمبر ، وهو اليوم المحدد لافتتاح مؤتمرهم ؛ فقد كان معروفاً عنه عدم الانضباط في المواعيد ، وبخاصة حينما يكون في عطلة . ولكن الأيام تمضي ، وانتظارهم يطول ويمتد ، وهو لا يعود .

وتناثرت أخبار متضاربة عن مصيره هو وزوجته وأطفاله الثلاثة ، وعن المكان الذي قصدوا إليه بعد ما بلغوا العاصمة الإيطالية . ثم عُرف أنهم رحلوا عنها في اليوم الثلاثين من أغسطس عام ١٩٥١ قاصدين العاصمة السويدية ، حيث أقاموا في منزل تملكه السفارة السوفييتية هناك . ثم طاروا في اليوم الثاني من سبتمبر إلى العاصمة الفنلدية « هلسنكي » حيث كان في استقبالهم بالمطار رجل وامرأة . بعد ذلك غابوا عن الأنظار ، ولم يُعرف عنهم شيء على وجه

اليقين . وظل أمرهم غامضاً تتناثر حوله الشائعات ، وتُساق فيه التكهنات ، حتى تبدد جزء من هذا الغموض في اليوم الأول من شهر مارس عام ١٩٥٥ ، عندما نشر الدكتور بونتيكورفو مقالاً في الصحيفة السوفييتية « براڤدا » ، ثم عقد بعد ذلك مؤتمراً صحفيًّا في موسكو ، أعلن فيه أنه طلب من الحكومة السوفييتية أن تمنحه وغائلته حق اللجوء السياسيّ ، وقد أجيب إلى طلبه ، وأنه أصبح مواطناً سوفييتيًّا ، وأنه يعمل في مشروعات ذرية ليست لها صبغة حربية .

لم يستشعر الدكتور ماي ندماً على ما فعل ، ولم يخزه ضميره وخزة واحدة ، بل كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن ما فعله كان لخير البشرية جمعاء ، ويستحق التقدير والثناء . وكان يقول في شماتة وعناد :

« إنني لا ألتمس لما فعلت تبريراً ، ولا أسعى إليه ، فقد تصرفت بوحي ضمير العالم ، الذي يرى في احتكار بعض الدول لأسرار القنبلة الذرية خطراً يهدد أمن البشرية وسلامتها ، ويعيق تطورها ونموها ، ويتيح لهذه الدول أن تفرض سلطانها على غيرها ، فكان ضروريًّا أن تُذاع هذه الأسرار وتنتشر كي نضمن توازناً بين القوى ، يجنب العالَم ويلات الحروب وآثامها .

« إن غايتي شريفة ، ولن يضرني شيئاً أن سلكت إليها سبيلاً غير شريفة ، فالغاية تبرر الوسيلة ، فكل سلوك يحقق للبشرية أمنها ورخاءها هو سلوك أخلاقي ، وإنني أتحمل مسئوليته كاملة أمام الله الذي منحني العقل ، ومنحني القدرة على التمييز به بين الصواب

والخطأ ، وسيحاسبني حساباً عسيراً يتسق مع إدراكي للحقائق .

« إن هذه القنبلة الذرية أمر خطير جدًّا ، سيصيب احتكارها العالم بالتدمير والإهلاك ، وما حديث هيروشيما ونجازاكي عنكم ببعيد . ولن يجنبنا ذلك في المستقبل إلا أن تشيع أسرار هذه القنبلة بين الدول ، فيحول ذلك دون استخدامها مرة أخرى .

« لقد أديت واجبي كما أملاه عليّ ضميري . وإذا كنتم لا تدركون صواب ما فعلت الآن فسوف يأتي اليوم الذي تدركون فيه ذلك حتماً .

« إنني أعرف أن كلامي هذا لا يقنعكم ، ويجب أن تعرفوا أن اتهامكم لي لا يقنعني كذلك . »

أما العالم الألماني الأصل الدكتور فوخس فقد عضّ بنان الندم على فعلته ؛ لأنه كان يظن – كما جاء في كلامه – أن الروس ينشئون عالمًا جديداً ، بريئاً من الصراع والحاجة ، فاندفع – بوحي من عقيدته – يحاول الإسهام في بناء هذا العالم الجديد . ولكنه الآن لا يرى ذلك ، فقد كان لزاماً عليه أن يكون أذكى من ذلك ، وألا تختلط عليه الأمور هذا الاختلاط الشنيع ، فلا يستطيع التمييز بين الخطأ و الصواب . لقد أقدم على فعلته مدفوعاً بأنه يعمل للصالح العام ؛ ولتحقيق أمن البشرية وسلامها ، ولكنه وقد صحا الآن من غفوته وأفاق من غفلته ، يعلن أن ما فعله كان سوءاً جلب عليه العار وجلله بالخزي . وهو يترقب بصبر نافد اليوم الذي تنتهي فيه مدة العقوبة ، ويظفر بعفو المجتمع ، ويتاح له أن يعود إلى الصناعة التي

لا يتقن سواها ، وهي صناعة العلم ، يعود إليها مفتتحاً صفحة جديدة نقية بيضاء من غير سوء .

وأما العالم اليهوديُّ الإيطاليُّ الدكتور بونتيكورفو فقد اختفى خلسة مخلفاً وراءه ضباباً كثيفاً ، وغموضاً محجباً ، ولغزاً محيراً ، لم تكشف حجبه بعد ، ولم تُفكّ طلاسمه ؛ لأن أجهزة المخابرات لا تكشف خباياها ، ولا تعرض سراديبها للنور ؛ فذلك أسلوبها ، والأسلوب موطن قوتها ، ومكمن دهائها .

فاسال

نشأ في بيئة ريفية ، ليست بذات غنى ويسار ، وليست بذات عوز وحرمان ، من هذه البيئات المتوسطة التي تجد ما تنفق في غير تقتير ولا إسراف ، بين أب يظهر العنف ويتكلف الشدة ، ويبطن الرقة والعطف واللين ، وأم يبدو منها الضعف واللين ، وتخفي الحقد والعسف . وكان لهذه البيئة أثرها في حياته ، فنشأ خجولاً منطوياً على نفسه ، مُزْوَرًّا عن الناس ، لا يألفهم ولا يستريح إلى صحبتهم ، يقضي معظم وقته منفرداً منعزلاً ؛ ولذلك لا يتملكنا العجب حين نعرف أنه أوفى على التاسعة والثلاثين من عمره ، ولم يزل عزباً ، بل ولم يتعرف إلى امرأة ؛ فقد كان يجهل جهلاً تامًّا كيف يتقرب إلى فتاة ، بل كان لا يجرؤ على مجرد رفع نظره إلى فتاة .

ما إن أتم « فاسال » ما كان يتاح من تعليم في مثل بيئته حتى انخرط في سلك الوظائف ، فعمل موظفاً صغيراً براتب ضئيل هزيل في أحد المصارف ، ثم حصل على وظيفة في محفوظات إدارة البحرية الملكية البريطانية ، ثم التحق بالسلاح الجوي الملكي البريطاني مصوِّراً فوتوغرافياً ، عاد بعدها إلى محفوظات إدارة البحرية الملكية . وفي منتصف عام ١٩٥٣ نقل إلى السفارة البريطانية في العاصمة السوفييتية « موسكو » ؛ ليعمل في مكتب الملحق البحري

البريطاني، في مركز له خطورته لكثرة ما يمر بين يديه من وثائق ومستندات لها قيمتها البالغة .

وكان وجوده في العاصمة السوفييتية نقطة التحول في حياته ، فقد عاش فيها وحيداً منعزلاً – كما كان دائماً – يسكن شقة صغيرة ، ويقضي حاجاته بنفسه : من طهو لطعامه ، وغسل لثيابه ، وتنظيف لمسكنه ، لا يستعين بأحد ، ولا ينتظر معونة من أحد . ولكن عملاء المركز الرئيسي لمنظمة التجسس السوفييتية رأوا فيه بعيونهم الفاحصة الخبيرة فريسة سهلة الاصطياد . ولم تكن هذه الرؤية مصادفة أو اعتباطاً ، بل عن دراسة واعية لظروفه وأخلاقياته وهواياته وكل ما يتعلق به من قريب أو بعيد . وعثروا على المنفذ الذي ينفذون منه إليه، ولم يكن هذا المنفذ وعراً يحتاج إلى جهد كبير ، وإنما كان سهلاً يسيراً ؛ إذ هو يستند إلى ضعف خُلُقي في « فاسال » ، عمدوا إلى استغلاله فانهار « فاسال » أمامهم ، وكان أداة طيعة في أيديهم ، يحركونه كيفما يشاءون ، لا يعصي لهم أمراً، ولا يرد لهم طلباً ، ولا يصد لهم رغبة .

جنده عملاء المركز الرئيسي لمنظمة التجسس السوفييتية ، ودربوه على القيام بمهمته ، وأخذ يمارس نشاطه السري منذ بداية شهر سبتمبر ١٩٥٥ ، فكان يحصل على الوثائق السرية والمستندات الخطيرة من مكتب الملحق البحري البريطاني ، ويخرج بها من السفارة بطريقة لا تلفت النظر ، ولا تثير الريبة ، فيقوم بتسليمها إلى أحد عملاء المركز ، الذي يلتقط لها صوراً في الحال ، ويردها إلى « فاسال » الذي يعيدها إلى ملفاتها قبل أن يشعر أحد بفقدها أو

اختفائها .

ودامت هذه الحال شهوراً عشرة ، كان « فاسال » يؤدي عمله التجسسي على أكمل وجه – إن صح هذا التعبير – ولكنه يُنقل في مطلع شهر يوليه ١٩٥٦إلى إدارة البحرية البريطانية في لندن ، فتتسع دائرة عمله ، ويصبح في استطاعته الحصول على وثائق من المخابرات البريطانية ، وتصبح المعلومات التي يمكن أن يقدمها للسوفييت متنوعة متعددة ، على درجة بالغة من الخطورة والأهمية . ويمارس نشاطه ثلاث سنوات كاملة ، حتى يُنقل في شهر أكتوبر ١٩٥٩ إلى سكرتارية أركان حرب الأدميرالية البريطانية – قسم الأسطول – الفرع رقم ٢ ، فتصبح فرصته في الحصول على المعلومات أوسع ؛ إذ غدا في حوزته معظم أسرار البحرية البريطانية ، وغدت لديه معلومات تتصل بأجهزة الرادار ، وتجارب قنابل الأعماق ، ونشرات سرية عن تدريبات الحلفاء وتكتيكاتهم ، وغير ذلك من المعلومات العسكرية التي يصعب تقدير كميتها ، ويتعذر تقدير قيمتها . وبانتظام كان « فاسال » يبعث بهذه المعلومات إلى « موسكو » عن طريق عملائها في « لندن » .

حينما عاد « فاسال » من موسكو ، وألقى عصا ترحاله في لندن عمد إلى شقة صغيرة جميلة في ميدان « دولفن » فاستأجرها ، وإلى أثاث فاخر جلبه إليها . وكانت حياة اللهو والترف التي عاشها بعض حياته في موسكو قد استهوته ، وملكت عليه حواسه كلها ، فاتجه إليها في عاصمة الضباب بكل قواه . انغمس في الملذات انغماساً لا يقف عند حد ، وتهالك على الشهوات تهالكاً لا مثيل له ، فكانت

حياته نزوة تعقبها نزوة ، ورغبة تذهب لتحل محلها رغبة أخرى . وأنفق على ملذاته ورغباته ونزواته بإسراف بالغ ؛ مما أثار فضول أولئك الذين يعرفون ماضيه ، وانطلقت ألسنتهم تتحدث عن المسكن الفاخر الذي يعيش فيه ، وعن الحياة المترفة الصاخبة التي يحياها ، وعن الثياب الأنيقة الغالية التي يرتديها ، والتحف الثمينة التي يقتنيها . ولكي يبرر « فاسال » حياته هذه التي يحياها كان يروي لأصدقائه قصصاً ، من صنع خياله ، عن ثرائه الذي هبط عليه من السماء ، وخصته به الأقدار ؛ فقد ورث أملاكاً وأموالاً طائلة عن إحدى قريباته من السيدات المتقدمات في السن .

وغاب عن ذهنه – في غمرة الملذات والشهوات – أنه يعيش في « لندن » التي تمتاز بانتشار الوعي الأمني بين أفرادها ، كما غفل – أيضاً – عن أبسط قواعد لعبة الجاسوسية ، فعاش في مستوى معيشي يفوق كثيراً جدًّا المستوى الذي يتلاءم ودخله المشروع ؛ ولذلك أثار شكوك مَنْ حوله ، وتهامسوا بأن في حياته لغزاً .

ولكن لم يخطر ببال أحد منهم قط ، ولم يدر بخلد أيٍّ منهم لحظة ، أن يكون هذا الرجل الخجول الوديع جاسوساً . فهذا ما لم يكن يتصوره أحد . كما لم يكونوا يتصورون – أو معظمهم – على الرغم من معرفتهم بضعف شخصيته وتعقدها ، أنه يمارس الجنس بشكل غير طبيعي ، و أنه يقوم بدور الأنثى منذ الثانية عشرة من عمره !

وكانت هذه هي الثغرة التي نفذ منها إليه عملاء المركز الرئيسي لمنظمة التجسس السوفييتية ، وفقاً لخطة مدروسة منسقة ، كانت

الأدوار فيها موزعة توزيعاً دقيقاً وكان « ميخايلسكي » عميل المخابرات السوفييتية « كي . جي . بي » ، الذي كان يعمل مساعداً في القسم الإداري بالسفارة البريطانية في موسكو هو الأداة التي تمكنوا من خلالها من تجنيده .

فقد التفوا حوله – في موسكو – يخرجونه من عزلته ، ويدعونه إلى حفلات ماجنة صاخبة ، ويزينون له فيها كل غَيٍّ ، ويهتكون فيها كل ستر . حتى كانت ليلة من ليالي شهر ديسمبر ١٩٥٤ ، تلك الليلة التي صبت فيها الطبيعة كل بردها على مدينة موسكو ، وغطى الثلج الكثيف معالم العاصمة ، وانخفضت درجة الحرارة إلى الثلاثين تحت الصفر ، في تلك الليلة كانت هناك حفلة ماجنة صاخبة دُعي إليها « فاسال » ، وكان البذخ ظاهراً في كل شيء : في الطعام والشراب والأضواء . وامتدت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، حيث بدأ المدعوون في الانصراف ، وحل السكون المطبق محل الصخب الهادر ، حيث لم يبق في المكان غير ثلاثة رجال من بينهم « فاسال » ، وكان أحدهم رجلاً متين البنيان ، مفتول العضل ، ضخم الجسم ، قوي الذراعين ، يخيل إليك حينما يقع بصرك عليه أن خير ما تفعله هو أن تتنحى عن طريقه ، لتنجو بنفسك ، وتحفظ عليك حياتك .

هذا الرجل الضخم المخيف بدأ يشد سروال « فاسال » إلى أسفل ، فقال له « فاسال » : « هيه .. هيه .. ماذا تريد ؟ ليس في جيبي نقود ولا تبغ . »

« لا أريد هذا ولا ذاك . »

« إذاً ، ماذا تريد ؟ »

أجاب الرجل والابتسامة الساخرة لا تفارق شفتيه : « إخالك فهمت مرادي . »

ومن يومها افتضح مستور « فاسال » ، وانكشف الغطاء عن مباذله ، وهوى الى الدرك الأسفل من مهاوي الرذيلة . وكان القوم يصورونه في أوضاعه المرذولة ، ويسجلون أحاديثه المقززة ، حتى إذا ما استحكمت حوله حلقاتهم ، واستوثقوا من أمرهم جابهوه بفضائحه ، وهددوه بإذاعتها على الملأ ؛ فأذعن لهم ، وانقاد انقياداً ذليلاً ، وانصاع لرغبتهم انصياعاً مخزياً . جندوه لحسابهم فلم يقاوم ، وأمروه فلم يعصَ لهم أمراً ، ولم يخالف لهم رغبة . وراح يمارس تجسسه على بلاده في ذل وهوان .

وعلى الرغم من أنه كان عميلاً نشيطاً ، ويقدم معلومات قيمة ، فإن المخابرات السوفييتية لم تكن تشعر نحوه بإعجاب ، ولم تكن شديدة الحرص عليه ، بل كانت ترى أنه عميل لعملية محدودة ، ينفذها وينتهي دوره ؛ لأنه - لسوء خلقه - سرعان ما ينهار إذا ما تعرض لأي استجواب .

وهذا ما حدث ، فحينما سقط الموظف البريطاني في إدارة المخابرات الحربية البريطانية « جورج بليك » ، و تشكلت لجنة « رادكليف » للتحقيق والاستيثاق من إجراءات الأمن ، كان من بين توصياتها إعادة النظر في ملفات الموظفين ، والتحري عن تاريخ حياتهم ، ومستوى أخلاقهم ، وطبيعة ممتلكاتهم .

وأسفرت التحريات عن حقيقة « فاسال » الظاهرة والباطنة ، وهي حقيقة بشعة ، من شأنها أن تؤذي النفوس الأبية والضمائر النقية . وتم اعتقاله في شهر سبتمبر ١٩٦٢ ، وعثر رجال مكافحة الجاسوسية في مسكنه على معدات التصوير ، وعلى سبع عشرة وثيقة سرية ، أنكر صلته بها ، وادعى عدم علمه بوجودها ، وأقسم أنه لا يعرف من دسها عليه . ولكنه سرعان ما انهار واعترف حين عثروا على رسالة في حذائه كانت معدة للإرسال إلى السوفييت .

ثم عاد وأنكر علاقته بهذه القضية من قريب أو بعيد . وعندما حاول أن يثبت مصدر ثروته اضطرب وارتبك ، وجاء بأقوال ملفقة تلفيقاً ينضح بالغباء ، ولاينبئ عن مثقال ذرة من ذكاء . ثم تخاذل ونكس عينيه في الأرض ، واعترف .. اعترف بكل شيء كما يعترف أمام القسيس .

ولعله كان يأمل في أن يغفر له اعترافُه ، وأن تعفو عنه المحكمة بعد أن سفح الدموع ندماً واستعطافاً . ولكن ذلك كله لم يُجْدِهِ فتيلاً ؛ فقد أودعته محكمة « أولد بيلي » السجن ، يقضي فيه ثمانية عشر عاماً ، جزاء ما اقترفت يداه ، ونتيجة شذوذه الذي أورده موارد التهلكة .

مغامرة متهورة

« هاري طومسون » شاب أمريكي ، يعمل ضابطًا طيارًا . يتمتع بقدر كبير من الوسامة ، وبقسط موفور من الجاذبية وخفة الظل . ولد في المدينة التي ولد فيها « تشارلز ميللر مانسون » زعيم جماعة « الهيپز » الذي هز ضمير العالم بما ارتكب من جرائم ، وبما اقترف من آثام . و هي مدينة صغيرة تكاد تكون مجهولة ، تُدعى « سينسيناتي » بولاية « أوهايو » في الولايات المتحدة الأمريكية .

كانت تسيطر على هاري في صباه رغبة عارمة في أن يصبح بطلاً رياضيًا ، فمارس أكثر من لعبة ، ولكنه لم يحقق في أيٍّ منها نجاحًا ذا بال ، فاتجهت همته إلى مجال البحرية حتى أصبح ضابطًا بحريًا يعمل على ظهر إحدى مدمرات الأسطول الأمريكي . وفجأة تحول اهتمامه إلى الطيران ، فالتحق بمعهد الملاحة الجوية في « أنابوليس » و تخرج ضابطًا طيارًا ، و تدرج في عمله حتى أصبح قائدًا لقاعدة « نوفولك » الجوية في « ڤرجينيا » .

وكان هاري بارعًا في عمله ، ذا كفاية عالية ، واقتدار بالغ على التصرف من تلقاء نفسه ، فكان موضع تقدير رؤسائه ومرءوسيه على حد سواء .

كما كان سوسة كتب – كما يقال – شديد الولع بالقراءة ، له قدرة فائقة على استيعاب ما يقرأ . وكانت فلسفته في الحياة تستند إلى أربع قواعد ، هي: (اصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب) (تغدَّ بالدنيا قبل أن تتعشى بك) و (أنا أولًا وليذهب الآخرون إلى الجحيم) و (إذا لم أكن لنفسي فمن لها ؟)

وكان هاري – طَوال حياته – مولعًا بمطاردة النساء ، وكانت له وسائله الذكية التي يصل بها إلى أية امرأة .

و بتحليل شخصيته ، ودراسة نفسيته ، اتضح أنه متقلب المزاج ، يحب التغيير المستمر ، ويهوى ممارسة الجنس بطريقة متغيرة مع فتيات صغيرات . وكان تشخيص الطبيب النفسي له هو ما يسمى « بالتعدد الجنسي » بمعنى : تعرفه بأكثر من فتاة في وقت واحد .

وكان هاري يعيش في مستوى اجتماعي فوق إمكاناته المادية ، مما اضطره إلى الاقتراض ؛ كي يحافظ على اندماجه في أوساط علية القوم . وكان أصدقاؤه الكثيرون لا يضنون عليه بالمال ، بل كلهم يرحب بإقراضه .

ولكن هذا الاقتراض المتوالي أغرقه في الديون ، وجعله مَديناً مزمناً ، تمسك الأزمات المالية بخناقه ، الواحدة تلو الأخرى ، فهو لا يرد ما اقترض ، ولايكف عن الاقتراض ، فكانت النهاية أن قُدم للمحاكمة العسكرية حيث صدر حكم بطرده من الخدمة العسكرية .

وراح هاري يبحث عن عمل يتعيَّش منه ، فلم يدع شركة من

الشركات إلا وتقدم إليها يطلب العمل ، ولا رجلاً من رجال الأعمال إلا والتمس عنده عملاً . فلما أوصدت دونه جميع الأبواب تقلّب في مهن كثيرة ، تتعلق كلها بأعمال البحر والنشاط التجاري البحري . وأخيراً استقر به الحال في وظيفة متواضعة في إحدى شركات الملاحة البحرية ، وسارت حياته نوعاً ما ، حتى كان ذلك اليوم الذى تغير فيه مجرى حياته ، وكان السبب في بدء سطور هذه القضية .

لقد سنحت له فرصة التعرف على رجل ياباني يدعى « توشيو ميازاكي » وقد يبدو عند النظرة الأولى أن هذا التعارف كان عفويًّا ، ولكن عند النظرة الفاحصة تجده غير ذلك . ونشأت بين الرجلين صداقة لم تلبث أن توثقت عراها في سرعة مذهلة ، فما كادت تمضي أسابيع حتى كان كل منهما يستمتع بصحبة صديقه استمتاعاً بالغاً ، ويجد في رفقته متاعاً مريحاً ، فكانا يجلسان الساعات الطوال يخوضان بحديثهما في شتى الموضوعات ، تغلب عليهما روح المرح والبهجة ، وتسودهما نشوة الصداقة ، حتى كان هاري يشعر في هذه اللحظات شعوراً قويا عميقاً بأنه لا يتسنى للمرء أن يجد صديقاً حميماً ألطف وأرق من توشيو .

وكانت هذه الصداقة الحميمة نقطة التحول في حياته .

لقد أتاحت هذه الصداقة لتوشيو أن يرقب هاري عن كثب ، وأن يتعرف على نقاط ضعفه التى تيسّر اجتذابه ، وأن يدرس كل خصائصه . و ما كان توشيو هذا إلا أحد ضباط « الكميتاي » – جهاز المخابرات اليابانية – تخفّى وراء ساتر هو كونه طالباً يدرس

اللغة الإنجليزية في جامعة « ستاتفورد » الأمريكية ، وما كان يبغي إلا تجنيد هاري لحساب الجهاز الذي يعمل فيه . ولقد أحكم تدبيره في صبر ودأب ، وسار بخطى ثابتة محسوبة ، حتى تأكد من سيطرته على صاحبه . وحينئذ فاتحه في العمل لصالح جهاز الكميتاي ، وألمح إليه بأنه سيدفع ثمناً مجزياً لخدماته .

وفي يوم قال توشيو لهاري : « ما رأيك ؟ »

رد هاري : « موافق . »

« إذاً نبدأ من الآن . »

وجد هاري في ذلك فرصة ذهبية ، ينبغي له أن يهتبلها ؛ إذ إنها تتيح له أن تستمر حياته الناعمة كما هي ، وأن ينفق على ملذاته وشهواته . كما تيسر له الوفاء بالتزاماته المادية ، وسداد ما عليه من قروض متراكمة . لذلك لم يكن غريباً عليه ، ولا عجيباً منه ألا يطيل التفكير فيما عُرض عليه من التعاون مع جهاز المخابرات اليابانية . ومن ثم أغمض عقله ، وألغى مشاعره الوطنية و وافق . وفهم هاري أنه منذ هذه اللحظة لا بد أن يفعل ما يؤمر به . وقبل أن يفترقا كلّفه توشيو تكليفاً يسيراً ، كان توطئة لما سيكلف به بعد ذلك من أعمال .

كانت الأسرار البالغة الأهمية بعيدة عن متناول يد هاري ، فهي هناك وراء الأبواب الموصدة إيصاداً قوياً في البنتاجون – وزارة الدفاع الأمريكية – أو تحت حراسة عسكرية مشددة ، لا يصل إليها إلا من يتقن التخفّي والمراوغة ، ويحسن التأتّي لأبوابها ، ولا يكل من

السعي إليها .

ولقد كان هذا مجتمعاً في هاري ؛ فهو حريص على نجاحه في خيانته حرصه على المال الذي تدرُّه عليه ، فكان يكثر التردد على الوحدات التي كان يعمل بها ، ويلتقي بزملائه الذين كانوا يثقون به ولا يتحرجون من الحديث أمامه ومعه عن أدق التفاصيل . ولذا تمكن هاري عن طريق هؤلاء الزملاء الذين لا يعرفون حقيقة اتجاهاته – من الحصول على معلومات حديثة و وافية عن هذه الوحدات ، وكفاياتها القتالية ، ومستوى تدريب أطقمها ، وتحركاتها. مما جعله ينقل صورة صحيحة دقيقة إلى الجهاز الذي يعمل لحسابه. كذلك كان هاري يكثر التردد على الموانئ الأمريكية المختلفة ؛ ليراقب تحركات الأسطول الأمريكي فيها ، ويلاحظ الإجراءات الدفاعية المتبعة في هذه الموانئ ، وغير ذلك من المعلومات الدقيقة التي تمس مصلحة الأمن القومي الأمريكي مساً مباشراً ، وتضرُّ به ضرراً بليغاً .

وتقدم هاري في خيانته تقدماً ملحوظاً ، وسار في طريقها بخطوات واسعة ، وغدت كلمتا : (الشرف – الوطن) لا تعني عنده شيئاً ، فقد فقدت كل مدلولاتها التي تعارف الناس عليها ، وتناقلتها الأجيال عبر القرون . وراح يزود توشيو بسيل جارف من المعلومات الدقيقة المملوءة بالتفاصيل ، والتي أرشدت اليابانيين إلى أسرار أمريكية لم يكونوا يدرون عنها شيئاً . وكانت « طوكيو » تجد تقاريره – بعد تحليلها وتقييمها – ذكية بارعة كافية يُعتمد عليها وتصفه بأنه « جاسوس لا يقدر بثمن » ، وتقول عنه إنه يعرف أسرار البحرية

الأمريكية كما يعرف ظهر يده . ومن ثم حظي لديها بتقدير بالغ ؛ مما دفعه للتمادي في الثقة بنفسه ؛ فانطلق يعربد في مختلف الموانئ والقواعد البحرية الأمريكية ، متخلياً في بعض اللحظات عن حذره وحرصه . ولكن القدر كان له بالمرصاد ، فقد كان يمدُّ له في غيه ؛ كي يفتل الحبل الذى سيلتف حول عنقه يوماً ما بإحكام ، ويراه الخائنون بعيداً وهو منهم جد قريب .

وإذا كان عالم الخيانة يقوِّم كل شيء بثمن ، فإن هذا الثمن يتضاعف عندما تصبح الخيانة مهنة . ولقد دفعت المخابرات اليابانية بسخاء ثمن ما حصلت عليه من هاري من أسرار ثمينة . لكن الولايات المتحدة الأمريكية دفعت بسخاء أكثر ثمن الأضرار الجسيمة التي نجمت عن خيانة هاري ، هذا الذي امتهن هذه المهنة القذرة في حق وطن ينتمي إليه ، ومطلوب منه أن يدافع عنه ، ويحرص عليه ، ويضحي من أجله . ولكن ، لكل شيء – كما يقولون – نهاية .

لقد كان هاري في زيارة صديق له ضابط بحري اسمه « جيمس » ، وتجاذب الرجلان أطراف الحديث ، وخاضا في موضوعات متنوعة . ولكن مما لفت نظر جيمس – ولقد كان الشك دأبه وديدنه – أن صاحبه كان يميل بالحديث في إلحاح إلى المدمرة الأمريكية الجديدة « بادليت » التي كانت تعد – في ذلك الحين – من الأسرار الحربية الأمريكية ، التي لا يمكن أن يسمح لأحد بمعرفتها ، فنمت بذلك بذور الشك في عقل جيمس ، وأزهرت وتفرعت وغدا مجسماً أمام ناظريه أن هاري يعمل في مجال غير

قانوني ؛ فتسرب شيء من الخوف أو كثير من الخوف إلى نفسه ؛ فاندفع يبلغ رجال مقاومة الجاسوسية بما ترعرع في صدره من شكوك ، ويطرح أمامهم جميع الأسباب التي تكمن وراء تبليغه ، ويوضح لهم ما يساوره من شكوك في أخلاق هاري وسلوكه وأهدافه ونواياه ، ويعتذر لهم بأنه لا يريد إقلاقهم ، ولا يود أن يتهم زميلاً سابقاً نتيجة شكوك غير قاطعة بما قد لا يكون صحيحاً . ولكن مخاوفه على وطنه ، وعدم اطمئنانه لمظهر زميله ، وطريقة أسئلته ، وتوجيهه دفة الحديث ، كل ذلك يدفعه لأن يضع الأمر بين أيديهم .

وكانت هذه بداية النهاية ؛ فقد تحرك رجال مقاومة التجسس : يبحثون وينقبون ويتحرون ، ويضعون تحركات هاري تحت المراقبة التامة ؛ لكي يعرفوا وسطاءه ومصادر معلوماته و وسائله . فكانت نتيجة هذا المجهود انكشاف أمره ، وافتضاح خيانته ومعرفة أبعادها ، وحقيقة حجمها ، مما جاء مؤكداً أن مخاوف جيمس وشكوكه كانت في موضعها .

وحدث كل شيء بعد ذلك في سرعة فائقة ؛ فمع خيوط الفجر الأولى دقَّ جرس الباب في شقة هاري . كان نائماً ، واستمر رنين الجرس بإلحاح . هب هاري من رقدته قام ليفتح الباب ، وما زالت آثار النوم في عينيه ، وما إن فتح الباب حتى اندفع رجال أربعة إلى داخلها ، وانتشروا في أنحائها ، وأخذوا يقلبون كل شيء فيها ، ويفتشونها تفتيشاً دقيقاً ، واصطحبوا معهم كل ما عثروا عليه من أوراق . وكان وجه هاري حينئذ مسرحاً لانفعالات متنوعة عنيفة . حاول أن يتكلم .. نطق كلمات مبهمة متقطعة ، فهم منها الرجال

أنه يسألهم عن شخصياتهم . نظروا إليه في استغراب ، وكادوا يضحكون تهكماً و ازدراءً ، وهمس أحدهم في أذنه في سخرية واحتقار :

« أظنك تعرف من نحن . »

وأمسك أحدهم بيد هاري اليسرى ، ولواها ليشل حركته . ولم يستغرق هذا المشهد الساخن أكثر من ثوانٍ خمس ، انتهى بعدها بتقييد يديه خلف ظهره . وحاول أن يعترض على ما يفعل به ، فصاح – في انفعال – محتجًا : « ماذا تريدون مني أيها السادة ؟ »

رد أحدهم في جفاء : « من الأفضل لك أن تغلق فمك . »

هز هاري كتفيه في حركة تنم عن الحيرة ، وتشي بالاضطراب ، ثم قال : « أليس من حقي أن أعرف ؟ »

قاطعه صوت خشن يقول : « هس . ولا كلمة أخرى . »

واقتادوه – في صمت رهيب مفزع – إلى سيارة بيضاء اللون من طراز « بونتياك » وألقوا به في مقعدها الخلفي ، ودلفوا إليها ، فانطلقت بهم مسرعة ، تتبعها سيارة أخرى بها ثلاثة رجال ، تتبعها سيارة ثالثة بها رجل واحد . جميعهم من رجال المخابرات الأمريكية. وانكمش هاري في المقعد الخلفي – حيث ألقوا به – بين اثنين من الرجال ، وخرجت الكلمات من فمه ، في صوت خافت يائس :

« إلى أين تذهبون بي ؟ »

وجاءه الرد :

« ليس بعيداً ، يا هاري . »

عاد هاري يقول وهو يرتجف ، وجبينه يتفصد عرقًا : « إلى أين تأخذونني ؟ ولأي سبب ؟ »

ربت أحدهم على خده مستصغراً شأنه ، وقال : « عليك بالصمت . اخرس نهائيًا . »

ولم يكن أمامه من شيء يفعله سوى أن يقبع مستخذياً في مكانه، وينتظر ما تسفر عنه الأحداث . وإن كان يدرك – مقدماً – ما ينتظره هناك .

و ما كادت الساعة تتجاوز الرابعة صباحاً حتى كانت السيارة « بونتياك » قد اجتازت بوابة إدارة المخابرات الأمريكية بعد رحلة مثيرة حافلة بالقلق ، ثم توقفت بعد قليل من البوابة ، وأمر أحدهم هاري أن ينزل ، وساقوه أمامهم . مروا ببعض البوابات التي كانت تغلق فور عبورهم ، حتى وصلوا إلى ممر ينتهي بباب فولاذي ثقيل ، و وجد هاري نفسه في مكتب أنيق ، أمام رجل أنيق ، يفتر ثغره عن ابتسامة ، لا يدرك هاري إن كانت ابتسامة مكر ودهاء ، أم ابتسامة سخرية واستهزاء . أخرج الرجل ملفًا كبيراً ، وتظاهر بتقليب صفحاته ، وتشاغل بقراءته ، ثم ترك القراءة بعد حين وقلب نظارته بين أنامله ، ثم نظر إلى هاري وراح يتفرس في ملامحه بعناية ، ثم شرع في الحديث بصوت هادئ جاد مسموع : « سنختصر التفاصيل . أنت طبعاً جاهز للاعتراف . »

أربكت هذه المباغتة هاري وَحدَّت من فاعليته ، ولكنه – بسرعة – حاول السيطرة على أعصابه ، ومداراة ارتباكه ، و تساءل وكأنه فوجئ : « للاعتراف ! للاعتراف بماذا ؟ »

رد الرجل عليه في ثقة وثبات : « أنت تعرف . »

تمالك هاري نفسه ، وقال : « إنك تطلب المستحيل ؛ ذلك أنك تريد أن أعطيك معلومات عن شيء لا علم لي به . »

حدجه الرجل بنظرة قاسية ، شعر هاري أنها تخترق جسمه ، ثم قال بهدوء : « للاعتراف بالتهمة . »

وتمادى هاري في تصنعه الدهشة والاستغراب ، وعاد يتساءل : « تهمة ؟ أية تهمة ؟ »

أجاب الرجل في صوت هادئ بطيء : « لا تضيِّع وقتًا ، وقل لي ما حدث بالضبط ، واجتهد في أن تقول الحقيقة . »

وبلهجة الذي يحاول – ما استطاع – تبرئة نفسه ، قال هاري : « صدقني لا أعرف شيئاً . أرجوك أن تفهم هذه الحقيقة . »

نظر الرجل بحدة وتركيز في عيني هاري ، ثم قال : « التجسس . أنت متهم بالتجسس . »

عاد هاري يسأل الرجل في أنفاس مبهورة وكأنه أهين : « أنا جاسوس ؟ لمن ؟ »

وفي لهجة حازمة قاطعة قال الرجل : « حدد أنت الجهة التي تعمل لحسابها ، ولكن المهم أن تعترف ثم نبحث في التفاصيل . »

حاول هاري قدر استطاعته أن يبدو طبيعيًا ، فقال وهو يحاول السيطرة على كل خلجة من خلجات وجهه : « إن مجيئي هنا خطأ لا شك فيه . »

أطلق الرجل ضحكة ساخرة وقال : « لا أعتقد أن استنتاجك هذا صحيح ؛ فما دمت خائنًا فينبغي أن تكون هنا . »

أحسّ هاري أنه يتعرى أمام الرجل ، فصاح في تلعثم : « هل يمكنني أن أعرف من أين أتيتم بهذه الأكذوبة ؟ أنا أنكر من كل قلبي هذا الزعم . لا بد أن هناك خطأ . »

« السؤال الآن : ماذا نستطيع أن نفعل حيال هذا الخطأ ؟ هل نأخذك إلى السجن مباشرة أم أنك تريد أن تتحدث ، ثم نرى بعد ذلك ماذا يمكن أن يحدث ؟ »

« سيدي ، لا بد أن هناك خطأ ، و يسرني أن أوضحه إذا استطعت . »

« اسمع ما سأقوله لك جيداً . من المنطقي أنك تكذب فيما تقول . انظر إلى هذه الصورة . هل تعرف هذا الرجل ؟ »

تملكت هاري دهشة بالغة ، وسيطر عليه ذهول صاعق ، ثم قال : « لا ، فإني لم أره من قبل . »

« أ ليس هذا الرجل صديقاً لك ؟ »

« أنا لم أره في حياتي . »

مدّ إليه الرجل يده بصورة أخرى ، ثم قال له : « دقق في هذه

الصورة .. هل تذكر متى التقطت ؟ »

رد هاري من فوره ، وقلبه يَجِفُ ، وعيونه ترتجف : « إني لا أعرف شيئًا عن هذه الصورة . »

وفي هدوء وبلهجة ودية سأله الرجل : « هل أنت واثق ؟ »

وفي حماس وضغط على مخارج الحروف ، أجاب هاري : « كل الثقة . »

نظر إليه الرجل نظرة طويلة فاحصة ، ثم مضى يقول : « فكر في حياتك كلها ، وأخبرني : متى اتصلت لأول مرة بالرجل توشيو ميازاكي؟ وأية دوافع وآراء أقنعتك باتخاذ جانبه؟ »

نزل السؤال على هاري نزول الصاعقة ، وغاصت روحه في قدميه وشعر أن الرجل يعلم حقيقته . ومع ذلك أصر على عدم الاستسلام، فقال وهو يجاهد في التحكم في نبرات صوته : « بحق السماء ، عمَّن تتكلم ؟ وعن أي شيء ؟ »

نظر الرجل إليه شذراً ، ثم قال في لهجة حاسمة : « حسناً ، سوف أتركك وشأنك لكي تفكر في موقفك ؛ فمن الطبيعي أن هناك أشياء كثيرة نود معرفتها منك ، ولكنّا لن نضغط عليك ، وأعتقد أنك – في النهاية – ستحدثنا عن كل شيء بمحض إرادتك . وعندما ترى نفسك مستعدًا للحديث اطلب مقابلتي ، وإلا ستدفع ثمن ذلك غاليًا . »

لم يجد هاري مفرًّا من أن يتحدث ، فمعلومات الرجال عنه

تحاصره من كل ناحية ، وتضيّق عليه الخناق ، وتسد عليه المسالك ؛ فراح يراوغ أحياناً ، ويصمت أحياناً أخرى ، ويخلط في حديثه قليلاً من الحقيقة بكثير من الأكاذيب . ولكنه اقتنع أخيراً من طريقة أسئلتهم ، ومن نصوصها ، أنهم يدركون حقيقته منذ فترة غير قصيرة إدراكاً دقيقاً ، وأنهم آثروا متابعته على القبض عليه ، آملين في الحصول على المزيد من المعلومات عن الأسلوب الذي يعمل به جهاز الكميتاي وأهدافه واحتياجاته .. حينئذ أطلق للسانه العنان ، وأنشأ يعترف تفصيليًّا ، دون أية ضغوط من أي نوع .

قال : « كنت أدرك أن هذا اليوم سيجيء حتماً ، وأنا الآن على أتم استعداد لأن أقول لكم كل شيء ، وأتحمل عاقبة صنيعي ، فقد حان الوقت لكي أدفع ثمن كل ما اجترحت من ذنوب ، وما اقترفت من آثام . »

ثم راح يروي لضباط مقاومة التجسس تفاصيل ما حدث ، منذ اللحظة التي التقى فيها و توشيو ميازاكي حتى اللحظة التي ألقي عليه القبض فيها ، ثم قال ، وقد ألمت به صحوة ضمير مفاجئة :

« إنني شديد الأسف ؛ لأن سلوكي أضر بوطني ، ولطخ اسمي واسم أسرتي بالعار . »

وانتهت القضية بتقديم هاري للمحاكمة العسكرية بتهمة ارتكاب عمل ضار بالمصالح القومية الأمريكية العليا ، وتقديم منفعة لدولة أجنبية هي اليابان ، وحاول هاري التنصل من المسئولية ، وجاهد محاميه لكي يضعه في موقف المتهم المضطر للاعتراف بجرم لم

يقترفه . لكن المحكمة أدانته ، وقضت بإعدامه رمياً بالرصاص بعد أن نظرت في ظروف القضية نظراً مدققاً فاحصاً .

قال هاري بعد أن سمع الحكم بإعدامه : « بغضِّ النظر عن حجم الخطأ والمسئولية فإنني لم يدر بخلدي لحظة أن أكون خائناً لوطني مهما كانت الإغراءات ، وإن هذه المحاكمة - مهما كانت قوتها - لن تمحو عار العمالة والخيانة والتعاون مع اليابانيين ضد بلادي . »

وقال أيضا : « لست من الملائكة ، وإنما أنا بشر ، وليس هناك إنسان معصوم من الخطأ . هذه هي غلطتي الوحيدة ، إنها مجرد غلطة ، والله قادر على أن يسامحني .. فليسامحني الله . »

و وصف مافعله بأنه كان « مغامرة متهورة » فعلها من « باب المغامرة فحسب ! » ثم أضاف قائلاً إنه لم يكن ينتوي قَطُّ أن يفعل ذلك .

وإذا كان صحيحاً أن الأعمال بالنيات ، فهل تكون الخيانة كذلك ؟ ربما ! ولم لا ؟ فكل شيء في عالم الخيانة جائز . وهذا هو منطق الخونة و قانونهم ولكن ليس بالنيات وحدها يتحقق أمن الوطن .

أ ليس كذلك ؟

المراجع

- **التجسس في الولايات المتحدة** : باول مونات .
- **مدرسة الجواسيس** : برنارد هوتون .
- **أشهر الجواسيس السوفييت** : جوزيف نيومان .
- **نساء جاسوسات** : برنارد هوتون .
- **عالم الجاسوسية** : برنارد نيومان .
- **جواسيس الذرة** : آلان مورهيد .
- **الجاسوسية على المشرحة** : رونالد سميث .
- **حرفة المخابرات** : آلان دالاس .
- **النشاط السري لعملاء المخابرات السوفييتية** : جون بارون .
- **حرب الدهاء** : لاديسلاس فاراجو .
- **الجاسوس الكامل** : جون لوكير .
- **معركة العقل** : د. وليام سارجنت .
- **الجواسيس الحمر في واشنطن** : جورج كاربوري .
- **الجاسوسية السوفييتية** : دافيد دالين .
- **الحكومة الخفية** : ديفيد وايز و توماس روس .
- **الحرب الخفية « فلسفة الجاسوسية ومقاومتها »** : صلاح نصر .
- **جنرالات هتلر** : موسى بدوي .






يطلب من : شركة أبو الهول للنشر